الجمهوريّة التونسيّة

وزارة الثّقافة

المركز الوطني للاتصال الثّقافي

تونس في تراجم أعلامها

الجزء الثاني

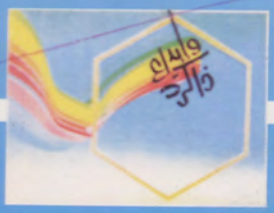
المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

تأليف

محمّد الصالح المهيدي

إعداد ودراسة

أنس الشّابي



دار الكتب الوطنية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

تونس في تراجم أعلامها : الجزء الثاني

تأليف : محمد الصالح المهيدي
إعداد ودراسة : أنس الشابي
تاريخ النشر : 2012
الناشر : وزارة الثقافة، المركز الوطني للاتصال الثقافي
مكان النشر : تونس
اللغة : العربية
الوصف المادي للوثيقة : 263 ص. ؛ 21 سم.
ردمك (ISBN): 978-9973-910-43-1
السلسلة : ذاكرة وإبداع ، عدد 41
الموضوع : : أعمال وتراجم محمد صالح المهيدي
تصنيف ديوي العشري : 920.5
المفاتيح : أعمال، تراجم، أعلام تونسيين، ، محمد صالح المهيدي ، الصحافة التونسية، التراجم المهيدية، الحركة الإصلاحية، الحداثة، النهضة الأدبية والفكرية في تونس، المكتبة الوطنية التونسية، الخلدونية الرقمية، الانسانيات الرقمية.

A-8-218773

دار الكتب الوطنية التونسية © كافة الحقوق محفوظة

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

1-8-218773
الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة
المركز الوطني للاتصال الثقافي
دار الكتب الوطنية
التوثيق والاعلام
رقم: 2013/81

سلسلة «ذاكرة وإبداع» [41]

تونس في تراجم أعلامها

- الجزء الثاني -

تأليف

محمد الصالح المهيدي

إعداد ودراسة

أنس الشابي

381070
49 10 5

« ذاكرة وإبداع »

* سلسلة ثقافية فصلية
* النّاشر : وزارة الثقافة - تونس
* منشورات المركز الوطني للاتصال الثقافي
* إدارة : نور الهدى الصدفي
* إشراف : عبد الوهاب الدخلي
* الكتاب رقم **41** - خريف **2012**
* العنوان : "تونس في تراجم أعلامها" (ج 2)
* تأليف : محمد الصالح المهيدي
* إعداد ودراسة : أنس الشابي
* الصور : وزارة الثقافة - أرشيف فتحي لواتي
* توثيق : أنس الشابي
* الطبعة الأولى : **1000** نسخة
* الإنجاز الطباعي : ميدياكوم - تونس **2012**
* جميع الحقوق محفوظة لوزارة الثقافة - المركز الوطني للاتصال الثقافي
* ر. د. م. ك. ISBN : 978-9973-910-43-1

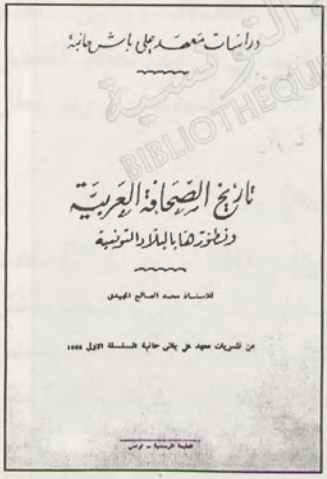
الإخراج الفني والمتابعة : فتحي لواتي



محمد الصالح المهيدي

(1905 - 1969)





من بحوثه المنشورة في ستينيات القرن العشرين

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

الجمهوريّة التونسيّة
وزارة الثّقافة
المركز الوطني للاتصال الثّقافي

تونس في تراجم أعلامها

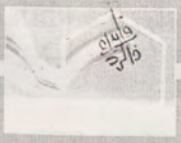
الجزء الثاني

تأليف

محمّد الصالح المهيدي

إعداد ودراسة

أنس الشّابي



المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



محسن زكريا*

(1871 ـ 1950)

في هذا الأسبوع سار إلى عفو ربّه السيّد محسن زكريا الذي قام بدور في التاريخ التونسي الحاضر وجب علينا استعراضه في سطور خدمة للتاريخ.

مولده وتعليمه

ولد المرحوم خلال عام 1288هـ/ 1871م[1] من أبوين لهما اتصال كبير بالعائلة المالكة الرفيعة العماد وزاول العلم بالمدرسة الصادقيّة ومنها بعث به والده إلى فرنسا حيث التحق بمدرسة اللغات الشرقيّة ومدرسة العلوم السياسيّة ولم تطل مدّة إقامته هناك فعاد إلى الوطن.

اشتغاله بالصحافة

في 5 رمضان سنة 1328هـ/10 سبتمبر 1910م أصدر أوّل عدد من جريدته "النصر" وهي من الصحف الأدبيّة التي تشيد بذكر نبغاء الملوك وتشجّع الناشئة الأدبيّة على النهوض والمعرفة، وصدر آخر عدد منها في 30 ذي القعدة حيث عطلتها الحكومة فأصدر بدلها جريدة "الفلاح" يوم 9 ذي الحجّة من ذلك العام، ولكنّها تعطلت أيضا وقد حدّثني الفقيد يوم 25 محرّم سنة 1368هـ/28 نوفمبر 1948م أنّ الكتابة العامّة قد ألقت عليه القبض بواسطة أعوان المحافظة بساحة البورصة، وألقت به في سجن باردو مدّة 15 يوما لأنّه من أصهار العائلة المالكة وذلك هو سبب تعطيل جريدته،

وكان يساعد في تحرير جريدته المنعّم الأستاذ محمّد الجعايبي صاحب جريدة الصواب وغيره من كتاب العصر.

اشتغاله بالتأليف

اشتغل بعد ذلك بالتأليف فأصدر سنة 1331هـ كتابه المعروف "سلافة العناصر بمفاخر الملك الناصر" وهو أوّل كتاب تونسي من نوعه استعرض فيه حقبة من التاريخ التونسي المجهول ونشر فيه صورته وكتب تحتها هذين البيتين:

هـذه صـورتي تمـثل أنّي
خادم العلـم بكـرة وعشيّا
صارعتني حوادث الدهر حتى
شـاب رأسي وما بلغت عتيّا

وألف رسالة أخرى تحت عنوان "العبد الأسود" استعرض فيها حياة وتصرّفات وكيل أملاك التاج في ذلك العهد، غضب عليه من أجلها الجالس على العرش التونسي المقدّس المبرور محمّد الناصر باشا باي عليه الرحمة وأدخله سجن باردو[2].

شباب باكر

يقول الفقيد في كتابه سلافة العناصر إنه اجتمع بالأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده عند زيارته إلى تونس في شهر صفر سنة 1301هـ/1883م وتحدّث معه واستمع إليه في عدّة مناسبات ومن أجل ذلك استعرض ترجمة حياته في الكتاب المذكور الصفحة 57.

تطوّعه في الجيش

لمّا شبّت نار الحرب الكبرى سنة 1914 تطوّع في صفوف الجيش الإفرنسي وعمل فيه بجدّ واجتهاد إلى أن أحرز على رتبة ضابط (كولونيل) ومن أجل ذلك كان ضمن الهيئة التي ألفها بتونس قدماء المحاربين للدفاع عن مصالحهم، وقد نشرت جريدة المبشر بعددها 22 الصادر في 18 شعبان 1343هـ

استعراضا لمحاكمة جريدة "العصرالجديد" المعروفة ومحرّرها الزعيم المشهور الأستاذ محيي الدين القليبي، قالت فيه إنّ الفقيد واجه المقيم العام الإفرنسي بتونس (ولعله م.فلاندان صاحب الميثاق المشهور) بدعوى أنّه ينوب عن المحاربين وقال له إنّ القسم الإسلامي من جمعيّة القوّاد والعساكر المحاربين التي أتشرّف بتقديم مجلس إدارتها إليكم أتى لِيُسَفِّهَ على رؤوس الأشهاد السلوك المنكر الذي اتخذه بعض المهيّجين الذين يدّعون الدفاع عن مصالح بلادنا والكلام على لسان الأمّة التونسيّة[3].

في خدمة الإدارة

ومرّت أيّام على هذا الموقف انتخب إثرها الفقيد من طرف الحكومة التي سمّته خليفة على طبرقة ثم ارتقى إلى رتبة عامل بنفزاوة وهناك حدثت حوادث كاتب الماليّة الإسرائيلي ممّا لا يتسع لذكره المجال نقل بعدها صاحب الترجمة إلى تونس وألحق بخزينة مكاتيب الدولة التونسيّة إلى أن أدركه سنّ الإحالة على المعاش.

العمل الحر

بعد ذلك اشتغل الفقيد بالعمل الحرّ فأسّس مع جماعة من التونسيّين في الأعوام الأخيرة مؤسّسة دعوها شركة التقدّم الاقتصادي التونسي للفلاحة والصناعة والتجارة وأسندوا إليه رئاسة مجلسها الإداري وروّجوا عدّة رقاع ماليّة ولا ندري ما آل إليه أمرها حتى الآن.

---

* "الصريح" العدد 50 بتاريخ 27 جانفي 1950.

1) ذكر لامبير في قاموسه ص 433 بأن المترجم له ولد سنة 1876.

2) له كتيّب آخر عنوانه "خلاصة سياسيّة في الأدوار الاستعماريّة" طبع طبعة أولى في مطبعة العرب سنة 1334هـ / 1914م في 16 صفحة.

3) انظر ملزومة عبد الرحمان الكافي فيه المنشورة في جريدة "جحا" ع 139 س 13 بتاريخ 20 جانفي 1921 من بين ما جاء فيها:

سمعتوش بالقعر يا من حضر
عقلو انخمر كذاب وسفيه كذبو انشهر
سمعتوش بالجعب يا من حضب
عقلو انخرب كذاب وسفيه صادو كلب
خلالنا العار بين العرب
رضيت قبر ولا عادشي نشوف نوع البشر

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



محمد المقداد الورتتاني*

(1874 ـ 1950)

فقدت محافل الأدب والعلم في الشهر المنصرم عالما أديبا وشاعرا لطيفا ومؤلّفا بارعا هو المرحوم محمّد المقداد الورتتاني.

زاول الفقيد تعليمه بجامع الزيتونة الأعظم وبالمدرسة الخلدونيّة، وكان من بواكير التلاميذ بها، ونظرا لما امتاز به من حدّة الذكاء والنشاط العلمي قرّبه إليه أب النهضة التونسية المنعم الأستاذ البشير صفر رئيس الخلدونيّة وأحد مؤسّسيها وجعله محلّ رعايته، حتى أنه بمجرد تحصيله على شهادتي التطويع في العلوم وإجازة الخلدونيّة انتخبه ليكون موظفا بجمعية الأوقاف فتقلب في عدّة خطط منها نيابة الجمعية بالقيروان التي قضّى بها مدّة طويلة وقام فيها بعدّة أعمال لفائدة الموقوف والموقوف عليه. وكان محلّ احترام وتقدير كبار رجال الدولة التونسيّة فطالما عهد إليه القيام بمأموريات كبرى أنجزها على أحسن وجه وأتمّه حتى أثار ذلك غضب حسّاده ومزاحميه.

اغتنم الشيخ المقداد فرصة اتصاله بذوي الأمر بتونس فقام بتأليف عدّة كتب، وإن لم تُقدَّر حق قدرها زمن تأليفها لكنها ستكون ذات أهمية كبرى فيما يستقبل من الأيام.

فمن ذلك الكتاب الكبير الذي دعاه "البرنس في باريس" وهو مجلد ضخم يحتوي على مئات من الأبحاث الأدبيّة والتاريخيّة والعلميّة والصّور النادرة المثال ضمّنه الحديث عن الرحلة التي

قام بها من القيروان إلى البلاد الإفرنسية سنة 1912 وشحن فيه فوائد جمّة.

وطريقة الشيخ في التأليف هي الطريقة المغربيّة التي تعمد إلى جمع الفوائد والشوارد مهما دعت المناسبة إلى ذلك وهي طريقة المقري في كتابه نفح الطيب وأزهار الرياض من القدماء، ونقيب السادة الأشراف الشيخ عبد الرحمان بن زيدان في كتابه تاريخ مكناس من المحدثين.

ومن الكتب التي ألفها وصرف فيها جهدا كثيرا ومالا وفيرا كتاب "المفيد السنوي" وهو كتاب فاق غيره من التقاويم المغربيّة في مختلف الأزمان إذ أنه امتاز بكثرة الفوائد العلميّة والتاريخيّة مع الصّور المطبوعة طبعا أنيقا فاخرا، وقد حدثني رحمه الله بأنه كان يقوم بطبع صور الكتب التي ألفها بدور الطباعة الأوروبيّة وكان يلاقي في سبيل ذلك كلّ نصب ومع ذلك لم تفتر له عزيمة.

وآخر ما أصدر من المؤلفات "النفحة النديّة في الرحلة الأحمديّة" وهو كسابقيه من حيث غزارة المادّة ووفرة المعلومات والصّور، ثم ما امتاز به من الأشعار التي جمعها المؤلف والتي قالها الشعراء التونسيّون بمناسبة الرحلة التي قام بها أحمد باي الثاني إلى الديار الإفرنسيّة وهي التي ألف من أجلها الكتاب.

وكان اتصاله برجال الدولة من أهمّ العوامل التي تحمله على التأليف أو نظم الشعر في مختلف المناسبات كالتهاني والتعازي، وشعره منشور إما بالصحف المحليّة أو التقاويم التونسيّة، وقد رشح نفسه مرّة للتحصيل على جائزة الشعر التي أعلنت عنها بعض الجمعيّات الأدبية بتونس فقدّم إلى اللجنة عشر قصائد من شعره (وهو النصاب المشترط) أكثرها مطبوع في جرائد أو تقاويم وعليه مراجعات وتصحيحات من المترشح.

وعندما أحيل الشيخ على المعاش انقطع إلى الدرس والكتابة فانخرط في سلك المدرسين المتطوّعين بجامع الزيتونة وبذلك أعاد سابق عهد شبابه، فقد اتصل في ذلك العهد ببعض أفراد

العائلة الرفيعة العماد وتعاطى تعليم أبنائهم فكان عمله ذا نفع كبير وإليه يعزى الفضل في تثقيف البعض منهم ممّن لا زال بقيد الحياة أمدّ الله في عمره.

لم يقتصر في عهده الأخير على التدريس فقط بل أخذ يعدّ بعض الأبحاث للنشر والطبع فحقق عدّة مخطوطات وكتب عنها دراسات كانت محلّ إعجاب رجال مؤتمر الثقافة الإسلاميّة الذي انعقد بتونس في الصائفة الماضية عندما عرض عليهم بعض أبحاثه وتحقيقاته.

ومن قبل هذا المؤتمر شارك في بعض المؤتمرات العلميّة الأخرى كمؤتمر اللغة العربيّة الذي انعقد بتونس سنة 1931.

وللشيخ صبابة في اقتناء الكتب وعلى الأخصّ المخطوطات والنادر من المطبوعات فقد رأيت بخزانته مختصرا لـ"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي طبع بإيطاليا في القرن السادس عشر ميلادي.

ومن أمثلة محبّته للتدقيق العلمي أن مشيخة الجامع الأعظم عهدت إليه في هذا العام تدريس تاريخ الحروب الصليبيّة فجمع لهذا الغرض معلومات جمّة من كتب التاريخ لكنه عندما سمع برسالة مؤلفة في نفس الموضوع ألحّ في التحصيل عليها من بعض أهل العلم حتى يكون ما يقدّمه إلى تلاميذه مستوفى في البيان جامعا للنادر والشارد. كان الشيخ يقوم بهذا العمل وعمره قد أشرف على الثمانين ومع ذلك فقد كانت له همّة لا تفتر ولا يرغب كثيرا في التحدث فهو من رجال الأعمال وهؤلاء قليلون في قطرنا ويا للأسف.

لم يكن الشيخ من أبناء العائلات الذين يفتخرون بحسب أو نسب بل كان عبقريّا عصاميّا فرض نفسه على كلّ المعامع التي خاضها وكان منتصرا فيها إلى أبعد حدّ.

عاش وحيدا ومات شهيدا لم يمش وراء جثمانه إلا عدد قليل جدًّا من أصدقائه ولم يرثه واحد من زملائه ولم تسكب عليه دمعة

حرّى من الذين كانوا منه نتاج غرسه، وذلك شأن هذا المجتمع الجاحد الكافر الذي لا يتحرّك أهله إلا لذوي الجاه والمال.

رحمك الله بقدر ما قدَّمت من عمل ولئن لم يحتفل بك قومك الآن فسيأتي اليوم الذي يذكرك فيه التاريخ الذي لا يظلم أحدا، نم هانئا وعليك من ربِّك الرحمة والرضوان وسلام عليك يوم عملت ويوم مت ويوم تبعث حيّا من شاكر فضلك والمعترف بعملك، الحزين عليك محمّد الصّالح المهيدي.

---

* "الصريح" ع 60 بتاريخ 12 ماي 1950.

عثرنا في وثائق المهيدي بخط يده أن الشيخ الورتتاني "عند انخراطه بشركة التقاعد قيّد أنه من مواليد عام 1874 وانخرط تحت عدد 7149 وتقاعد في غرّة أفريل 1934".

المكتبة الوطنية التونسية BIBLIOTHEQUE NATIONALE TUNISIE

الصادق التلاتلي*

(1873 ■ 1950)

فقدت التربية والتعليم أحد أبطالها وانهدّ ركن من أركان الثقافة بالبلاد التونسيّة بموت الأستاذ الصّادق التلاتلي أوّل متفقد للتعليم العربي بالمدارس الابتدائيّة العربيّة الإفرنسيّة. تخرّج الفقيد من المدارس العليا الإفرنسيّة حيث أحرز على شهادة الليسانس في الحقوق ثمّ انتدبته الحكومة للتفقد وباشره أكثر من ربع قرن، والأستاذ الراحل من مؤسّسي الجمعيّة الخلدونيّة ومن الذين انتدبهم المرحوم البشير صفر للتدريس بها.

وكان من المساهمين في إنشاء المدرسة القرآنيّة الأهليّة بنهج سيدي بن عروس بتونس سنة 1906، كما أنّه من الذين عملوا لإحداث مدرسة البنات المسلمات بنهج الباشا وهي المدرسة الثانوية الوحيدة للبنات التونسيّات المسلمات.

بعد أن أحيل على الراحة الإداريّة في سنة 1931 لم ينقطع عن خدمة الثقافة بل تصدّى لها أثناء انتخابه عضوا في المجلس الكبير حيث ساهم في تسيير دولاب اللجنة الثقافيّة بالقسم التونسي من هذا المجلس وكان لا يدّخر وسعا في الدفاع عن المؤسّسات الثقافيّة فكان من أكبر المناصرين لمشروع تعميم المعرفة[1].

كان باب التعليم الثانوي شبه مغلق في وجوه الشبّان التونسيّين في غير الآداب العربيّة فأوعز الأستاذ التلاتلي إلى ابنه صلاح الدين أن يتابع دروس التاريخ والجغرافيا بالكليات الإفرنسيّة إلى أن أحرز فيهما على شهادة الليسانس، وما انفكّ الأب يعمل لدى مختلف الدوائر حتى فتح الباب لابنه فانتخب مدرّسا لهاتين المادّتين بمعهد كارنو بتونس منذ عهد بعيد، وهو أوّل شابّ تونسي وُفّق لطرق هذا الباب الذي فتح فيما بعد لبعض أقرانه.

والأستاذ التلاتلي من عائلة عريقة في المجد من مدينة نابل جُلُّ أفرادها من المثقفين نذكر من بينهم الدكتور التلاتلي صاحب المواقف المشهورة في خدمة الثقافة بهذا الوطن فهو رئيس جمعيّة أحبّاء الطلبة التي تساعد التلاميذ التونسيّين على متابعة دروسهم بكليّات فرنسا وعاد كثير منهم مزوَّدا بالمعارف لهذا الوطن.

كما خدم التلاتلي الجمعيّات والمؤسّسات الخيريّة وذلك بتخصيص الإعانات لها من الميزانيّة التونسيّة أثناء انعقاد دورات المجلس الكبير طيلة عشرات السنين.

ونذكر بهاته المناسبة أنّ التلاتلي الصغير قد بدأ يساهم في خدمة الثقافة العامّة زيادة على دروسه الرسميّة وذلك بواسطة مجلة حكمة التي أصدر منها بعض أعداد كانت مثال الرقيّ الفكري للصحافة الراقية.

رحم الله الأستاذ التلاتلي بقدر ما خدم هذا الوطن وأعان ابنه على النسج على منواله.

---

* "Tunis soir" بتاريخ 7 ديسمبر 1950.

1) كتب الصادق التلاتلي بعض المقالات نشرها في جريدة الزهرة خلال شهر ماي 1948. عنه انظر جريدة الشباب س1 ع1 في أكتوبر 1936، نشرت الزهرة قصيدين احتفالا بتوسيمه الأوّل منهما للرحّالة المصري صدّيق أحمد ألقي نيابة عنه ونشر في العدد 1652 بتاريخ 5 أكتوبر 1913 والثاني لصالح السويسي القيرواني نشر في العدد 1648 بتاريخ 30 سبتمبر 1913، عنه كذلك عدد خاص من مجلة التعليم العربي صدر بمناسبة تكريمه، الجزء 4، المجلد 6، جانفي 1930، وقد ورد فيه أنّه ولد في 19 سبتمبر 1873. انظر كذلك"على وضوك ياسي خليفة" لسليمان الجاودي في أبونواس ع 16 بتاريخ 22 ديسمبر 1910.

محمد الأخضر البرقاوي*

(1870 ـ 1953)

تمهيد

إن تسجيل حسنات العاملين من أوكد واجبات محبّ التاريخ والمنتسب إليه، قد يسمع أحدنا بوفاة أحد المواطنين فلا يعير نبأ وفاته أهميّة كبرى فإذا أعاد النظر ورجع إلى ماضيه وجد في أعماله ما يستحق التسجيل، وهذا ما حدا بي إلى نشر أعمال شخص طواه المنون في شهر جويلية المنصرم وهو المنعّم محمّد الأخضر البرقاوي العميد الشرفي لوداديّة المحامين التونسيّين.

مولده ونسبه

ولد الفقيد خلال سنة 1287هـ/1870م في قرية برقو الواقعة بعمالة أولاد عون على بضعة أميال من عاصمة الجهة بلدة سليانة، وبعد أن بلغ أشدّه وحفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه بعث به والده إلى الحاضرة التونسيّة لمزاولة العلوم العربيّة بجامع الزيتونة المعمور فتلقى العلم على فطاحل ذلك العصر أمثال الشيخ عمر ابن الشيخ والشيخ سالم بوحاجب وغيرهما إلى أن أحرز على شهادة التطويع بتفوّق.

التدريس أو المخزن ؟

بعد أن أتمّ تعليمه الزيتوني أصابته الحيرة التي كانت تصيب كل زيتوني فما عساه يفعل أيستمر في متابعة العلوم عشرات السنين إلى أن يحدث شغور في خطط التدريس بجامع الزيتونة وقد كان عددها لا يساوي عُشر ما هو موجود الآن...؟ أو يبحث عن عمل إداري ينخرط في سلكه لينتفع بمواهبه أبناء جلدته...؟ وبينما كان على تلك الحالة إذ بلغ إلى علمه فتح

مناظرة لانتداب وكلاء وهم الذين يُدْعَوْنَ اليوم بالمحامين التونسيّين، فساهم في المناظرة التي فتحت سنة 1310هـ/1892 و1893م وكان النجاح فيها حليفه.

وقد أخذ عليه بعض معاصريه هذا المركز الذي اختاره لنفسه وعدّه عَونا من أعوان المخزن وهذه العبارة كانت تطلق على كلّ موظف في الحكومة التونسيّة في السلك الإداري، وغاب عن أذهان هؤلاء ما تضفيه مهمة المحاماة من أردية الفخار على صاحبها.

بمدينة الكاف

اختار الفقيد مدينة الكاف التي أسّس فيها مجلس عدلي في ذلك العهد لمباشرة مهنته وذلك لقربها من مسقط رأسه حتى يكون مساعدا لوالده في شؤونه العائلية، ومن مظاهر البرّ بالوالدين التي امتاز بها الفقيد أن كل ما حصل عليه من المكاسب حال حياة والده لم يجرأ على شرائه باسمه الخاص بل إنه اشتراه باسم والده.

استقر الفقيد في مدينة الكاف فكانت داره محلّ ضيافة أغلب الوافدين عليها خصوصا من كانوا حكاما أو محامين أو ينتسبون إلى العدالة لأنه لا يوجد في تلك الأيام نزل صالح لسكنى القادمين، أما مكتبه فكان مجمع أنس ومحلّ ألفة بين مختلف رجال القضاء والمحاماة.

عنايته بأبنائه

لم يُلهه الاشتغال بمهنته عن العناية بأبنائه بل رأيناه يُوَجِّهُهُم توجيها إسلاميا راقيا، وأوّل ما يبدأ به في هذا الباب هو الحرص على تحفيظهم القرآن الكريم ثم بعد ذلك يوجِّههم إلى المكاتب العصرية بين ابتدائيّة وثانويّة وعالية، وقد ظهرت آثار هذه التربية وهذا التوجيه في حياة أبنائه البررة الذين عرفت البعض منهم أثناء مساهمتي في أعمال اجتماعية وثقافية، من هؤلاء الأبناء

السيّد عبد الحميد الذي كان يعمل معنا في هيئة الدفاع والتضامن البشري حيث كنا نعقد جلساتنا بمكتبه بالحجرة الفلاحيّة التونسيّة للشمال وقد كان أحد أعضائها البارزين وكان يرأس بعض جلساتها بطلب منا رغم وجود كثير من المحامين بل عمداء المحامين أمثال الأساتذة دوران أنقليفيال وكسترو وغيرهما وكذلك الأطباء والحكماء وقد رأيت منه المثل الأعلى في الرصانة والعمل الصامت، كما تعرفت إلى ابنه الآخر السيّد تاج الدين عند قيامي بجولات دعائيّة لفائدة جمعيّة قدماء وطلبة الحقوق التونسيّة وسمعت الكثير من الناس يثنون على نشاطه الفلاحي بأعمال أولاد عون وأولاد عيّار والكاف، أمّا الصديق الفاضل ابنه الشيخ محمّد الصّالح فإن نشاطه معروف في عالم الرياضة فهو كاهية رئيس رابطة ألعاب القوى التونسيّة وهو من الأعضاء البارزين الذين أسّسوا جمعية الزيتونة الرياضيّة الشهيرة وهو الذي يدير ويشرف على قسم ألعاب كرة السلة في هذه الجمعية، لا فرق في ذلك بين قسمي الذكران والإناث. إن هذا النشاط المشكور الذي يقوم به أبناء الفقيد في الميدان الاجتماعي كان أحد النتائج المرضيّة للتربية الصالحة التي رباهم عليها والدهم المبرور.

عمله في المحاماة

باشر الفقيد المحاماة بنزاهة وإخلاص طيلة ستين عاما كان خلالها مثال الاستقامة ومضرب الأمثال في الحزم وحسن الخلق، كان يشعر وهو يباشر مهنته بما يشعر به كل زملائه من وجوب السعي إلى لمّ شعثهم وتوحيد كلمتهم تحت منظمة خاصة بهم نظير ما هو موجود لدى زملائهم بالمحاكم الأخرى فسعى مع فريق من الوكلاء في سنة 1347هـ/1928 و1929م إلى بعث ودادية لهم ضمت نخبة منهم وأصدرت لها نشرة حرّرها وأدارها المرحوم الأستاذ عبد الرحمان الكعاك وثلة من رفاقه، ولمّا تطوّرت مهنة

المحاماة وارتفع عدد أفرادها بازدياد محاكم النواحي بالقطر التونسي رغب مع زملائه من الحكومة أن تمنحهم نفس الامتيازات التي منحت لغيرهم ووقع الاستمرار في المطالبة بذلك إلى أن فازت لائحة المحاماة وقبلت من طرف الدوائر العليا.

طلب الراحة

وعندما رأى الفقيد أنه قد أدى رسالته وقام بواجبه أحسن قيام طلب إحالته على الراحة فأجيب بذلك في السنة 1371هـ المنصرمة، وانتقل بالسكنى من مدينة الكاف إلى بلدة حمام الأنف ليكون قريبا من أبنائه وأفراد عائلته المستقرّين بتونس.

عمادة المحاماة

لمّا انعقد مؤتمر المحامين التونسيّين لأوّل مرة في صائفة العام المنصرم يوم 15 جويلية 1952م نودي به رئيسا للمؤتمر ومُنح لقب عميد المحامين بإجماع المؤتمرين الذين قدّروا ما له من الخدمات وما قام به من جليل الأعمال.

تعرّفي بالفقيد

قمت برحلة إلى مدينة الكاف سنة 1366هـ/1947م لتأسيس فرع لجمعية قدماء وطلبة الحقوق التونسيّة التي كنت أرأسها فكان الفقيد من خيرة من ساعدوني على إنجاز مأموريتي بمساهمة المحامي البارع الأستاذ عبد الحميد بن سليمان والحاكم اللامع الشاعر الناثر إبراهيم عبد الباقي. عندما حللت بمكتب الفقيد وجدته قد انتهى من عمله الاعتيادي وهو التفاهم مع زبائنه واتجه إلى عمل آخر وهو تحفيظ القرآن الكريم لأحفاده فكان البعض منهم يملي عليه لوحته والبعض يراجع (يكرّر) والبعض بصدد الحفظ بحيث انقلب المكتب إلى مدرسة قرآنية عصريّة لعائلة البرقاوي الماجدة، أمّا في المساء فقد شاهدت الفقيد خارج البلدة جاعلا من أشجارها الباسقة خير أنيس، تاليا لكتاب الله العزيز وذاكرا لبعض أوراده وهكذا يخلو إلى نفسه عابدا ذاكرا.

وفاته

توفي الفقيد يوم 15 جويلية المنصرم ووري جثمانه التراب بحمام الأنف وأبّنه عميد المحامين الأستاذ عبد العزيز الشابّي[1] بخطاب بليغ نشرته زميلتنا الزهرة بعددها الصادر في 12 ذي القعدة المنصرم، كما نشرت الزميلة الغرّاء جريدة الوزير كلمة عن الفقيد رحمه الله رحمة واسعة بقدر ما عمل من حسنات وعزاء لأهله وأصهاره.

---

* "الأسبوع" العددان 351 بتاريخ 28 سبتمبر و352 بتاريخ 5 أكتوبر 1953، أمّا العنوان الأصلي للموضوع فهو "الشيخ البرقاوي فقيد المحاماة".

1) عنه في "صدى الذكريات" لعلي الشابّي، نشر دار نقوش عربية، تونس 2010، ص 30 وما بعدها.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الحـــاج علـــي صـــوة*

(1870 ـ 1953)

لعلك أيها القارئ قرأت في الصحف والمجلات أخبار نوبل الثري الأوروبّي الشهير الذي أوقف ثروته على العلماء الذين يقدّمون اختراعات ويكشفون مجاهل لفائدة الإنسانية، وجائزة أو جوائز نوبل تقدّم في كلّ عام للعلماء المشار إليهم بقطع النظر عن جنسيّاتهم أو الأقطار التي ينتسبون إليها، ولم تقتصر جوائزه على لون خاصّ من ألوان العلوم، فكما أنّها تمنح للأديب أو الفنّان فإنها تمنح للطبيب أو الكيميائي أو عالم الفيزياء وذلك لتشجيع بني الإنسان على ما يفيد الإنسان، فهذا الإحساس الإنساني مصدره عاطفة الأخوّة البشريّة ومرماه إرادة الخير لكلّ البشر، وجائزة نوبل تاج يوضع كلّ عام على رؤوس عدد من العلماء ينالونه عن جدارة واستحقاق، هذه الروح السامية التي تحلى بها نوبل نجد لها نظائر وأشباها في بلادنا التونسيّة لا فرق بين الرجل والمرأة ممّن وسّع الله عليهم الرزق وآتاهم من الكسب الحلال ووفقهم إلى فعل البرّ الذي سوف لا ينقطع نفعه مهما طالت الأيّام وتعاقبت السنون.

ولعلك أيها القارئ زرت مدينة تونس أو سمعت على الأقلّ إن لم تتمكن من زيارة مستشفى عزيزة عثمانة تلك المؤسّسة الإحسانيّة التي اضطلعت بها أميرة تونسيّة هي المرحومة عزيزة بنت عثمان داي التي أسّست مستشفى بتونس وأوقفت على تسييره والانفاق عليه عدّة زياتين تشملها ولايتا سوسة وصفاقس اندرجت في العهد الجمهوري السعيد في أملاك الدولة.

فهذا التأسيس الإنساني من المآثر الخالدة في تاريخ الإحسان الإنساني في هذا البلد خصوصا في عهد الاستعمار الذي كان يبخل على التونسيّين بما هو من مستلزمات الدولة من المهمّات الحيويّة في مقدّمتها الاهتمام بالصحّة العامّة.

وقد كانت مداخيل وريع هذا الوقف تصرف على المستشفى الذي اختار له المصلح الخطير خيرالدين باشا ثكنة البشامقيّة وأجرى عليه من الإصلاحات العصريّة ما هو جدير به وجلب له طبيبا مسلما من بلاد الجزائر هو المرحوم الدكتور قدّور وكلف بإدارة صيدليّته أخ الدكتور إبراهيم الذي كانت له صيدليّة بسوق البلاط واستمرّت تعمل هناك إلى أن توفي في حدود سنة 1924.

وفواضل هذا الوقف كانت تصرف في مشاريع تونسيّة ثقافيّة هامّة من بينها التدريس بالجوامع داخل البلاد التونسيّة حتى يضمن خيرالدين نشر الثقافة الإسلاميّة والعربيّة في عموم القطر التونسي، ذلك أنّ ضمان الصحّة والمعارف من أبرز مظاهر حياة الأمّة واطراد تقدّمها.

هذا هو المثل الأوّل الذي نستطيع أن نفاخر به في تونس بدأته امرأة فاضلة وأتمه مصلح خطير.

أمّا المثل الثاني الذي نريد ضربه للعمل الصالح في الثلث الثاني من هذا القرن فيتمثل في رجل أمّي عاش يتيما محروما من حنان أبيه وعطفه لم تتمكن أمّه من تعليمه فدخل معترك الحياة بعزم وكدّ، رائده في ذلك حبّ العمل والإنتاج فلمّا أفاض الله عليه من رزقه الواسع ومكنه من التحصيل على ثروة طائلة رصد كلّ ما يملك من الملايين لإنجاز المشاريع التي تنفع البشر فتحافظ على صحّته وتنمّي مداركه العقليّة، وتجعله قادرا على القيام بشعائره وفروضه الدينيّة، ذلك الرجل هو المنعّم المبرور الحاج علي بن محمّد "بالفتح" صوّة المولود بقرية قصر هلال من الساحل التونسي سنة 1870.

وإذا كانت قصر هلال قد ذاع صيتها بعد انعقاد مؤتمر الديوان السياسي بها في مارس 1934 فهناك مقوّمات وأسباب تقدّمت على هذا الحدث لتجعله أكثر بروزا. فقبل خمسة أعوام من انعقاد المؤتمر أسّس المنعّم الحاج علي صوّة مدرسة حرّة للتعليم الابتدائي بدأها بستة أقسام وارتفع هذا العدد تدريجيّا إلى 18 قسما.

وقصة هذه المدرسة تتلخّص في أنّ جمعا من أهل الإحسان والغيرة الوطنيّة الإسلاميّة قد صحّ عزمهم على تأسيس مدرسة قرآنيّة كالمدرسة التي أسّسها سكان المكنين المجاورة لهم تحت إشراف المنعّم الشيخ فرج عاشور وتعاهدوا على جمع المال وشرعوا في ذلك وجاؤوا إلى صاحب المبرّات وأعلموه بقصدهم فسارع بتمكينهم من الأرض التي يريدون إنشاء المدرسة فوق ترابها، ثم بعد الاختيار تعهّد ببنائها من ماله الخاص، وأتمّ وعده وكانت المدرسة الابتدائيّة بالمكان ضعيفة الإنتاج بحيث أنّها لا تخرج في كلّ عام إلا تلميذا واحدا يحصل على الشهادة الابتدائيّة.

وكانت السنّة المتبعة لدى المدارس القرآنيّة في التعليم هي تهيئة تلامذتها للدخول إلى المدارس الحكوميّة في سنة اجتياز امتحان الشهادة الابتدائيّة أو السنة التي قبلها بحيث يفوز التلاميذ بالشهادة الابتدائيّة عن طريق المدرسة القرآنيّة لأنّ التعليم الفرنسي بها كان ضعيفا على عكس ما هو موجود في المدارس الحكوميّة.

من أجل ذلك لم يمانع مدير المدرسة الابتدائيّة الفرنسيّة بقصر هلال من فتح مدرسة قرآنيّة بالمكان ليحصل له شرف تقديم تلاميذها إلى التعليم الثانوي والإحراز على الشهادة الابتدائيّة. وقد مكنت عزيمة الحاج علي صوّة وقدرته الماليّة وعاطفته الوطنيّة من اختيار المعلمين الأكفاء في اللغتين لمدرسته.

وهكذا بعد خمسة أعوام من التأسيس بدأت المدرسة التي كان يديرها الفاضل ابنه السيد محمّد علي صوّة تقدّم تلامذتها إلى مختلف الدرجات في التعليم الثانوي أو إلى الشهادة الابتدائيّة وحدها وبدون التجاء إلى مدرسة الحكومة الابتدائيّة وبدأت النتائج الباهرة تظهر العام تلو العام، الأمر الذي جعل الحكومة تضايقها بسعي من مدير المدرسة الابتدائيّة الفرنسي، ومن أبرز أنواع المضايقة الكيد للمعلمين بالمدرسة الهلاليّة القرآنيّة والزجّ بهم في السجون بتهمة التداخل في الحركة الوطنيّة ونذكر على سبيل المثال المرحوم السيد محمّد زخامة المكني أحد المعلمين بتلك المدرسة، والغاية من هذا السجن وتلك المضايقة هي عرقلة سير التعليم بهذه المؤسّسة الثقافيّة التي كانت إلى جانب التعليم تبثّ في التلاميذ الروح الوطنيّة وتجعل منهم رسل تبشير ينقلون معهم إلى مدارس التعليم الثانوي تلك الروح القوميّة وبذلك يلهبون الحماس في مختلف المدارس التي ينتمون إليها وقد كانت جلها إن لم تكن كلها بمدينة تونس اللهم إلا مدرسة واحدة ثانويّة بسوسة.

امتداد للمدرسة

قبل أن نتحدّث عن هذا الامتداد تجب الإشارة إلى أنّ المرحوم الحاج علي صوّة كان ينفق على المدرسة من ماله الخاصّ حيث يقوم بتأثيثها وشراء جميع مواد التعليم ودفع أجور المعلمين ومن يقومون بشؤون النظافة.

كما تجب الإشارة أيضا إلى أمرين هامّين آخرين أحدهما أنّ إدارة التعليم العمومي قد حرمت هذه المدرسة من المنحة السنويّة التي كانت تسلمها للمدارس القرآنيّة الأخرى وثانيهما أنّ التعليم بها كان مجانيّا بحيث لا يدفع تلامذتها ولو كانوا من أبناء الأغنياء أجرا مقابل تعلمهم بها.

أمّا الامتداد الذي قام به المرحوم الحاج علي صوّة لمدرسته بقصر هلال فيتمثل في تأسيس المدرسة الهلاليّة بمعقل الزعيم بمدينة تونس سنة 1938 ذلك أنّ المتخرّجين من مدرسته يتوجّه

منهم ما يقارب التسعين في المائة إلى تونس لمتابعة تعليمهم الثانوي بها فيجدون أمامهم صعوبة لم يتمكنوا من تذليلها ألا وهي محلات الإقامة بالنسبة لمن كان منهم خارجيّا وأخصّ هؤلاء طلبة التعليم بجامع الزيتونة ذلك لأنّ المدارس الزيتونيّة أصبحت غير كافية للطلبة ثم هناك المحسوبيّة والرشوة التي كانت تقدّم للمسؤولين عن سيرها.

وحرصا منه عليه رحمة الله على الطلبة أسّس هذه المدرسة التي كانت تحتوي على 43 بيتا، وكلّ بيت يسكنه على الأقلّ تلميذان، بحيث كانت تؤوي لِحَدِّ المائة تلميذ وجعل ابنه محمّد السالف الذكر ناظرا لها وجعل الأولويّة في السكنى بها للمتخرّجين من مدرسته بقصر هلال وذلك بقطع النظر عن المعهد الثانوي الذي يزاولون تعليمهم به، وقد رغب المؤسّس من ابن بلده المرحوم الشيخ محمّد بوشارب الأديب والشاعر والكاتب[1] أن يسجّل هذا الحدث شعرا فنظم أبياتا نقشت على رخامة ورسمت فوق بابها.

استمرّت المدرسة الهلاليّة القرآنيّة على أداء رسالتها الثقافيّة والمدرسة السكنيّة التابعة لها بتونس على وظيفتها الاجتماعية وتخرّج بفضل هذا التأسيس الكثير من الأطبّاء والمحامين والأساتذة ومن يشغلون اليوم الخطط الهامّة في الدولة والمؤسّسات العامّة، والفضل في ذلك يعود إلى ما بذله هذا الرجل المحسن من المال وما وهبه من الجهد البدنيّ حتى أنّه عند بناء المدرسة كان يساعد البنّائين في عملهم ويقول إنّه يزكي عن بدنه عسى الله أن يغفر له ما اقترف في شبابه.

انتهت مأموريّة المدرسة كمؤسّسة حرّة عند تأميمها من طرف الدولة سنة 1958، أمّا مدرسة السكنى فقد دخلت في برنامج توسيع ساحة معقل الزعيم سنة 1959 حيث قرّرت بلديّة تونس إزالتها وما حولها من المساكن الأخرى ووزّع

الساكنون بها على المبيتات الخاصّة بالطلبة ومن بينها الحيّ الجامعي برأس الطابية من مدينة تونس.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مدرسة السكنى كان حَبَّسَ عليها مؤسّسها نزلا بتونس يعرف بنزل صبرة وخصّ ريعه الوافر للانفاق على شؤون المدرسة من ماء وتنوير وتنظيف وتجديد لِما قدم من أثاثها وأجرة المسؤولين عن تنظيفها بحيث لا تحتاج إلى من ينفق عليها. وعند صدور أمر 31 ماي 1956 القاضي بحلّ الأحباس العامّة أصبح النزل من أملاك الدولة.

الشؤون الصحيّة والدينيّة

إذا كانت عزيزة عثمانة قد أسّست مستشفى وأضاف خيرالدين إلى عملها عملا ثقافيّا هو صرف جانب من ريع وقف المستشفى على شؤون التعليم، وإذا كان نوبل قد عمّم جوائزه بين العلوم والآداب فإنّ نوبل تونس المرحوم الحاج علي صوّة قد سنّ سنّة حسنة وهي أنه بعد كل عشر سنوات يقدّم للشعب التونسي هديّة ثقافيّة أو صحيّة أو دينيّة أو اجتماعيّة، ففي سنة 1928 أسّس المدرسة القرآنيّة وفي سنة 1938 أسّس المدرسة الخاصّة بسكنى الطلبة وفي سنة 1948 أسّس مستشفى عصريّا أقامه من ماله الخاصّ على أرض يملكها تمسح عشرة آلاف متر مربّع ومجهّزة تجهيزا عصريّا تامّ الموجبات من حيث الآلات الطبيّة والأسرّة والأدوية وجميع ما يحتاجه أيّ مستشفى وأنفق على ذلك 36 ألف دينار في ذلك العهد وجعل جرايات الأطبّاء من ماله الخاصّ وأرسل أحد أبنائه يتعلم الطبّ بفرنسا، ليكون مديرا لهذا المستشفى. أتمّ كل ذلك احتسابا لوجه الله الكريم وخدمة للوطن العزيز، وليجعل هذا المستشفى قائم الذات (غير محتاج إلى الإنفاق عليه من طرف حكومة الحماية السابقة) حبّس عليه أعظم ضيعة فلاحيّة عرفت في ذلك العهد وهي هنشير البزّازيّة وما أدراك ما البزّازيّة، ومستشفى قصر هلال القائم الذات حتى اليوم يشهد بما لهذا الرجل من الأيادي الكريمة على بني الإنسان

المكتبة الوطنية التونسية

لأنّه يقبل المرضى من جميع المدن بقطع النظر عن مسقط رأس المريض. ومن مشاريعه الاجتماعيّة العمرانيّة تأسيسه لحمّام عصري بقصر هلال، وهذا الحمّام حبّس ريعه على المدرسة التي أسّسها هناك بحيث أدّى التأسيس وظيفتين اجتماعيّة وثقافيّة وذلك من حسن تبصّر هذا الرجل الأمّي.

أما المساجد والجوامع التي أسّسها من ماله فكثيرة نذكر منها على سبيل المثال مسجدا بقابس شيّد سنة 1952 بطلب من السكان وتأسيسه جامعا جديدا في قرية بنّان وآخر في قرية شراحيل.

وفي خصوص قصر هلال وسّع المسجد المعروف بمسجد الحاج علي سويد وذلك سنة 1952 وأعاد بناء جامع الجبل في نفس البلدة وفي نفس السنة. وقد اشترى من ماله لهذه الجوامع والمساجد كلّ ما هي في حاجة إليه من منابر وحصر وغير ذلك.

هذه نماذج من إحسانات نوبل تونس التي ستذكرها له الأجيال الصاعدة بعد أن عرفها جيلنا الحاضر استعرضناها باختصار تاركين تسجيل حسناته للتاريخ مع الملاحظة بأنّه كان يعيش في تقشف لم يتنازل عن لبس الكدرون والمساهمة في الأعمال اليدويّة لمشاريعه العمرانيّة إلى أن توفي يوم السبت 31 أكتوبر سنة 1953 عليه رحمة الله.

وعسى أن تكون سيرته قدوة حسنة لذوي المال الذين يصرفونه في شؤونهم الخاصّة والشعب التونسي في أشدّ الحاجات لمن يأخذ بيده من ذوى الثراء والمال.

---

* "مرآة الساحل" ع 10 السنة الثالثة في جويلية 1968، عن إحياء ذكرى علي صوّة انظر جريدة الصباح بتاريخ 13 نوفمبر 1954، لصالح السويسي القيرواني قصيد (متع لِحاظك) يشيد فيه بمبرّات علي صوّة منشور في ديوانه، طبعة الدار التونسيّة للنشر، تونس 1977 ص 68.

1) عنه في "تاريخ الصحافة العربيّة التونسيّة" لمحمّد الصّالح المهيدي ص 140، كما نشر عنه الشيخ محمود شمام مقالا عنوانه "القاضي الأديب الشيخ محمّد بوشارب" في مجلة الهداية، العددان الأول والثاني، السنة 26، بتاريخ مارس وجويلية 2001، ص 107 وما بعدها.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



حمـــودة بوســـن*

(1883 ـ 1954)

نسبـــه

هو السيد حمّودة بن الطيّب ابن الحاج حمّودة بن حمّودة بوسن، ترجم لجدّه مؤرّخ العصر الحسيني الشيخ أحمد ابن أبي الضّياف فقال عنه إنّه انتخب من طرف الوزير الشريف محمّد العربي زرّوق خزندارا للكتابة ثم انتقل إلى قلم المحاسبات في بيت الخزندار على عهد أبي عبد الله حسين باي ثم نقله إلى ديوان الإنشاء بالمحكمة ولمّا كبر سنّه قام مقامه ابنه الطيّب.

وأقول إنّ الطيّب هذا تقلب في عدّة خطط إداريّة كان معظمها بالوزارة الكبرى وقد أفضت إلى مشاحنات بينه وبين بعض منافسيه من رجال عصره لا محلّ لذكرها هنا.

يتلخّص من ذلك أنّ صاحب الترجمة من عائلة ذات حسب ونسب، تقلد النابغون من أفرادها أعلى المناصب الإداريّة نذكر من بين هؤلاء الذين عرفناهم المرحوم محمّد (بالفتح) بوسن الذي ارتقى إلى خطة رئيس محكمة النقض والإبرام بالحاضرة التونسيّة وكان رئيسا للجمعيّة الخيريّة من سنة 1926 إلى سنة 1932 وهي السنة التي توفي فيها رحمه الله.

ولد السيّد حمّودة بوسن قبيل انبثاق فجر القرن الرابع عشر الحالي، وبعد أن بلغ سنّ التعليم بعث به والده إلى

المدرسة الصادقيّة وقد كانت مدرسة أبناء الذوات، ومنها انتقل إلى مدرسة نهج سان شارل التي عرفت فيما بعد بليسي كارنو، وبعد أن كرع من مناهل المعرفة في المدرستين لم تحدّثه نفسه بالاشتغال بالوظيف بل فضّل عليه الاشتغال بالشؤون الزراعيّة والأعمال الاجتماعيّة في كثير من الجمعيّات التي سنتحدّث عن بعضها فيما يلي.

عصـــره

كان عصر الفقيد بوسن عصر انكماش خصوصا في العهد الذي سبق الحرب العالميّة الأولى لذلك لم يساهم كأمثاله من أبناء الأعيان في أيّ عمل اجتماعي أو سياسي أو ثقافي بل كان يعدّ العدّة للمساهمة بالنصيب الوافر في مختلف ميادين النشاط اللاسياسي بعد الحرب.

الشروع في العمل

عندما بدأت الحركة التونسيّة تظهر للعيان سنة 1340هـ وطالب أعيان الأمّة من المغفور له الناصر باي بواسطة وفد الأربعين المشهور منحها الدستور وتفرّع عن هذا الطلب تأسيس الحزب الحرّ الدستوري التونسي وأخذت الجمعيّات التونسيّة كالجمعيّة الخيريّة وقدماء الصادقيّة والناصريّة وغيرها تستأنف نشاطها وتعيد تكوين مجالسها الإدارية كان الفقيد من بين من زجّوا بأنفسهم في هذا الميدان فأخذ يرشح نفسه للعمل مع نخبة الأمّة للأخذ بيد المشاريع وإيقاظها من سباتها العميق الذي طال من عام 1911 إلى عام 1922 إذ في هاته السنة انتخب الفقيد ضمن هيئة جمعيّة قدماء الصادقيّة واستمرّ يعمل فيها نحو العشرين عاما كان خلالها عضوا تارة وأمين مال تارة أخرى.

وهو الذي ربط الصلة بين هاته الجمعيّة وجمعيّة قدماء ليسي كارنو ونشأ عن ذلك مساهمة قدماء الصادقيّة في تنظيم القوافل

الاستطلاعيّة التي كانت تقوم في كلّ عام برحلات إلى البلاد الأوروبيّة كما سيأتي بيانه. وعندما أعادت قدماء الصادقيّة تنظيم ناديها الأدبي في سنة 1924 كان الفقيد من بين أعضاء الجمعيّة الذين لا يتخلفون عن اجتماعاته الأسبوعيّة والسعي في إقامة المهرجانات الأدبيّة مهما دعت الحاجة إلى ذلك.

لم يكن الفقيد بالأديب الكاتب أو الناثر ولكنّه كان شغوفا بحبّ الأدب وعلى الأخصّ أدب المرح.

تعرّفت به في النادي منذ سنة 1929 وكنّا نجتمع في كلّ يوم في حدود الساعة الأولى بعد الزوال بنادي القدماء وكانت مفاكهات وظرف بينه وبين المرحوم أحمد العتكي لا يخلو منها يوم من أيّام الأسبوع.

ولقد كنّا نعجب من بعض خصوصيّات الفقيد فقد كان يجلس على الكرسي الوثير وبيده عكازه لا يفارقه ويتجاذب الحاضرون مختلف أنواع الحديث ويلتفت إليه أحدنا فيجده مغمض العينين فيظنّ أنّه في حالة نوم فإذا سأله عن الحديث الذي كان يدور قصّ عليه مجمل ما دار في المجلس.

وإنّي لا أستطيع الحديث عن كل المتناقضات الظاهرة في حياة الفقيد العزيز كما أنّي لا أقدر على تفسيرها اللهم إلا القول بأنّ مقدرته كانت نادرة الوجود.

يجتمع بالشيوخ فيتحدّث معهم أحاديث الشيخوخة فإذا انفرد بالشباب بعث فيهم روح العزيمة والإقدام على العمل، وفي الحقّ كانت سيرته الشخصيّة وزكاء أوقاته للعمل في الجمعيّات كانا مضرب الأمثال، محبوب من رجال الحكومة بما في ذلك الدولتان المحميّة والحامية وأمره بالمثل مع أفراد الشعب.

أمـانة المـــال

وقد مرّت أزمنة طويلة من حياة الفقيد كان أمين مال لعدّة جمعيّات تونسيّة كقدماء الصادقيّة والخيريّة الإسلاميّة

التونسيّة والجمعيّة الناصريّة والتمثيل العربي والاتحاد المسرحي وغيرها، ومع ما تتطلبه هاته المهمّة من النزاهة والحزم فإنّه كان مبرّأ الساحة من جميع التهم التي تحوم عادة حول من يتقلدها.

ابتكـار حسـن

تنظّم جمعيّة قدماء تلامذة مدرسة ليسي كارنو قافلة تقوم في كلّ عام برحلات إلى البلاد الأوروبيّة للاطلاع والتنزّه وكانت هاته القافلة تدعى القافلة التونسيّة وتحوطها الدولة الإفرنسيّة في ترابها بكل رعاية وعناية تسهّل لها مأموريّتها فإذا تجاوزت ترابها خاطبت الحكومة الإفرنسيّة الحكومات المعنيّة أرضها بزيارة القافلة التونسيّة بمساعدتها أيضا على مهمّتها، ونتج عن هذا الابتكار تمتع المواطنين بما لا يتمتع به السكان أبناء البلاد ولفت هذا الشأن نظر الفقيد فسعى لدى تلك الجمعيّة وطلب منها توسعة دائرة عملها وذلك بقبول عدد من التونسيّين المسلمين الذين يرغبون في الارتحال إلى أوروبا، وبعد الأخذ والردّ قبل طلبه ودعيت القافلة فيما بعد بالقافلة العلميّة التونسيّة إذ أنّها كانت تضمّ عددا من العلماء والمدرّسين وتلامذة المدارس التونسيّة.

وكان الفقيد يسافر في كلّ عام مع هاته القافلة إلى أوروبا مع زميله م.نيكولا الإفرنسي وبذلك حصل للتونسيّين كبير اطلاع على ما يجري خارج بلادهم عند الأمم المتمدّنة.

وقد نقلت مجلة العالم الأدبي في عدد شهر أكتوبر سنة 1930 حديثا مستفيضا عن الفقيد تضمّن فوائد الارتحال وما انجرّ للتونسيّين من خير بسبب تلك القافلة.

حـزم وعـزم

كان الفقيد عضوا في الجمعيّة الناصريّة التي أسّست في عام 1903 تحت اسم الهلال ثم تفرّعت عنها جمعيّة تحت اسم

الحسينيّة وفي عام 1907 وقع ضمّ الجمعيّتين تحت عنوان الناصريّة وكانت أعمالها قاصرة على الموسيقى وفي عام 1925 أسّست قسما رياضيّا للجمباز.

وعندما توفي رئيسها المرحوم السيد محمّد الورتتاني في جويلية 1941 انتخب الفقيد رئيسا لهاته الجمعيّة وكبر عليه أن يبقى شأن أقدم جمعيّة فنيّة على حالتها الحاضرة فسعى للحصول على عقار من الحكومة يتسع للقيام بما هو منوط بعهدتها من الأعمال الرياضيّة.

ووقع اختياره على البناية الشامخة التي أسّسها المغفور له المقدّس المبرور حمودة باشا سنة 1217هـ/1802م بالحفصيّة وجعلها مصنعا لإنشاء المدافع للدولة التونسيّة.

وهنا يجب أن نتحدّث عن خلة اتصف بها الفقيد وهي أنّه إذا تعلقت همّته بأمر لم يزل يعمل وراءه إلى أن يحصل عليه وهكذا كان شأنه مع مختلف الدواوين الإداريّة التي يهمّها أمر تلك البناية الكبرى كإدارة الاقتصاد العام وإدارة التعليم العمومي والكتابة العامّة للحكومة التونسيّة والوزارة الكبرى والإدارة البلديّة فكان يعمل ليلا نهارا متردّدا على هاته المصالح الإداريّة إلى أن أحرز على إجازة التصرّف فيها باسم الناصريّة وذلك خلال عام 1945.

فــروع العمــل

بعد أن قام بترميم تلك البناية وتجهيزها وصرف في هذا الشأن الأموال الطائلة، خصّصها للرياضة وأبقى الموسيقى بمقرّ الناصريّة القديم الكائن بنهج الجلود، أحدث في قصر الرياضة بالحفصيّة عدّة فروع للرياضة كالملاكمة والمصارعة وحمل الأثقال، في شهر ديسمبر 1946 فتح قسم الملاكمة بالحفصيّة داخل قصر الرياضة تحت إشراف البطل المعروف المختار بن مراد، وفي 7 أفريل من ذلك العام نجح من تلامذتها في شهادة

البروفي العليا للجمباز 16 تلميذا من بين 28 ناجحا. وفي يومي 22 و23 جوان من ذلك العام قامت بالتنظيم والإشراف على المناظرة الرياضيّة الكبرى السنويّة التي أناطها بعهدتها مجلس المؤتمر الرياضي وهي أوّل جمعيّة تونسيّة نالت هذا الشرف.

وبعد هذا النجاح أصبح قصر الرياضة كعبة القصّاد للكبراء والعظماء من الداخل والخارج وهو مزار لِكبار الشخصيّات والفضل في ذلك لعزم وحزم الفقيد المرحوم حمودة بوسن.

منظمة جديدة

عندما انكمشت جمعيّة قدماء الصادقيّة وناديها الأدبي فكر الفقيد في إنشاء ناد للآداب بتونس يضمّ الأدباء ويجمع شملهم وفعلا وجّه نداء إلى هؤلاء بتاريخ يوم 5 جانفي 1948 لتأسيس النادي الأدبي الناصرة جاء فيه "... وبعد فالذي نخبر به أخوّتكم هو أنّ الناصريّة ابتكرت فكرة تأسيس ناد أدبيّ تجري جلساته بمقرّها الكائن بنهج الجلود عدد 6 في كلّ يوم جمعة على الساعة الرابعة مساء..."، وتأسّس هذا النادي على بركة الله وباشر عدّة أعمال من بينها إقامة مهرجان تذكاري لفقيد الأدب والصحافة المرحوم سعيد أبي بكر بقاعة مدرسة ليسي كارنو يوم الجمعة 12 مارس 1948. وكان عمدة النادي وروحه الوثابة هو مدير مجلة الندوة الأستاذ الأخ محمّد أحمد النيفر، وبفضل إشراف الفقيد سجّل النادي عدّة أعمال جليلة لم يعقه عن متابعتها إلا انفصال الفقيد عن الناصريّة.

جمعيّات

ساهم الفقيد في جمعيّات كثيرة زيادة عمّا سبق بيانه نذكر منها جمعيّة معهد قرطاج التي تصدر المجلة التونسيّة والجمعيّة الجغرافيّة بتونس والاتحاد المسرحي والتمثيل العربي وقدماء تلامذة معهد كارنو، وكان من هيئة المحكمين في القضايا الجنائيّة التي تعرض على المحكمة الإفرنسيّة بتونس (جوري)، وقد كان

عمله في الجمعيّات يأخذ أكثر أوقات عمله فلا تجد أعماله الفلاحيّة متسعا لها، وربّما كان حنوّه على المنظمات والجمعيّات أكثر من حنوّه على أبنائه وأفراد عائلته الذين أنجبهم ورغم ذلك خرّجهم أحسن تخريج وناهيك بابنه الحكيم عبد الحميد الذي هو في الآن نفسه متطوّع في العلوم بجامع الزيتونة الأعظم.

أوسمتــه

إنني لا أستطيع التحدّث عن أوسمة الفقيد فقد كان يحمل عبئا ثقيلا من الأوسمة والنياشين التي كان أحرز عليها من عدّة دول ومنظمات عالميّة وذلك جزاء إخلاصه وتفانيه في خدمة الصالح العام.

واحد كألف

الخلاصة أنّ المرحوم السيّد حمّودة بوسن قليل نظيره من الرجال العاملين في عصره من أبناء الحسب والنسب الذين يكتفون بالنعيم الزائل وبذخ العيش، بل إنّه قد جمع بين العمل لفائدة المجتمع ولفائدة نفسه وعائلته فكان نسيج وحده في هذا الشأن ولعله كان واضعا أمام عينيه الحديث الشريف:"اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا...".

ذكـــرى

وبهاته المناسبة أذكر أنّني ذهبت مع وفد صحفي في عام 1932 لحضور موكب رسمي فلمّا جاء دور الجمعيّات لم يفارق الفقيد قاعة الاقتبال بل مكث هناك ليقدّم الجمعيّات التي يرأسها أو يقدّمه رؤساء الجمعيّات الأخرى كأحد أفرادها الأمرالذي لفت نظر من لم يسبق له مشاهدة هذا من الصحفيّين الأجانب.

مرضــه ووفــاته

لم يطل بالفقيد المرض بل كان رحمه الله يغالب المرض ولا يريد الاستسلام إليه لكن حانت ساعة وفاته يوم الثلاثاء 21

شوّال 1373هـ الموافق يوم 22 من شهر جوان 1954م على الساعة الرابعة بعد الزوال ودفن بالزلاج في اليوم الموالي، رحمه الله رحمة واسعة.

---

* "الندوة" العددان السابع والثامن بتاريخ سبتمبر وأكتوبر 1954. عنه في جريدة "الشباب" السنة الأولى العدد الخامس بتاريخ 26 نوفمبر 1936. استندنا في ضبط سنة ولادة المترجم له إلى الكتاب الذهبي لأرواس.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



محمود بورقيبة*

(1910 ـ 1956)

يوم 22 ماي 1956 توفي شاعر الشباب المرحوم محمود بورقيبة وقد رأينا بهاته المناسبة أن نحيي ذكراه الأولى بنشر متفرّقات عن حياته لا يعلمها حتى الكثير من أصدقائه.

هو محمود بن العربي بن علالة بورقيبة وجدّه للأب كان شيخ "ذكارة" بزاوية سيدي أبي الحسن الشاذلي وجدّه للأمّ الشيخ الشاذلي صدّام الذي كان مدرّسا أوّلا للقراءات بجامع الزيتونة الأعظم، ولد بتونس في عام 1908[1] نظم الشعر في عام 1926، أوّل قصيد نظمه هو الذي مدح به شيخه الشيخ عبد السلام التونسي عندما أحرز على التدريس من الرتبة الأولى بجامع الزيتونة، تتلمذ على المرحوم أمير الشعراء الشاذلي خزندار في العروض والقوافي بالخلدونيّة.

زاول التعليم بجامع الزيتونة إلى أن وصل إلى السنة الثالثة من المرتبة المتوسّطة، تخرّج في ميدان الصحافة بجريدة الوزير لمديرها شيخ الصحافة بتونس الأستاذ الطيّب بن عيسى حيث باشر التحرير معه بالوزير من عام 1930 وكان مكلفا بصحيفة الأدب وصحيفة الفنّ ويمضي شعره ونثره بعدّة إمضاءات: "شاعر الشباب، فتى جبل المنار، أبو نظارة، فلان... إلخ"، كلّ ذلك زيادة عن إمضائه الصريح. كان محرّرا بجريدة الزهرة في عام 1938 وكان مكلفا بمصاحبة وفود الدعاية التي تتجوّل داخل القطر التونسي من طرف الديوان السياسي للحزب الحرّ

الدستوري التونسي وعلى رأسها وفد الكاتب العام للحزب الزعيم بورقيبة.

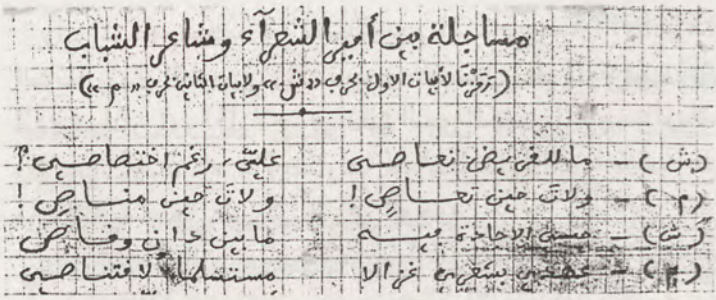
أشيع إثر وفاته أنّه انتحر تخلصا من الصدمة التي لاقاها إثر فصله عن محطة الإذاعة التونسيّة وهي إشاعة باطلة كانت ألصقت بزميليه المرحومين العريبي وكرباكة عند وفاة أوّلهما بباريس والثاني بسان جرمان.

كان متشبّثا بلقب شاعر الشباب ولا يرضى عنه بديلا لأنه يرى في شاعريّته حيويّة لم توهنها عوارض الدهر التي ألّمت به في عمره القصير، وأين ذلك من تشبّث أحمد رامي بهذا اللقب الذي لم يفارقه نحو النصف قرن.

---

* "الوطن" بتاريخ 23 ماي 1957.

1) والصواب أنّه ولد ليلة 21 رمضان سنة 1328هـ الموافق 26 سبتمبر 1910م وهو التاريخ الذي حرّره محمود بورقيبة بخط يده في ترجمته لنفسه التي استغلّ بعضها زين العابدين السنوسي في كتابه "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر" الطبعة الأولى، ج 2 ص 86، وقد عثرنا عليها في أرشيف المهيدي بالمكتبة الوطنيّة فنشرناها كاملة في المجلة الصادقيّة، العدد 39، شهر أكتوبر 2005، ص 26. عنه في جريدتي "الشباب" س1، ع 13، بتاريخ 22 جانفي 1937 و"الصباح" بتاريخ 25 ماي و13 جويلية 1956 و5 و12 جوان 1969 ومجلة "الإذاعة" عدد جويلية 1966.


مساجلة بين أمير الشعراء وشاعر الشباب

بخط شاعر الشباب محمود بورقيبة



محمد بن فضيلة*

(1911 ـ 1957)

كان لزاما عليّ أن أكتب وأنشر ترجمة صاحب الوطن المرحوم محمّد بن فضيلة إثر وفاته يوم 2 جانفي 1957 كما ترجمت من قبله لصحفيّي تحت السّور المرحوم الدوعاجي والعريبي وسعيد أبو بكر ولكنّ الذي منع ذلك عدم إمكانيّة النشر. أمّا الآن وجريدة الوطن تستأنف نشاطها تحت إدارة أحد مساعدي مؤسّسها وهو السيّد عبد المجيد بوديدح الذي تربطه به عدّة أواصر فقد زال المانع ووجب الوفاء بالعهد الذي قطعته لصاحبها في مجلس أنس يوم 22 أكتوبر 1950، مجلس حدّثني فيه صاحب الوطن عن شبابه ودراسته واندماجه في أسرة صاحبة الجلالة وقد سجّلت تلك المعلومات وها أنا أعود إليها اليوم فيما أكتبه رحمه الله.

مولده وشبابه

ولد المرحوم محمّد بن فضيلة يوم 21 ماي سنة 1911 بالدار الكائنة بنهج الطرودي زنقة سيدي الفضيل رقم 7 بتونس أعنى أنّه ولد إبّان ثورة الزلاج، في ذلك الجوّ المكفهرّ المملوء بالويلات والأحداث الجسام هلّ صارخا صاخبا على الدنيا ناقما على ما حوله ساخطا على كلّ من في الوجود.

وقع إرساله إلى المدرسة العرفانيّة للجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة وفيها زامل الأيتام والمحرومين من حنان الأبوّة فكان ذلك مصدرا

من مصادر مسلكه في الحياة. وفي أيّام العطلة المدرسيّة وجّهته الخيريّة إلى المطبعة التي كان يشرف عليها ويديرها المرحوم محمّد بن حسن بنهج الديوان رقم 5 وفيها تعلم تنضيد الحروف وبدأ يتخرّج في هاته الصناعة وكانت المطبعة الأهليّة تطبع بعض الصحف إثر عودتها مثل جريدة الصباح في عام 1920[1] وغيرها من الصحف التي نشأت بعد ذلك العهد.

مهنة الصحافة

في المطبعة الأهليّة تعرّف صاحب الوطن بصاحب جريدة الزهو فاختاره ليعمل معه في جريدته ومن هنا بدأ حياته الصحفيّة. وفي العدد التاسع من جريدة الوطن الصادر في 28 فيفري 1937 تحدّث عن علاقته بصاحب الزهو عندما وضع "عمّ الحاج عثمان في الميزان".

في جريدة الزهو كان يقوم بالعمل الإداري ويراجع مسودّات الجريدة عند طبعها وبدأ يتدرّب على الصناعة فحفظ الأمثال التونسيّة والشعر الملحون من الزهو وكان لذلك تأثيره الملموس في جريدة الوطن.

استمرّ عمله في الزهو مدّة طويلة ثمّ فارقه، وفي المطبعة الأهليّة أيضا نضد حروف جريدة النديم وفي هاته المطبعة تعرّف أيضا بالسيّد حمودة معالي الذي كان يعمل في المطبعة ويقوم بدور (المارجور)[2] وهو الذي نقله معه إلى جمعيّة التمثيل العربي وكان لاشتغاله بالتمثيل الأثر البعيد في الحيلولة بينه وبين الصحافة.

تأسيس الوطن

استمرّ المترجم له يعمل في التمثيل بعيدا عن احتراف الصحافة لأنّ النظام الاستعماري الذي كان يكبّل البلاد والعباد بقيود ثقيلة كان لا يسمح بتأسيس صحف جديدة في البلاد التونسيّة، ذلك النظام الذي استمرّ منذ عاصفة سنة 1926 التي اجتاحت كل الصحف التونسيّة إلا بعض الصحف التي أنشئت

للإشهار كالزمان ومجلة العالم أو التي أسّستها منظمات حزبيّة كجريدة الإرادة، ودامت تلك الحال عشرة أعوام قضّاها الشعب لا يقدر على التعبير عن رأيه ولا عن قصده فلمّا جاءت حكومة الواجهة الشعبيّة وصدر أمر حريّة الصحافة المؤرّخ في 6 أوت 1936 فكر صاحب الترجمة مع ثلة من زملائه أدباء تحت السّور في إنشاء جريدة وخرج هذا التفكير إلى حيّز الوجود بولادة جريدة الوطن في 27 ديسمبر 1936 وسنتحدّث فيما بعد عن تاريخ هاته الجريدة وما مرّ بها من أطوار.

واقعة 9 أفريل

عندما حلت هاته الكارثة بالبلاد التونسيّة كان من ضحاياها أكثر الصحفيّين نشاطا وأبرعهم في تأدية رسالته الصحفيّة وكان في الطليعة المرحوم محمّد بن فضيلة حيث ألقي به في غياهب السجن رغم ما كان عليه من الضعف وما انتابه من العلل. مكث في السجن من 9 أفريل إلى شهر نوفمبر 1938 حيث أطلق سراحه مع بقيّة الوطنيّين الصحفيّين أمثال المرحومين محمّد العريبي والطاهر زرّوق اللذين كانا يشرفان على جريدة صبرة.

عود على بدء

عندما عادت الوطن إلى الصدور سلك صاحبها نفس السلوك الذي كان يتبعه من قبل بل لم يزده السجن إلا قوّة إيمان بأنّ عمله لفائدة هذا الشعب يجب أن يستمرّ مهما كانت الظروف، وقد رأت الحكومة الاستعماريّة أن تمتحنه امتحانا ثانيا بعد امتحان السجن فعطلت له جريدته لمدّة ثلاثة أشهر كانت نهايتها يوم 7 جويلية 1939 وبعد انتهاء أمد تعطيلها عادت إلى الميدان من جديد ولم يزده هذا الامتحان إلا مضاء في العزيمة وصلابة في خدمة الوطن واستمرّ يعمل إلى أن جاءت حوادث الحرب فاحتجبت الوطن وعاد صاحبها يعمل في ميدانه الثاني.

الميدان التالي

هذا الميدان الذي أشرنا إليه سابقا هو ميدان التمثيل فقد كان لابن فضيلة فيه صولات وجولات إذ أنّه عمل في مختلف نواحيه فاشتغل بالتلقين والتمثيل الفكاهي وحتى بالتأليف المسرحي ويندر أن توجد جمعيّة تمثيليّة في البلاد التونسيّة لم يساهم فيها وعلى الأخصّ الجمعيّات الكبرى مثل التمثيل العربي والمستقبل التمثيلي والاتحاد المسرحي واتحاد كواكب التمثيل وغيرها، كما عمل في عدّة فرق منها فرقة وسيلة صبري والفرقة الموسيقيّة التمثيليّة وفرقة الخضراء وفرقة فتحيّة خيري.

أمّا في ميدان التأليف المسرحي فإنّ أوّل رواية ألفها بمساعدة السيّد عبد السلام الأرناووط المحرّر في جريدة الوطن ومجلة الحياة هي رواية (الخائن) التي مثلتها فرقة فتحيّة خيري على مسرح لاجوتي. ثم ألفا رواية ثانية سمّياها (اللذة القاتلة) ومثلتها فرقة وسيلة صبري بطولة السيّد علالة الصفايحي، وأعيد تمثيل هاته الرواية باسم (سلطان المعاصي) على مسرح البلديّة من طرف جمعيّة اتحاد كواكب التمثيل في موسم 1948 - 1949.

رحلة فنيّة

واغتنم فرصة تعطيل الصحافة وكساد الحركة التمثيليّة والفنيّة بالبلاد التونسيّة فاشترك مع السيّد الباجي السرداحي مدير الفرقة الموسيقيّة التمثيليّة في رحلة فنيّة إلى القطرين الشقيقين الجزائر والمغرب دامت ثلاثة أشهر انتهت في منتصف شهر جانفي 1947 لقي فيها كلّ تكريم وحفاوة من أبناء المغرب العربي الكبير.

مع الاتحاد

عندما تأسّس الاتحاد التونسي للصناعة والتجارة، انتخبه كاتبه العام ليكون قائما بأعمال الكتابة في الاتحاد لما عهد فيه من نشاط وحزم، وكان هو الذي يقوم بالدعاية الصحفيّة لفائدة الاتحاد ويعمل معه بإخلاص، وقدّر له ذلك الكاتب العام

للاتحاد حقّ قدره فأعانه على إصدار جريدته الوطن من جديد وربط الصلة بينه وبين السيّد باش طبجي ليساعده ماديّا على إبراز الوطن إلى الحياة.

الوطن يعــود

هذا هو العنوان الذي اختاره مؤسّس جريدة الوطن عندما استأنف نشاطه الصحفي في 9 سبتمبر 1948 دخل المعركة واستأنف الكفاح ومعه البعض من رفاقه الأوّلين وانضمّ إلى الأسرة آخرون عوّضوا من هاجر من هذا القطر أو وقفت حواجز بينهم وبين جريدتهم التي ساهموا فيها في عهد شبابها الأوّل.

عادت الوطن في ظرف عصيب، كانت الرقابة الصحفيّة فيه شديدة الوطأة والأحكام العرفيّة تطبّقها كل يوم المحاكم العسكريّة والزجريّة بالبلاد التونسيّة، وأبناء تونس المخلصون يكافحون سرّا وعلانيّة في الداخل والخارج لا تحول بينهم وبين جهادهم قسوة الأحكام ولا رهيب الوعيد أو فسيح الوعد يعملون بإخلاص في شتى الميادين، يكافحون المستعمر وأذناب المستعمر.

كانت القافلة الوطنيّة تسير في طريق الاستقلال وقد انتشرت الدعوة إلى القضيّة الوطنيّة بواسطة الابتكار الذي نفذه رجال الحركة القوميّة وهو تأسيس مكاتب المغرب العربي في القاهرة ودمشق وبغداد ولندرة وكاراتشي وأندونيسيا ثم نيويورك وكان الأستاذ الحبيب بورقيبة يشرف على أعمال تلك المكاتب ويزوّدها بنصائحه ويسطر لها البرامج بعد أن فارق هذا القطر واجتاز حدوده بمهارة فائقة.

في هذا العهد اتجهت جريدة الوطن اتجاها جديدا وهو تحطيم الأصنام التونسيّة التي اتخذها الاستعمار وسيلة لتنفيذ برامجه الجهنميّة، فكانت تحطمها الواحدة تلو الآخر حتى لا يغترّ الشعب بترهات صنائع الاستعمار أو يقع في أحبولتها، وهذا النوع من

العمل الصحفي له خطره لأنّه كان محفوفا بالمهالك من جهة تلك الأصنام، فقد تحرّك البعض منها ورفع قضايا عدليّة (ثلب وشتم) ولكن باء أصحاب تلك القضايا بالخسران.

مذكرات الحبيب بورقيبة

عند عودة الحبيب بورقيبة من رحلته الكبرى في الشرق والغرب وأمريكا، وقيامه بجولة داخل القطر يتفقد فيها مراكز الشعب ويزوّدها بنصحه وإرشاده ويبثّ فيها روح المثابرة على العمل ويكشف القناع عمّا حاول الاستعمار بثه من سموم وما قام به من خزعبلات، رأت جريدة الوطن أن تؤدّي رسالة صحفيّة وأن تكتب صحيفة خالدة من كتاب كفاح الزعيم فكلفت أحد محرّريها وهو السيّد عبد المجيد بوديدح بالقيام بهاته المهمّة، وكان إذ ذاك في رحلة مع الزعيم وفي صفاقس أطلعه على رغبته فوجد منه كلّ مساعدة على عمله.

وهكذا صدر العدد 59 المؤرّخ في 17 نوفمبر 1949 من جريدة الوطن حاملا الصفحة الأولى من صفحات مذكرات المجاهد الأكبر الأستاذ الحبيب بورقيبة.

كانت هذه المذكرات هي الأولى من نوعها في تاريخ الصحافة العربيّة التونسيّة، لا في موضوعها فقط بل في أسلوبها وفي كيفيّة عرضها في ظروف كانت الرقابة فيها شديدة على الصحافة والصحافيّين.

استمرّ نشر المذكرات في الوطن فارتفع عدد ما يطبع منها في كلّ أسبوع إلى ضعفيه وذلك لتهافت الطلبات من كل بلد من بلاد المغرب العربي الكبير. استمرّت الوطن في نشر المذكرات إلى العدد 67 الصادر في 19 جانفي ثمّ توقفت لأنّ الحبيب بورقيبة دخل في نوع آخر من أنواع الكفاح وهو التفاوض مع بعض المستقلين ليتولوا التفاهم مع فرنسا في تغيير سياستها مع الشعب التونسي الذي لم يرض بالوزارة الكعاكيّة وقاومها مقاومة

عنيفة وانتهى ذلك التفاوض بتأليف الوزارة الشعبيّة التفاوضيّة الأولى في شهر أوت سنة 1950 التي ترأسها السيّد محمّد شنيق.

انضمام وانسلاخ

في هاته السنة أعني سنة 1950 انسلخ أحد محرّريه وأنشأ جريدة أسبوعيّة باسمه، كما انسلخ عنه محرّر آخر أصبح يدير مؤسّسة قوميّة جبّارة لعبت دورا كبيرا في الكفاح التحريري بالبلاد التونسيّة، وانضمّ إليه آخرون من محرّرين ومخبرين ومن كلفوا بالإشهار، وكان العبء الثقيل في هذا الدّور محمولا على عاتق السيّد عبد المجيد بوديدح. وبالرّغم من أنّ صاحب الوطن كانت تنتابه مختلف العلل والأمراض، وما عليه مزاجه من الانحراف فإن روحه كانت تتجلى في مختلف مواضيع جريدته.

وكان يلاقي عدّة كوارث بصدر رحب، فمن ذلك أنّ بعض من يعتمدهم للتحصيل على اشتراكات في الجريدة أو إجراء الحساب مع المتعهّدين كان هذا البعض يصدق معه حينا ولكنّه يخونه أحيانا، فتجول يده فيما جمعه من مال باسم الوطن ويبقى صاحب الجريدة مورّطا مع حرفائه المشتركين والباعة، وذلك مرض مزمن في الصحافة العربيّة التونسيّة يجب التشهير بأصحابه علهم يتوبون لتتطهّر الصحافة من رجسهم.

التجربة الأولى

عندما عزم صاحب الوطن على تأسيس جريدة باسمه بعد أن تمرّن في جريدة الزهو فاوض أصدقاءه أدباء تحت السّور في الأمر، فكان الرأي الذي اتفق عليه أولئك الشبّان هو الاستقلال في العمل الصحفي والقيام بتجربة كانوا يعتقدون أنّها سهلة شأن كلّ الشبّان في مغامراتهم، وهؤلاء الذين اصطفاهم صاحب الوطن في تجربته الأولى أصبحوا فيما بعد من كبار الصحفيّين كما سيمرّ بنا.

مجلة أسبوعيّة

أوّل مجلة أسبوعيّة للأدب والفنّ باللغة العربيّة في البلاد التونسيّة هي مجلة العالم الأدبي التي أصدرها الأستاذ زين العابدين السنوسي والمجلة الثانية الأسبوعيّة التي عالجت بعض المواضيع الفنيّة والنقديّة ونشرت بعض الموضوعات الأدبيّة فهي مجلة الحياة التي أصدرها صاحب الوطن ومن التفّ حوله يوم 2 أكتوبر 1936.

مجلة الحياة مجلة متواضعة في إخراجها المادّي حيث كان ورقها من النوع الرّديء وكذلك طبعها شأن الصحافة العربيّة في ذلك العهد لأنّها كانت لا تعتمد على رأسمال مادي، وكلّ ما كان يقع التفكير فيه عند إنشاء مجلة أو جريدة عربيّة هو برنامجها الأدبي الذي هو عمل بالمجان ثم انتظار ما يقدّمه متعهّد الجريدة أو المجلة من متحصّل البيع بعد مضي شهر أو أكثر، وكان أغلب هؤلاء المتعهّدين لا يهتمّ بترويج الصحافة الأسبوعيّة أو يبذل مجهودات لنشرها وتوزيعها فإذا مرّ يوم أو يومان على صدروها نقلها من مكان العرض ووضعها في رفّ الفواضل. مجلة الحياة الضعيفة في مادتها اللغويّة وفي برنامجها كانت تجربة شباب متطلع إلى الحياة يؤمن بغده ويكفر بأمسه كما قال المرحوم أبو القاسم الشابّي.

بمقهى خالي علي

يجلس صاحب الحياة في مفتتح الأسبوع في قهوة "خالي علي" تحت السّور (القاهرة الآن) لأنّ إدارات الصحف العربيّة كانت معدومة ومحلّ مخابرتها هو محلات سكنى أصحابها أو صناديق البريد، وفي قهوة خالي علي يقع تبادل الآراء والأفكار حول أبناء وبنات الفنّ ويقدّم المحرّرون كلّ فيما هو مختصّ به ما أعدّوه من مقالات للنشر.

ورغم إسناد رئاسة التحرير إلى السيّد عبد السلام الأرناووط فإنّ صاحب الحياة ورئيس تحريرها لا يدخلان على مقالات زملائهم تحويرا أو تبديلا اللهم إلا ما له علاقة بالنكتة الضاحكة أو النبزة القاتلة، والسيّد عبد السلام الأرناووط لا يكتفي في الحياة بتحرير مقال يمضيه باسمه الصريح بل إنه يمضي بعض الفصول بإمضاءات مستعارة كفيلسوف الحياة وفداوي الحياة أما السيّد الهادي العبيدي الذي يكتب تحت عنوان في الطريق فإنّه يمضيه ماشي جاي.

ولأوّل مرّة قرأت للسيّد توفيق بوغدير الذي كان يسمّى في ذلك العهد بأحمد توفيق بوغدير شعرا ملحونا في العدد الثالث من مجلة الحياة الصادر في 23 أكتوبر 1936، وفي نفس العدد شعر فصيح لبدرغاوي تحت عنوان يمجّد فيه الشاعر الحركة الوطنيّة وزعماء الدستور الجديد في ذلك العهد.

وفي باب راديو الحياة يتحدث محرّر هذا الباب عن السياسة الخارجيّة ولكنّه يضربها أمثالا على ألسنة شعراء الملحون والفصيح وهو عمل يقتضي اطلاعا واسعا وعملا متواصلا.

هذا وإنّ الأبواب التي فتحها صاحب الحياة هي التي فتحها في جريدة الوطن مثل في المشنقة، ما قلّ ودلّ، حديث أهل الفن، المستحيلات الخ...

كيف انقلبت الحياة إلى جريدة

في الوقت الذي كانت تصدر فيه مجلة الحياة كانت هناك صحف أخرى تصدر في تونس هازلة مازحة، أولاها جريدة السرور التي أنشأها المرحوم علي الدوعاجي مع أدباء تحت السّور ومن بينهم محمود بيرم التونسي ثم انفصل هذا الأخير عن السرور وأسّس جريدته الشباب وصدر عددها الأوّل في نفس الشهر الذي صدرت فيه مجلة الحياة، وقد حدث أنّ صاحب الشباب أخذ يتبرّم من أدباء تحت السّور وتناول بعضهم بالنقد

والسخرية فغلى الدم في رؤوس هؤلاء وأرادوا أن يبرهنوا لصاحب الشباب بأنّ في بني عمّك رماح كما قال الشاعر العربي، وكان السيّد الهادي العبيدي في مقدّمة من عمل مع صاحب الحياة على إنشاء جريدة تضارع الشباب حيث فسح لأدباء تحت السّور المجال في جريدة السرور حتى يعلم بيرم وغيره أن أولئك الأقزام يستطيعون أن يكونوا عمالقة في عالم التحرير والتحبير رغم أنّهم لم ينتسبوا إلى مدارس ثانويّة ولم يتلقوا دروسا في صناعة الصحافة وكان سلاحهم الوحيد هو الصبر والثبات وحبّ المهنة الصحفيّة والفناء في سبيل الفنّ وأهله.

وهكذا انقلبت الحياة إلى الوطن الذي صدر عدده الأوّل في 27 ديسمبر 1936 بعد أن ختمت مجلة الحياة أنفاسها بعددها الصادر في 29 نوفمبر 1936.

صحف بالجملة

وممّا تجب الإشارة إليه هنا هو أنّ أدباء تحت السّور هؤلاء كانوا يحرّرون عدّة صحف في آن واحد لأنّ الحكومة الاستعماريّة كانت لا تسمح لذوي المواهب بالامتيازات لإصدار الصحف العربيّة، فكان أصحاب الامتيازات لا يجدون بدّا من الالتجاء إلى هؤلاء المحرّرين بالمجان اللهم إلا تذكرة حضور في حفلة تمثيليّة أو مهرجان أدبي أو فنّي، فجرائد صبرة والسردوك والمذياع والبوق والزمان وغيرها كانت تجول فيها أقلام هؤلاء البوهيميّين الذين وضعوا الحجر الأساسي في بناء الصحافة القوميّة التونسيّة وذاقوا مرارة السجن و(الكرّاكة) و(السيلون)، وفي جريدة الوطن تفاصيل عن أنواع هذا التنكيل الاستعماري الذي مني به هؤلاء الكتاب والأدباء.

مصوّر الوطن

كانت جريدة الوطن تعتمد على نخبة من المحرّرين الأكفاء ولكنّها إلى جانب ذلك كانت تعتمد أيضا على مصوّر بارع كان

الأوّل من نوعه في التصوير الكاريكاتوري في تاريخ الصحافة العربيّة التونسيّة وهو الأستاذ عمر الغرايري.

نعم مرّت على الصحافة العربيّة التونسيّة الهزليّة عشرات السنين وهي تحاول الاعتماد على مصوّر من هذا النوع ولكنّها لم تصل إلى مرغوبها.

فالأستاذ المرحوم الفورتي في جريدته ولد البلاد كان يعتمد على مصوّر فرنسي، والممثل كانت تعتمد على مصوّر من الأكفّاء هو ابن عصمان الذي فارق هذا الوطن إثر محاكمته في عهد الاستعمار البغيض، وحاول السيّد الشريف بن يخلف أن يكون مصوّرا من هذا النوع ولكنّه لم يوفق، وجرّب المرحوم الدوعاجي في جريدته السرور التصوير بقلمه ولكنه لم ينجح إلا في صور بعض الشخصيّات، وتقدّم السّيد المنجي الشريف إلى الميدان ثم تأخّر[3]، وجرّب الأستاذ حاتم المكي[4] العمل مع الصحافة العربيّة التونسيّة فوجد جوّها غير مساعد ففرّ إلى الصحافة الباريسيّة يقدّم لها عصارة فكره.

قلت إنّ الوطن اعتمدت على التصوير الكاريكاتوري الذي كان حدثا جديدا في تاريخ الصحافة العربيّة العصريّة بتونس وكان الأستاذ عمر الغرايري[5] هو الذي يملأ هذا الفراغ في الوطن والشباب وصبرة والسردوك وغيرها من الصحف.

وتحتل صورة الوطن عدّة أمكنة من الجريدة وتتوزّع على صفحاتها، فوجه الجريدة أي صحيفتها الأولى تحتلها صورة سياسيّة جامعة وأكثر ما يكون موضوعها السياسة الداخليّة وقد تتناول السياسة العالميّة شرقيّة أو غربيّة على نسبة اتصالها بالسياسة التونسيّة. وفي كلّ أسبوع تنشر الوطن صورة رمزيّة لحادث محلي تحت عنوان نكتة الأسبوع.

أمّا حديث المسرح والتخت فيتناول فيه مصوّر الوطن بريشته البارعة الممثلين والمطربين والفنيّين لا فرق في ذلك بين الجنسين اللطيف والخشن إن صحّ هذا التعبير فإذا انتقلنا إلى باب

ساحة الأبطال والصعاليك رأينا العجب العجاب من ريشة الأستاذ عمر الغرائري التي تصوّر الشخصيّة المرسومة بالساحة تصويرا قد يدخل الكآبة والحزن على من تناولتهم بالرسم والعرض ولكنّه يدخل الفرح والسرور على قرّاء الجريدة لأنّهم وجدوا ضالتهم المنشودة فيما يعرض أمام أنظارهم، فالأستاذ عمر الغرائري مصوّر قلّ أن يجود الدهر بمثله، خدم هذا الوطن خدمة جليلة بما نشره من صور في الصحافة التونسيّة تلك الصور التي تتناول الأحداث السياسيّة الكبرى في التاريخ السياسي والكفاح القومي التونسي.

رجل متواضع

والأستاذ عمر الغرايري الذي له هذا الماضي الناصع في التاريخ السياسي والكفاح القومي رجل متواضع إلى أبعد حدود التواضع قليل التردّد على المجتمعات العامّة منزو في أكثر الأحيان في محلّ عمله يجلس إلى جانبك فلا تشعر بوجوده فإذا تحدّث كان حديثه همسا وإذا أراد أن يبدي ملاحظة في حديث يدور بينكما لا تشعر منه بالمعارضة وجها لوجه.

حاول أن ينفرد بالعمل الصحفي وينشئ مجلة مصوّرة على شكل مجلة سندباد ولكنّه حتى الآن متردّد لأنّه مرتبط بعمل آخر ككلّ أصحاب المواهب الذين يشتغلون بأعمال لا تتماشى مع ما يرغبون. قدّم مجموعة من الصور إلى وزارة البريد فاختيرت من طرف خبراء فنيين عالميّين في الشهر المنصرم وطبعت في لندره وهي طوابع الاستقلال.

أنا أعتقد أنّ جريدة الوطن لو قدّر لها أن تصدر غير مصوّرة لكان رواجها ضعيفا بل كان مصيرها مصير عشرات من الصحف الأخرى التي لم تكن تعيش أكثر من شهر أو شهرين. وإذا كان محرّرو الوطن، وهم من عرفت، فإنّ مصوّر الوطن الدائم من نوع أولئك المحرّرين هوايته التصوير ولم يصبح بعد محترفا

حتى الآن رغم مضيّ عشرين عاما على مباشرته هاته المهنة أعني بذلك أنّ الأستاذ عمر الغرائري لا يقدّم نتائج قريحته ويلحّ في طلب المقابل بل يترك ذلك إلى همّة أصحاب الجرائد التي تنشر صوره. وهو يمتاز عن هؤلاء بمقام مرموق إذ أنّهم لم يقدّروا له مواهبه وعلوّ همّته وكرامة نفسه ومحبّته وإخلاصه للوطن.

لقد جاء حين من الدهر انقطع فيه هذا المصوّر عن العمل في الوطن وحاول صاحب الوطن وأسرته تعويضه بغيره فنشرت الجريدة في بعض أعدادها صورا لغيره ولكنها لم تكن موضوعيّا وشكليّا من نوع صور الأستاذ عمر الغرايري.

مراجعة وبيان

قبل أن نسترسل في نشر بقيّة الحديث عن جريدة الوطن ومؤسّسها رأيت لزاما عليّ أن أنشر هنا بعض البيانات.

عند صدور جريدة الوطن في عهدها الأوّل كانت أسرتها تتألف من المؤسّس والأرناووط وبوغدير وكان هذا الأخير هو مصوّر الوطن في فجر شبابه وأحدثت صوره ضجّة في مختلف الأوساط الاستعماريّة، ومن أجل صورة كاريكاتوريّة نشرها بوغدير في العدد 20 من جريدة الوطن الصادر في 16 ماي 1937 أحيل على المحاكمة الإفرنسيّة بتونس.

أمّا جريدة الشباب فقد اشترك في تأسيسها مع بيرم المصوّر عمر الغرايري وكان هو صاحب الأفكار وقد يستعين أحيانا بصاحب الشباب الذي يوحي إليه بمواضيع الصور، وبعد تعطيل الشباب نشر بيرم مع العبيدي والمصوّر عمر الغرايري جريدة السردوك فصدر منها عددان فقط، نفي بعدهما بيرم من القطر التونسي وصدرالعدد الثالث من السردوك يوم 28 أفريل 1937 وبه فصل تحت عنوان من ضحايا القلم كتبه صديقه العبيدي وبه صورة بيرم.

وممّا يجب أن يذكر أنّ الفصل الذي كان ينشر تحت عنوان السياسة بالأغاني في جرائد السرور والوطن والسردوك كان يحرّره الأستاذ العبيدي ويختار الشواهد الشعريّة للحوادث السياسيّة الجارية كما يفعل النحاة عند الاستشهاد بالشعر العربي على صحّة القواعد العربيّة.

بدأ الأستاذ عمر الغرايري الرسم الكاريكاتوري بالسرور وبه اشتهر أوّلا ثم مارسه في الشباب والسردوك والوطن وصبرة ولم يلحقه فيه لاحق تونسيّ حتى اليوم رغم كثرة المصوّرين والرسّامين، وإن قلّت في هاته المدّة ابتكاراته نظرا لكون عصرنا هذا عصرا انتقاليّا لم تستقرّ فيه الحالة العامّة بصفة واضحة فقد كان على مصوّرنا النابغة أن يجد في أخبار الصحف مادّة دسمة عن حوادث الجزائر لينشر منها في كلّ أسبوع صفحة دامية تمثل صراع الحقّ للباطل واعتداء القوّة الغاشمة على الشعب الأعزل من كلّ قوة ماديّة، اللهم إلا قوّة الحقّ وعسى أن تكون هاته الكلمة محرّكة لعقله الباطن حتى يفعل ما هو مطلوب منه.

---

* "الوطن" بتاريخ 28 مارس و4 و11 و18 و25 أفريل و9 و30 ماي 1957.

1) جريدة يهودية يوميّة سياسيّة تدافع عن مصالح اليهود في تونس صدرت فيما بين 1 نوفمبر 1904 و14 ماي 1940.

2) أي العامل الذي يضع الورقة لطباعتها بعد الضغط عليها في الآلة المخصّصة لذلك.

3) عنه انظر مقال "من رواد الكاريكاتور والصحافة الفنان المنجي الشريف" بقلم الأستاذ حسناوي الزارعي منشور في المجلة الصادقيّة، سلسلة جديدة، العدد الرابع في ديسمبر 1996.

4) أحد أبرز الرسامين ورائد الكاريكاتير في تونس ولد في أندونيسيا سنة 1918 وتوفي في تونس في 23 سبتمبر 2003، في شهر أفريل من سنة 2000 نشرت له دار البستان للنشر حديثا مطوّلا تحت عنوان"من جاوة إلى قرطاج"، عنه انظر النص الذي كتبه توفيق بكار "روعة الفن ولوعة

الفاجعة" المنشور في كتاب"حاتم المكي" نشر دار أليف، تونس 1989 و"يحيى التركي رائد الرسم التونسي" لعلي اللواتي منشور في مجلة عالم الفكر المجلد 26 العدد الثاني، أكتوبر وديسمبر 1997.

5) فنان لم يجد حظه فظلم حيا وظلم كذلك ميتا إذ أهيلت عليه سجف النسيان ولا يُذكر إلا لِماما رغم أنه أحد أهمّ رسامي الكاريكاتير وأكثرهم حضورا في مختلف الجرائد والمجلات خصوصا قبل الاستقلال في الشباب والسردوك وغيرهما، في الذكرى السابعة والعشرين لوفاته نشر حسين المزوغي تعريفا بالرجل في الملحق الثقافي لجريدة الحرية بتاريخ 14 أكتوبر 2010 استنادا إلى ترجمة خطية أعدتها ابنته، بعد وفاته في 3 أوت 1983 نشر حاتم المكي مقالا في جريدة لابراس يقول عنه في حديثه المشار إليه أعلاه ص 57 بأنه "كان رحمه الله عظيما، سيد المصوّرين وعنده ما يقول".

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



بنعيسي بن الشيخ أحمد*

(1880 ـ 1957)

يوم ثاني محرّم والموفى ثلاثين من جويلية عامي التاريخ 1377هـ/1957م توفي المرحوم بنعيسى بن الشيخ أحمد صاحب جرائد جحا وجحجوح والمضحك وشهاب جحجوح ومجلة الثريّا وناشر مجموعة منتخبات جحجوح.

آجـال متقاربـة

مات صاحب جحجوج في الوقت الذي انتهى فيه عهد الملكيّة التونسيّة البغيضة وقيام النظام الجمهوري العتيد، وقد كان الفقيد من المتمسّكين بأذيال الملكيّة والمتمرّغين على أعتابها وقام بأعمال في القصر ومثل أدوارا في الدائرة "الشاذليّة"[1]، وقد رأيت خدمة لتاريخ الصحافة أن أنشر ترجمة مختصرة للفقيد وصحفه التي أصدرها طيلة نصف قرن تقريبا.

مولـده و نشـأته

ولد الفقيد بطبربة وفيها نشأ وتعلم تعليما ابتدائيا والظاهر أنّه من مواليد الحماية.

اشتغالـه بالصحافـة

كانت الصحافة التونسيّة العربيّة لا ترخّص في إصدارها إدارة الحماية ـ الكتابة العامة ـ إلا إذا أمّن صاحب الامتياز مبلغا ماليّا كضمان لِما عسى أن يصدر عليه من أحكام عدليّة،

وكان مبلغ الضمان المالي من أكبر عوامل منع التونسيّين من إصدار الصحف العربيّة واستمرّ هذا النظام قرابة العشرين عاما، فلمّا رفع هذا القيد إثر كفاح جبّار ـ كان ضحيّته عدد كبير من الصحفيّين التونسيّين الأحرار ـ ظهرت عدّة صحف عربيّة ولكنّها بلغة تونسيّة شعبيّة تلائم درجة معارف أبناء الشعب تلقنهم ما هم في حاجة إليه من نصح وإرشاد وتبث شكوى الشعب إلى الحكومة والرأي العام وتنشر من الشعر الملحون وأنواع الزجل ما هو من صميم روح الشعب وما أيقظ فيه روح العمل والنهوض الاجتماعي.

سيل من الصحـــف

بين سنوات 1907 و1910 ظهرت عدّة صحف من ذلك النوع أبرزها ولد البلاد للفورتي وبوقشة للهاشمي المكّي وأبو نواس للجادوي وجحا لبنعيسى بن الشيخ أحمد، وهاته الصحف كان لها الأثر البعيد في إيقاظ الشعب التونسي وتنبيهه لِما له من العزّة والكرامة لأنّها تخاطبه بلسانه، وكان ممّا ينشر فيها لشعراء الملحون (أمثال قاسم شقرون وأحمد ملاك وشراد والكافي والشيخ عثمان بن المكّي) الأثر البالغ في الأوساط الشعبيّة، وهاته الصحف هي التي هيّأت لاندلاع ثورة عام 1911.

تـعطيل الصحـف بالجملة

عندما حدثت مأساة الزلاج سنة 1911 صدر قرار مؤرّخ في 7 نوفمبر من ذلك العام يقضي بتعطيل جميع الصحف العربيّة التونسيّة إلا جريدة الزهرة التي كانت شبيهة بالرسميّة ولم تسمح حكومة الحماية في ذلك العهد إلا لجريدة واحدة بالظهور وهي جريدة المنـار. دام تعطيل الصحافة العربيّة كامل زمن الحرب العالميّة الأولى واستمرّ بعدها إلى عام 1920 حيث عادت بعض الصحف القديمة إلى الوجود وصدرت صحف أخرى جديدة.

استأنفت جريدة جحا حياتها بعد الحرب عام 1920 مجارية تيّار الصحف القوميّة سالكة مسلك الحركة الوطنيّة التي قامت تطالب بالدستور التونسي وعدّت من بين الصحف الدستوريّة في نظر الصحافة الاستعماريّة وأخذت تعمل في هذا الميدان ما تعمله زميلاتها الوطنيّة فتشيد بكل عمل قومي لفائدة الأمّة التونسيّة وتقف موقف العداء ضدّ كل حركة يؤيّدها الاستعمار.

تعطيـــل الجريـــدة

في أواخر عام 1920 قام جماعة من قدماء المحاربين بوحي من دار الإقامة العامّة بتونس بحركة انفصاليّة ضد الحزب الحرّ الدستوري التونسي وتزعّم هاته الحركة السيّد محسن زكريا أحد ضبّاط القصر الملكي ومن المتطوّعين في الحرب العالميّة للدفاع عن فرنسا، قام هذا الفريق بتأليف جمعيّة تضمّ كلّ من حدثته نفسه بنيل خطة أو وظيف (وفعلا سمّي زعيمها فيما بعد قايدا جزاء إخلاصه لحكومة الحماية) وتوجّهوا إلى السفارة الفرنسيّة بتونس لإعلامها بأنّهم تحت تصرّفها في الحاضر كما فعلوا ذلك إبّان الحرب ويعلنون بذلك استعدادهم لمقاومة الحركة الوطنيّة، هاته الحركة الانفصاليّة هزّت مشاعر الأمّة التونسيّة وعلى الأخصّ أصحاب الجرائد وفي الطليعة من كان ينطق من أصحابها بلسان الحزب الحرّ الدستوري التونسي، فنشرت جريدة جحا في عدد 139 الصادر في 20 جانفي 1921 ملزومة للشاعر القومي المرحوم عبد الرحمان الكافي[2] ضد الحركة الانفصاليّة وزعيمها محسن زكريا أدّت إلى تعطيل الجريدة ومحاكمة صاحبها.

حزب المعارضة الجديد

رأت حكومة الحماية أنّ جمعيّة قدماء المحاربين المسلمين لم تكن معولا كافيا لهدم صرح الدستور فكوّنت حزبا جديدا للمعارضة يدعو الأمّة التونسيّة إلى قبول ما تعرضه الحكومة

الفرنسيّة من الإصلاحات الإداريّة والاقتصاديّة والعدول عن مطالب الدستور التسعة، وتأسّست لهذا الغرض جريدة البرهان وكان الأستاذ حسن قلاتي المحامي بتونس هو زعيم هذا الحزب الذي قبل إصلاحات 13 جويلية 1922، وكان واسطة عقد التعاون والتعارف بين أعضاء هذا الحزب وأنصاره والإقامة العامّة الفرنسيّة بتونس هو المترجم الأوّل بها م.سيموني[3] الذي لعب دورا هامّا في هاته الحقبة من التاريخ السياسي التونسي.

فقد كان هذا الأخير يعمل مع مساعديه لاستمالة بعض الصحفيّين إلى الحزب الإصلاحي والنطق بلسانه وكان صاحب ججوح من جملة من استمالهم سيموني لخدمة ركاب السفارة الفرنسيّة وكانت له صولات وجولات مع الم.سان ومع المدام سان وكانت له شطحات وردحات نظما ونثرا في جريدته مما يأتي بيانه.

كانت الصحافة الهزليّة التونسيّة (تلغز) أو (تكنّي) فيما لا تستطيع التصريح به من الحقائق اتقاء شرّ قانون المطبوعات الذي كان لا يرحم الكاتبين وأصحاب الأقلام فيما يريدون التعبير عنه من آمال أو آلام.

سلك صاحب ججوح هذا المسلك في عهده الأوّل ولكنّه استعمل فيما بعد التشنشين وذلك للنّيل من بعض من يرجو منهم مأربا وهي طريقة المساومة التي اشتهرت بها صحف كثيرة عربيّة وإفرنجيّة بالبلاد التونسيّة وكان الذين يغذون تشنشين ججوح نفر من أصحاب الغايات الخاصّة تتناولهم الجريدة بالتلميح أوّلا ثم بالتصريح ثانيا إذا لم يقوموا بما يلزم نحو مؤلف التشنشينة أو ناشرها. وبذلك سَنّت ججوح سُنّة سيّئة في الصحافة التونسيّة أكسبتها العار والبوار في نظر العقلاء والمفكرين وذوي المواهب السامية والعقول الراجحة.

وازدادت هاته النظرة لصاحب الجريدة نموّا وانتشارا في تلك الأوساط عندما توقفت الجريدة عن الصدور ونشر صاحبها مختارات منها تحت عنوان "منتخبات ججوح" حيث حشر فيها

جملة من الملزومات والقسماوات وغيرها ممّا له اتصال بمدح الإقامة العامّة ومن هبّ فيها ودبّ ممن أشرنا إليهم.

بعد الحرب الأخيرة

استأنفت جحجوح البروز إثر انتهاء الحرب الأخيرة عندما برزت كلّ الصحف التي كانت معطلة تعطيلا اختياريّا أواضطراريّا. في هذا العهد برزت صحف جديدة من بينها ما له اتصال بالقصر فكان لسان حاله والمسبّح بحمده وكان لهذا الاتصال عوامله الماديّة من وشاطة وخدمة ركاب ونفع وانتفاع ولو أعلن في ذلك العهد عن حزب ملكي لكان صاحب جحجوح في مقدّمة الداعين إليه والمنادين بالدفاع عن حوزته كلّ ذلك لأمر ليس هنا محلّ بسطه.

شهاب جحجوح

لم ندر على التحقيق السبب الذي دعا صاحب جريدة جحجوح لإضافة كلمة شهاب إلى اسم جريدته فأصبحت تدعى شهاب جحجوح اللهم إلا حبّ التغلب والظهور بمظهر التجديد والتطوّر ذلك لأنّها لم تغيّر اتجاهها ولا مشربها بل استمرّت في أسلوبها التقليدي وهو نشر ما يكتبه لها أصحاب الغايات أو ما توعز هي بكتابته ممّا لها مصلحة في نشره.

وأخيرا مرض صاحب الشهاب وملّ الناس قراءة ذلك النوع من الصحف التي أصبحت شبحا بلا روح فاختفت من تلقاء نفسها غير مأسوف عليها.

---

* "الوطن" في 19 أوت و16 و30 سبتمبر و14 أكتوبر 1957.

1) نسبة إلى الشاذلي باي ابن الأمين باي آخر بايات تونس وقد كان يتمتع بنفوذ سياسي كبير في عهد والده.

2) له ترجمة قصيرة بمناسبة محاكمة الشيوعيّين منشورة في جريدة الزهرة بتاريخ 20 مارس 1922.

3) عنه في معجم لامبير ص 372.



الشيخ الخضر حسين*

(1876 ـ 1958)

من زعماء الإصلاح الاجتماعي في العصر الحاضر الشيخ الخضر بن الحسين الذي جاهد الباطل والمحسوبيّة وكافح الجهل والأنانيّة وتصدّى لردّ الظلم ودحضه أينما حلّ وارتحل فكان من الموفقين، تستحقّ حياته المملوءة بالعمل الصالح التسجيل، وذلك يستدعي ويستلزم كتابا ولا يكفي لاحتوائه فصل في جريدة ولكن طلب صاحب "العزّة"[1] الفاضل لنشر حياة هذا الرجل الكامل في ميدان الكفاح الإسلامي في جريدته جعلني أضطرّ إلى استعراض ما لديّ من المعلومات عن حياته وأعماله حتى يكون في ذلك موعظة ودرسا للشباب المتحفز للنسج على منواله.

مولده ونشأته

ولد الشيخ الخضر بمدينة نفطة الواقعة في أقصى نقطة من الجنوب الغربي من المملكة التونسيّة في 26 رجب سنة 1293هـ الموافق 13 أوت 1876م من أبوين كريمين، فوالده من قادة التصوّف الإسلامي في القرن الماضي وأمّه هي ابنة العالم التونسي الشهير والصوفي المعروف الشيخ مصطفى بن عزّوز دفين بلدة نفطة الذي لعب دورا في سياسة الدولة التونسيّة في أواسط القرن الماضي عندما اشتدّت وطأة ظلم الولاة وبغي العتاة، فكان الملجأ لمن حاق بهم مكرهم ومجيرهم عند ذوي السلطة والنفوذ.

انتقل والد الشيخ من مسقط رأسه إلى الحضرة التونسيّة في العام السادس من هذا القرن (1306هـ/1888م) وفيها بدأ يزاول حفظ القرآن الكريم إلى أن أتمّه ثمّ أخذ يتعلم مبادئ العلوم حيث أدخل إلى جامع الزيتونة وفيها تتلمذ إلى شيوخ أعلام أمثال الشيخ عمر ابن الشيخ وسالم بوحاجب ومحمد النجار وتلقى عنهم المنقول والمعقول إلى أن أحرز على شهادة التطويع سنة 1316هـ/1898م.

الإصلاح الاجتماعي

كانت الروح السائدة في التعليم الزيتوني لا تبعث على الاطمئنان فالتوكل والتسليم للقضاء والقدر هي كلّ ما يحدّث به شيوخ الزيتونة تلاميذهم وهو ما يفضي إلى طغيان سيادة مبدإ الجبريّة، فإذا جادل مجادل في العمل والكسب وجاهر بالسّعي والعمل المتواصل لخير هذا الوطن عدّوا عليه أنفاسه وابتعد عنه الخاصّة فضلا عن العامّة، وسبب ذلك يرجع في معظمه إلى الجوّ السياسي الذي غمر البلاد التونسيّة بعد انتصاب الحماية واستمرار حالة الحصار سنوات عديدة، فالحكم العسكري واستمرار حالة الطوارئ جعل أكثر الناس يهمسون برغباتهم المشروعة همسا وفي آذان بعض الدوائر المسؤولة في الحكومة، أمّا أن يقوم خطيب على منبر عامّ يدعو الناس إلى الإصلاح الاجتماعي أو السياسي أو أن تتولى صحيفة محليّة القيام بهذا العمل فذلك ضرب من المحال.

شجاعة نادرة

لكنّ الشيخ الخضر حسين خرق الإجماع وتقدّم إلى ميدان العمل بخطى ثابتة فأنشأ مجلة "السعادة العظمى" سنة 1322هـ/1904م فكانت أوّل صوت يرتفع مناديا بوجوب الإصلاح الاجتماعي وحاولت أن تكون في خطواتها الأولى كمجلة المنار بمصر فكانت تشتمل على بحوث في التفسير والحديث وإصلاح

المجتمع الإسلامي يقوم بتحريرها نخبة من شيوخه وزملائه، وكان الأمل أن تستمرّ في الظهور والصدور لكنّها لم تقو على ذلك لأنّها كانت سابقة لعصرها فاضطرّ الشيخ إلى إيقاف إصدارها.

إبعاده عن تونس

لم يقف الشيخ بعد احتجاب مجلته مكتوف اليدين بل أخذ يلقي الدروس الوعظيّة ويعقد الاجتماعات الخاصّة لإرشاد الشعب إلى طرق العلاج والسداد، وبينما هو في تلك الحال سلطت عليه الحكومة بعض قرابته الذين حبّبوا إليه قبول خطة قضاء مدينة بنزرت وكان ذلك في سنة 1323هـ/1905م مع إسناده خطة الإمامة والخطابة بجامعها الكبير، فقبل ما عرض عليه عساه يتخذ ممّا ذكر وسيلة لإبلاغ رسالته إلى المجتمع ومباشرة الحكم بالعدل بين الرعيّة وإنقاذ السكان من ظلم القضاة المرتشين حتى يكون قدوة لغيره من قضاة العدل.

فارق الشيخ مدينة تونس وانتصب في مدينة بنزرت ووضع برنامجا إصلاحيّا ذا شعبتين الأولى قضائيّة يطبّق فيها قواعد الشرع الإسلامي كما هي فيما يعرض أمامه من القضايا الاستحقاقيّة والشخصيّة، والثانية اجتماعية وهي معالجة أمراض المجتمع الإسلامي عن طريق الخطب المنبريّة كلّ يوم جمعة يرشد الناس فيها إلى أمور دينهم ودنياهم، ولمّا شرع في تطبيق برنامجه الإصلاحي بدأت الدسائس تحوم حوله وأخذ المرجفون يتقوّلون الأقاويل عنه فحمله ذلك على المبادرة إلى تقديم استقالته ممّا هو مسند إليه من الخطط فأعفي من تكاليفها وعاد إلى تونس.

التدريس بتونس

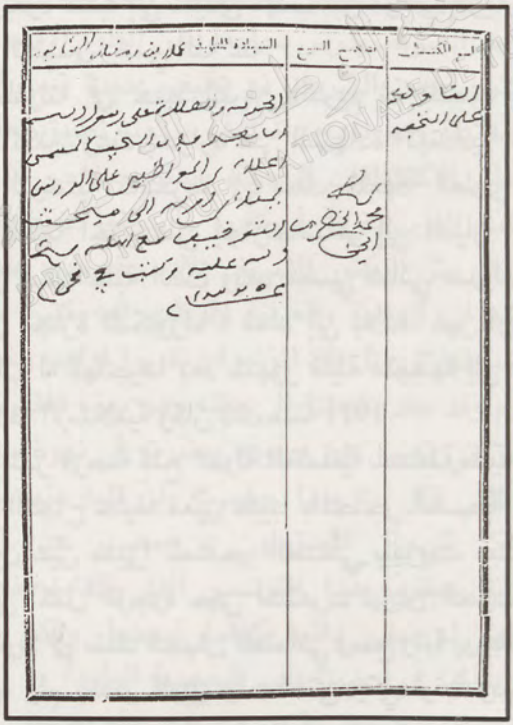
عاد الشيخ الخضر إلى تونس وشرع يلقي دروسا حرّة بجامع الزيتونة إلى أن فتحت مناظرة لاختيار مدرّس من الطبقة الثانية بجامع الزيتونة سنة 1325هـ/1907م، فساهم مع المتناظرين وكان الفوز حليفه كما كان ذلك سببا في تسميته مدرّسا بالمدرسة

الصادقيّة سنة 1326هـ/1908م وعهدت إليه الخلدونيّة بإلقاء دروس على طلابها في فنون الإنشاء والخطابة فتصدّى لذلك على أكمل وجه.

---

* من أرشيف المهيدي في المكتبة الوطنية.

1) مجلة نصف شهريّة مديرها وصاحبها محمّد علي عبد اللطيف صدر منها عددان الأوّل في 28 فيفري 1952 والثاني في 22 مارس 1962 وقد كتب فيه المهيدي مقالا عنوانه "الصحافة الحزبيّة ما لها وعليها"، أمّا مقاله هذا عن الخضر حسين فقد أعدّ خصيصا للعزّة إلا أنّه لم ينشر.



صفحة من دفتر شهادات جدّنا للأمّ المرحوم عمّار بن رمضان الشّابي عليها ملاحظة شيخه الخضر ابن الحسين



الدكتور أحمد الشريف*

(... ـ 1959)

هو أحمد بن محمّد الشريف أنبتته بلدة المكنين من الساحل التونسي ويعود نسبه إلى سيدي مهذب ابن مولاي إدريس الأكبر ابن سيّدنا الحسين رضي الله عنه.

قضّى طفولته في حفظ القرآن الكريم ثمّ التحق بالمدرسة الابتدائيّة بالمكنين وعند إحرازه على الشهادة الابتدائيّة انتقل إلى العاصمة التونسيّة فانخرط في سلك المعهد العلوي للتعليم الثانوي، وعندما أحرز على إجازته سافر إلى الديار الفرنسيّة فانخرط في سلك طلبة الطبّ وبعد مضي ثماني سنوات تخرّج منها يحمل إجازة الدكتوراه[1] فعاد إلى بلاده، غير أنّ الإقامة فيها لم تطب له فهاجرها بعد شهور قليلة متوجّها إلى الآستانة مركز الخلافة الإسلاميّة وكان ذلك سنة 1911.

وهناك انتهز فرصة فتح الدولة العثمانيّة لمسابقة طبيّة فشارك فيها وكان النجاح حليفه فعيّن طبيبا بالمحاجر الصحيّة التركيّة، ثمّ بعد حين عيّن مديرا للمحجر الصحّي ببيروت، فبقي قائما بمهمّته على أكمل الوجوه حتى استعرت نيران الحرب العالميّة الأولى فانخرط في سلك الجيش العثماني ومنح رتبة يوزباشي منذ يومه الأوّل، ولم يمض طويل وقت حتى رقي لرتبة رئيس أحد المستشفيات المتنقلة التابعة للجيش الرابع التركي.

ثم انطفأت جذوة الحرب فعاد لإدارة المحجر الصحّي ببيروت وهنالك تزوّج إحدى حفيدات البطل الخالد المبرور

الأمير عبد القادر الجزائري، وقد هاجرت أسرة الأميرة معه عند احتلال الجزائر إلى الديار الشاميّة كما يعرف ذلك المطلعون، فأنجبت له نجله أمين أحمد الشريف وهو دكتور في الكيمياء الزراعيّة متخرّج من جامعة لندن، وقد أبى أن يكتفي بتبحّره ذاك فواصل دراسته بالجامعة المذكورة للإحراز على الدكتوراه في الكيمياء الصناعيّة، وفقه الله[2].

كما أنجبت له كريمته النابغة الآنسة رجاء التي تزاول اليوم بجامعة لندن دراسة تاريخ الشرق والآداب العربيّة والإنكليزية وقد سبق لنا أن استمعنا إليها من مذياع لندن تتحدّث عن المرأة العربيّة وواجباتها وتفتخر بتونسيّتها وعروبتها. ونجله الثالث عامر أحمد الشريف يدرس بجامعة لندن العلوم الاقتصاديّة.

والدكتور أحمد الشريف ذو تآليف عديدة قيّمة في البحوث الطبيّة العميقة وهو ينهج دائما في مباحثه تطبيق تعاليم القرآن الكريم على الاكتشافات الحديثة، ويشيد بمفاخر الإسلام الذي سبق علماء الغرب بقرون في تقرير ما حرقوا أدمغتهم لاكتشاف بعضه، وقد مثل الدكتور الشريف بلاده رغم بعده عنها في كثير من المؤتمرات العالميّة والعربيّة وأوكلت إليه كثير من الأقطار العربيّة تمثيلها في مثل تلك المؤتمرات تقديرا لمواهبه وحصافته[3].

واليوم وقد عاد نابغتنا إلى وطنه وهو بهذه المقدرة والكفاءة، فهل تستغني تونس عن جهوده وخبرته في نهوضها وإصلاح حالتها التي قال لنا عنها حضرته "إنّ قلبه منها يقطر دما"، وهل يفكر الرجال المسؤولون عن مصير هذا الشعب في الاستفادة بعبقريّة هذا التونسي الفذ وكفاءة أنجاله وسعة معلوماتهم أم نبقى دائما كراما أسخياء ولكن على الغير ويموت أبناؤنا في أرضنا وهي الخصبة الولود؟

---

* "الصريح" ع 10 بتاريخ 26 مارس 1949. نسب هذا النصّ خطأ إلى الهادي العبيدي في الصفحة 218 من العدد 11 من سلسلة ذاكرة وإبداع

الصادرة عن وزارة الثقافة والصواب أن هذه الترجمة كتبها محمّد الصّالح المهيدي، يدلّ على ذلك الاختلاف بين أسلوبي الرجلين في الترجمة فالمهيدي يعتمد الفقرات القصيرة وضبط التواريخ والتدقيق في المعلومات أمّا العبيدي فكتابته انطباعية وهو ما نلحظه بجلاء عند المقارنة.

1) سنة 1908 نشرت مكتبة Damico-librairie-éditeur بشارع فرنسا في تونس أطروحة المترجم له وعنوانها: " Histoire de la médecine Arabe en Tunisie" وقد تمّ طبعها ببوردو في فرنسا، علمًا بأنّ مجلة المباحث ترجمت بعضها إلى اللغة العربيّة في أعداد أشهر جانفي ومارس 1938 وأفريل وماي 1944.

2) انظر محاضرة له في مجلة المباحث عدد شهر مارس 1944 تحت عنوان "نحن والمستقبل".

3) انظر مسامرة تاريخية عن مدنيّة الإسلام بالأندلس نشرت في جريدة الحاضرة ع 819 بتاريخ 8 نوفمبر 1904 قام بها "البارع النجيب السيّد أحمد الشريف المكني المزاول الآن للعلوم الطبيّة بمدينة بوردو" كما ذكرت ذلك جريدة الحاضرة في صفحتها الأولى من العدد المشار إليه، له كذلك "الطبيب التونسي الذي أدخل الطبّ العربي إلى أوروبا قبل ألف عام" في الثريّا س7،ع40 بتاريخ 1 فيفري 1950 و"كيف يتكوّن الجنين" في الأسبوع ع41 بتاريخ 12 ديسمبر 1948، عنه في مجلة الفجر سنة 1922، وجريدة الصباح بتاريخ 9 أوت 1959 حيث نقلت بعض الفقرات من المقال أعلاه بمناسبة وفاته.



الشاذلي جعفورة*

(1904 ـ 1960)

بلغنا خبر وفاة عميد المسرح التونسي بالساحل فأدخل علينا حزنا شديدا ونحن إذ نكتب هاته الكلمة عن حياة الفقيد الفنيّة فإنّنا نسجّل بها صفحات ذهبيّة لرجل خدم الفنّ من المهد إلى اللحد.

من هو عميد المسرح بالساحل؟

هو المنعّم المبرور الشاذلي بن محمّد جعفورة ولد بالمنستير خلال سنة 1904 وتعلم في مدرستها الابتدائيّة العربيّة والفرنسيّة، وكان له من عهد شبابه شغف بالتمثيل والمسرح الفرنسي والعربي، لازمته هاته الهواية فكان لا يتخلف عن مشاهدة الروايات التي تمثل بسوسة أو تونس خصوصًا من الأجواق الأجنبيّة، وقد شجّعه على الإقبال على التمثيل عميد المسرح التونسي المرحوم محمّد بن علي بورقيبة[1] شقيق الرئيس الحبيب بورقيبة فنمت موهبته وزاد إقباله إلى أن أصبح من روّاد المسرح البارزين.

التمثيل بالساحل

كانت بلاد الساحل وأخصّها مدينتا أكودة والمنستير تحتلّ المرتبة الثانية في التمثيل بعد صفاقس من مدن الجمهوريّة التونسيّة غير داخلة فيها تونس، وكان الفضل في هذاالسبق يرجع إلى شخصيّتي العميد بورقيبة والشيخ إبراهيم الأكودي[2]،

وبعد وفاة العميد تلقى هاته الرسالة وأداها حقّ أدائها المرحوم الشاذلي جعفورة.

الحركة التمثيليّـة بالمنستير

لنترك الآن الحديث عن الحركة التمثيليّة بأكودة إلى فرصة أخرى ولنتحدّث عن الحركة التمثيليّة بالمنستير بمناسبة وفاة عميد المسرح بها.

المنظمات التمثيليّة بالمنستير كانت نوعين:

إحداها تتصل بجمعيّات ثقافيّة تهتمّ بالشؤون الثقافيّة العامّة بما فيها الأدب والموسيقى والمسرح وهذا النوع أكثر شيوعا لأن نظام الحكم الاستعماري بتونس كان لا يسمح بتأسيس الجمعيّات المسرحيّة الخاصّة لِما يتوقعه من نشاط اجتماعاتها التي قد تتخذ وسيلة للتفاوض في الشؤون السياسيّة والقضيّة الوطنيّة، وهناك عامل آخر وهو أنّ إقبال الشعب التونسي على الفنون الجميلة وفي مقدّمتها الفنّ المسرحي كان ضعيفا إلى درجة لا تمكن هواة هذا الفنّ من إطفاء ظمئهم.

وثانيها منظمات تمثيليّة كان لها استقلالها الذاتي خصوصا بعد الاستقلال وهذا النوع تكوّن إثر بذل مجهودات شعبيّة متنوّعة ومع ذلك كان ضعيفا وهو في حاجة إلى المساعدة والتشجيع حتى اليوم.

استعراض خاطـف

ولتتمكن أيّها القارىء الكريم من معرفة المجهود الذي بذله العاملون قي سبيل بعث الثقافة المسرحيّة بالمنستير وفي مقدّمة هؤلاء الفقيد العزيز الشاذلي جعفورة نرسم أمامك شريطا استعراضيّا من الجمعيّات والمنظمات القوميّة بالمنستير.

جمعيّة الشباب الأدبي المنستري

هي أقدم الجمعيّات الثقافيّة بالمنستير وقد أسّست لها فرعا للتمثيل وكان من أبرز العاملين فيه المرحوم خليفة السطنبولي

الذي غذاه وغذى غيره بعدّة مسرحيّات كاملة وفصول تمثيليّة لتدريب الناشئة المدرسيّة على الفنّ المسرحي وكان يدرّب هذا الفرع المرحوم الشاذلي جعفورة، ولم يقتصر نشاطه على التمثيل بالمنستير بل قام برحلات مثل فيها روايات في بعض مدن الجمهوريّة، من ذلك الرحلة التي قام بها إلى مدينة القيروان ومثل فيها يوم السبت 27 جويلية سنة 1945 رواية البرج الهائل، وقد كلفتني لجنة الدفاع عن المسرح في ذلك العهد بالقيام بجولة دعائيّة لفائدتها ولمراقبة التمثيل خارج تونس فسافرت إلى القيروان كما سافر صديقي الأستاذ الهادي العبيدي عضو اللجنة المذكورة إلى سوسة لمشاهدة نشاطها المسرحي. وفي اليوم الموعود حضرت تمثيل الرواية بالقيروان وأعجبت كثيرا بالقائم بدور البطل فيها وهو الشاب الحبيب نويرة (سعادة القائم بسفارة تونس الآن بالعراق).

ولم تقتصر الحفلة على التمثيل فقط بل وقع فيها تبادل الخطب بين القادمين وسكان القيروان فألقى الشاعر الشاب محمّد الهادي نعمان قصيدا وخطب الشاب علي غديرة وردّ التحيّة الأستاذ محمّد الحليوي كعادته بخطاب بليغ كان له أحسن الأثر في نفوس الحاضرين.

جمعيّة الطالب المنستيري

هاته المنظمة ثقافيّة أيضا أسّسها المتخرّجون من المعاهد الثانويّة وعلى الأخصّ المدرسة الصادقيّة وكانت تزاحم جمعيّة الشباب الأدبي المنستيري مزاحمة شريفة في ميدان الثقافة العامّة، وفي سنة 1942 نشأت فرقة تمثيليّة مثلت بعض الروايات.

جمعيّة قدماء تلامذة المكتب العربي الفرنسي

هاته الجمعيّة من الجمعيّات التي ساهم في تأسيسها المرحوم الشاذلي جعفورة وأحدث لها فرعا للتمثيل، وفي سنة

1956 عندما كان يرأسها الشاعر الأديب السيّد محمّد الهادي نعمان قامت بتمثيل بعض الروايات.

جمعيّة الاتحاد الفني المنستيري

هاته جمعيّة مسرحيّة أسّسها الفقيد جعفورة وكان هو مديرها الفنّي وهو الذي ناب عنها ومثلها في المؤتمر القومي الأوّل للتمثيل الذي أقيم بسوسة في شهر سبتمبر سنة 1956 كما ناب عن جمعيّة القدماء وجمعيّة المسرح المنستيري في ذلك المؤتمر بحيث أنّه مثل ثلاث منظمات أدبيّة وفنيّة بالمنستير في المؤتمر الذي كان لي شرف رئاسته الفعليّة بإشراف وحضور السيّد كاتب الدولة للتربية القوميّة لجلسته الافتتاحيّة.

وهناك جمعيّات أخرى ساهم في تأسيسها الفقيد بالمنستير منها جمعية النجم المنستيري التي تأسّست في عام 1936 ومثلت عدّة روايات وتعدّ الجمعيّة المسرحيّة الأولى بتلك البلدة. وجمعيّة الاتحاد المسرحي المنتسيري التي كان يرأسها الممثل الشاب محمّد بن عثمان الصيّادي ومثلت رواية الشهيد المكافح الهادي شاكر.

عمادة مسرح الساحل

وقد تجلت عمادة الفقيد للمسرح بالساحل عندما أسندت إليه عدّة مأموريّات وكلف بمهمّات مسرحيّة فمن ذلك نيابته عن الجمعيّات المسرحيّة في المؤتمرات والمهرجانات التمثيليّة التي تقام بتونس وغيرها من مدن الجمهوريّة، وآخر هاته النيابات تمثيله للجمعيّات المذكورة في الاجتماعات التي عقدتها الجمعيّات التمثيليّة بالشمال والوسط والجنوب للنظر في إمكانيّة إخراج مسرحيّة على ملعب قصر الجمّ، فقد حضر في الاجتماع التمهيدي الذي انعقد بسوسة في جانفي من هذا العام وحضر في صفاقس في الاجتماعين المنعقدين يومي 13

و14 فيفري المنصرم وعهدت إليه مهمّة دراسة الرواية المعروضة للتمثيل ومهمّة إخراجها.

تعـرّفي بالفقـيـد

تعرّفت بالفقيد منذ سنة 1937 فعرفت فيه الحزم والجدّ وعرفت فيه الاخلاص والتفاني في خدمة المسرح، وشاهدته يدرّب الممثلين في قاعة الأفراح بالمنستير وغيرها فكان في طليعة من ضحّوا بمالهم وثمين أوقاتهم في خدمة المسرح.

وفاتــه

وأخيرا توالت عليه عدّة أمراض وكانت وفاته يوم الأربعاء 13 أفريل الجاري ودفن بالمنستير عليه رحمة الله وعزاء للمسرح وأهله وذويه.

---

* "الصباح" بتاريخ 22 أفريل 1960.

1) انظر ترجمة له بقلم عبد العزيز العقربي في مجلة المسرح ع2 السنة الأولى في أفريل 1959.

2) عنه انظر جريدة الزمان في 10 نوفمبر 1930 والوزير في 17 أكتوبر 1930 و7 جانفي 1933 وخبر وفاته في الزهرة في 9 نوفمبر 1942 والصباح بتاريخ 8 فيفري 1963 والعمل في 6 سبتمبر 1968.



محمود بيـــرم التونسي

(1893 ـ 1961)

فـي تونـــس*

الجوّ السياسي

قبل حلول المرحوم محمود بيرم بتونس في شهر ديسمبر سنة 1932 كان الجوّ السياسي مظلما قاتما يحتفل فيه الاستعمار اللاتيني بذكريات احتلاله للشمال الإفريقي، فقد أقامت فرنسا احتفالا في الجزائر سنة 1930 بمناسبة مضيّ مائة عام على احتلالها ذلك القطر الشقيق الذي يتابع حتى اليوم الجهاد للتحصيل على حريّته المغتصبة بالحديد والنار، واحتفلت في سنة 1931 في تونس بمناسبة مضيّ خمسين عاما على نصب حمايتها عليها، واحتفلت في المغرب سنة 1932 بمناسبة مضيّ عشرين عاما على نصب حمايتها عليه، وفعلت مثل ذلك شقيقتها اللاتينية إيطاليا في ليبيا ولم يقتصر الاستعمار على إقامة هذه الذكريات المؤلمة بل قام بمظاهرات دينيّة أخرى ترمي إلى التظاهر بتغلغل المسيحيّة من جديد في المغرب العربي الكبير، فأقيم في تونس المؤتمر الإفخارستي وصدر في المغرب الظهير البربري واحتفل هنا بما سمّوه بمؤتمر اللغة العربيّة الذي ساهم فيه كبار موظفي الدولة مع المستشرقين وكانت المظاهرات الوطنيّة ضدّ هذه الاستفزازات الاستعماريّة المتوالية في الشمال الإفريقي قائمة على ساق الجدّ في كامل المغرب العربي وفتحت أبواب السجون وملئت بأبناء الشعب وأضيفت المنافي والمحتشدات فيما بعد، كانت

مراجل غضب الشعب على الاستعمار تغلي في كل قطر من أقطار المغرب العربي والمشرق.

كانت الصحافة الوطنيّة مغلولة أيدي أصحابها إلى أعناقهم لا يقدرون على إبداء كلّ ما يمليه عليهم الحقّ والواجب، أمّا الصحافة الاستعماريّة فكانت تكتب بحريّة تامّة لا يخشى أصحابها أيّ تتبّع أو محاكمة.

قـــدوم بـيرم

في هذه الظروف التي شرحناها قدم محمود بيرم إلى تونس للمرّة الثانية لأنّه سبق له القدوم إليها منفيّا، نفاه الملك فؤاد سنة 1919 ولم تطل إقامته بها إذ فارقها بعد بضعة أسابيع. جاء بيرم لا ليجلس ويدعو الله أن ينزل عليه مائدة من السماء بل ليعمل في الحقل الصحفي وهو كما رأيت من الضّيق والخطورة بمكان.

بدأ بيرم يعمل من أوّل شهر جانفي سنة 1933 في جريدة الزمان وهي جريدة رخّصت الحكومة في إصدارها لصاحبها ليجعل منها وسيلة لنشر إعلانات بوصفه مديرا لدار الإشهار العربي واشترطت عليه أن لا يخوض في السياسة. استطاع بيرم أن يتخلص من هذا الالتزام فجعل من النقد الاجتماعي مادّة غزيرة يزوّد بها جريدة الزمان في كلّ أسبوع وما النقد الاجتماعي في الحقيقة إلا لون من ألوان الموضوعات السياسيّة.

نشر في أوّل عدد أشرف على تحريره من جريدة الزمان ما جاء به من إنتاجه الأدبي الذي سبق نشره في الصحافة المصريّة وهو قصيدته عن المجلس البلدي ورسالة الغفران التي عارض بها رسالة الغفران للمعرّي ونشيد رفعه إلى ملك تونس في ذلك العهد وموّال مصريّ إلخ...

أســرة الزمـان

وكانت للزمان أسرة سابقة تحرّره أو تشرف على تحريره ومن هؤلاء المرحوم عبد الرزّاق كرباكة والسيّد الهادي العبيدي

ومحرّر هذا المقال وغيرهم من المراسلين منهم المرحوم محمّد البشروش مؤسّس مجلة المباحث ومحمّد الحليوي وغيرهما.

كان الزمان يسير على منهج الصحف التونسيّة الأخرى في نشر الأخبار ولكنّه في الناحية الأدبيّة كان ينفرد بنشر المقالات والآراء التي لها اتصال بحريّة الفكر لأنّ المحرّرين والمراسلين لا يتقاضون المقابل عن تحريرهم والحكومة لا تراقب مراقبة شديدة ما تنشره الزمان من الإنتاج الأدبي ما دام ذلك الأدب مغمورا وسط الإعلانات التجاريّة التي كانت تطغى على الجريدة أحيانا.

وجد بيرم نفسه مع أسرة من الشبّان المتطلعين إلى حياة أفضل أكثرهم من الناقمين على الحياة لأنّ وضعهم الاجتماعي كان يحملهم على سلوك تلك السبيل وكان بيرم نفسه من هذا الصنف من البشر حيث كان من الناقمين على المجتمع الشرقي المعاصر له لِما فيه من ظلم وطغيان ونفاق ودجل.

تحت السّور

وكان في تونس جمع من الأدباء الشبّان الذين يحرّرون الصحف لأصحابها حبّا في التحرير وتطلعا إلى مركز في الحياة العامّة يتماشى مع مؤهّلاتهم ومواهبهم، وكان من بين هؤلاء المرحومون الدوعاجي والعريبي وابن فضيلة وكرباكة والسّادة العروي والعبيدي والغرايري وخريّف.

قضّى بيرم أكثر من عامين ونصف وهو يحرّر الزمان وفي شهر جوان 1935 انسحب من التحرير وبقي يراسل الصحف الشرقيّة واستحكمت روابط الودّ بينه وبين جماعة تحت السّور وأكثر الليالي تقضى في علوّ المرحوم الدوعاجي وهناك يقع تصميم القصص والشعر الغنائي والأدب الذي امتلأت به صفحات الجرائد التي أصدرها جماعة تحت السّور.

كانت لبيرم أساليب ممتازة في النّقد الاجتماعي فلم يسلم من قلمه كبير أو صغير إلى أن قرّرت الحكومة نفيه ففارق

تونس وكأنّه لم يفارقها لأنّ أدباء تحت السّور استمرّوا في عملهم بعد إبعاده يحرّرون كلّ الصحف التي تصدر في تونس اللهم إلا بعض أمّهات الصحف كالزهرة والنهضة والصواب والنديم ولسان الشعب.

وتمرّ الأيّام وإذا بشبّان ذلك العصر هم رجال القلم اليوم إلا من تغمّده الله برحمته.

---

* "العمل" بتاريخ 22 جانفي 1961.



رسْم بيرم التّونسي (عن مجلة الإذاعة والتلفزة)



محمد العربي الكبادي*

(1881 ـ 1961)

تمهيد

من واجب الوفاء عليّ لشيخي وأستاذي المرحوم محمّد العربي الكبادي أن أترجم له، فقد بدأ اتصالي به منذ سنة 1924 عندما كنت أتربّع في حلقات دروسه بالزيتونة أدرس على يديه كتابي "رقم الحلل في نظم الدول" و"شرح البردة" للبوصيري أو أتلقى منه دروس الأدب بمدرسة اللغة والآداب العربيّة التي كانت بسوق العطارين حيث درّسني كتاب "المثل السائر" لابن الأثير.

وفي الحقيقة فإنّ الشيخ كانت له صبابة في أهل الجريد فقد عاشر منهم الكثير كالشيخ النوري بن بلقاسم[1] الذي درّسه المحلى بزاوية سيدي أحمد بن عروس والشيخ محمّد بن إبراهيم الذي كان يجالسه بدكان السيّد محمّد بن سليمان الحلاق بباب منارة مع بعض الأدباء المشارقة أمثال رشيد مصوبع المحرّر بجريدة البصيرة التونسيّة[2] وغيره.

ثم ازدادت هذه العلاقة قوّة ومكانة عندما تزوّج صديقه الحميم وزميله الأديب الشيخ أحمد أديب المكي[3] بامرأة من مدينة توزر من عائلة أدب ومعرفة هي عائلة ابن الساكر. ثم زادت عندما تعرّف بالشيخ إبراهيم خريّف أحد أدباء نفطة المشهورين، ومن هنا كانت علاقته بابنه صديقنا الأخ مصطفى خرّيف حيث أصبح للفقيد بمنزلة الابن بعد وفاة أبيه.

وكتابتي ترجمة أستاذي ستكون على الطريقة التي اخترتها منذ سنة 1936 عندما ترجمت للمرحومين أبي القاسم الشابّي وعثمان عصمان بمجلة الأفكار وتابعتها عندما ترجمت للمرحومين معاوية التميمي ومحمد البشروش في مجلة المباحث سنة 1944 ـ 1945، فأضع المعلومات العامّة التي تفيد من يريد دراسة أدب وآثار الفقيد وأتجنّب تحليل الأدب أو التعليق على المواقف وذلك لعدّة أسباب أهمّها ضيق المجال وتزاحم المواد التي تنشر بالصحافة، فالتحليل من اختصاص الكتب والدراسات العميقة وهذا ما سنقوم به عند إعداد كتابنا عن تاريخ الصحافة العربيّة للطبع.

الاسم واللقب

يوم الأحد 28 جوان سنة 1959 سألته عن اسمه ولقبه وتاريخ ولادته فقال لي: "إنّه محمّد العربي بن الشاذلي بن محمّد الصغيّر الشبلي، أمّا لقب الكبادي فهو حديث عهد حيث أنّ جدّه الذي كان من عدول تونس المبرّزين معروف بالشبلي فقط، ولعلها تحريف لكلمة الإشبيلي نسبة إلى إشبيلية المدينة الأندلسيّة الشهيرة وبذلك يتحقق نسبه الأندلسي، أمّا كلمة الكبادي بفتح الكاف وترقيق الباء فلعلها مشتقة من الكباد الذي هو نوع من الليمون لم يذكره القاموس وذكره شارحه، وأمّا بضمّ الكاف فهي مرض بالكبد يقال له الكباد وهي بترقيق الباء أيضا، ولعلّ أبي كان مصابا بهذا الداء ويشكو منه كثيرا فقيل له كبادي، أمّا تفخيم الباء فلا أصل له ولا وجود له في اللغة ولعله من التحريف الشائع عند عامّة التونسيّين. أمّا الولادة فكانت في يوم 28 محرّم سنة 1298هـ الموافق يوم غرّة جانفي سنة 1881م بالدار الكائنة بزنقة أم هانئ من نهج المرّ بمدينة تونس".

تعليمه

لمّا بلغ أشدّه أدخله أبوه إلى الكتاب الذي كان بأوّل الزنقة المولود بها، وبه حفظ القرآن على المؤدّب الشيخ المختار البحري العوني ومن زملائه بالكتاب بعض أفراد عائلة الشيخ المكي بن عزوز منهم ابنه الكامل كما أعلمني بذلك يوم 15 مارس 1959.

في سنة 1310هـ/1892م أدخله والده إلى جامع الزيتونة لتلقي علوم العربيّة والديانة الإسلاميّة، فتلقاها من علماء ذلك العصر أمثال الشيخ سالم بوحاجب والشيخ الصّادق بن القاضي والشيخ محمّد بن يوسف وتلمذته لأوّل هؤلاء الشيوخ حبّبت إليه الأدب وقرض الشعر.

كان والده يمنعه من التجوّل في الشوارع بعد انتهاء دروس الزيتونة ويكلفه بحفظ بعض المدائح النبويّة كالبردة والهمزيّة والأحاديث النبويّة من صحيحي البخاري ومسلم، وكان الشيخ سالم بوحاجب يكلفه مدّة إقامته بمحلّ سكناه بحفظ بعض أشعار العرب وعلى الأخصّ ما يختاره من كتاب الأغاني، وقد زاحمه في حفظ أشعار العرب من كتاب الأغاني زمرة من زملائه في عهد الدراسة أشهرهم السادة محمود موسى وحمودة القصّار ومحمّد بوشارب وإدريس محفوظ وعبد الرحمان الكعّاك والصّادق المحرزي وزين العابدين النيفر، ولأكثر هؤلاء شعر منشور.

وقد تسبّب كلفه بالأدب تأخّره في التحصيل على رتبة التطويع التي لم ينلها إلا سنة 1320هـ/1902م بتفوّق في العلوم النقليّة والعقليّة كل ذلك بفضل عناية والده به وتنشئته تنشئة صالحة.

في الصحافة

كان الفقيد أيّام دراسته بالزيتونة يتردّد على الخلدونيّة لسماع ما يلقى فيها من المحاضرات وما يقام من المهرجانات

ومطالعة ما يرد على مكتبتها من مجلات وصحف الشرق كما كانت اتصالاته بأصحاب الصحف قويّة خصوصا الصحافة ذات المنهج الأدبي كمجلة خيرالدين التي أنشأها المرحوم محمّد الجعايبي سنة 1906. كما كان يستمع إلى المحاضرات التي تلقى بجمعيّة قدماء الصادقيّة من طرف بعض الشيوخ كالشيخ محمّد النخلي والشيخ محمّد الخضر حسين وغيرهما.

كلّ هاته العوامل حبّبت إليه الاندماج في الوسط الصحفي فساهم في تحرير جريدة النهضة التي أنشأها صديقه المرحوم الحاج البشير بن عزالدين سنة 1909، ومن منشوراته فيها القصيد الذي أنشأه بمناسبة الانقلاب العثماني وحصول الشعب التركي على نظام الحكم الدستوري سنة 1908 وهو قصيد يفوق الثلاثين بيتا.

العمـــل الإداري

بعد هاته التجربة الصحفيّة رأى أن يقوم بتجربة أخرى هي العمل الإداري وكان نظام التعليم الزيتوني لا يقتضي التحصيل على ورقة مشهود فيها لمن زاول التعليم وأتمه بتحصيله على شهادة التطويع وتسليمها إليه بل يرسّم تطويعه في دفتر متابعته التعليم بالزيتونة ثم يصدر له أمر من الباي في مباشرة الإشهاد العام بمسقط رأسه.

وعلى هذا المنوال صدر أمر من الباي للفقيد في تعاطي ما ذكر، لكنّ الإشهاد العام لا يكفل وحده ضروريّات الحياة لذلك سعى في التحصيل على أمر آخر في الإشهاد الخاصّ بجمعية الأوقاف وهذا الأمر مؤرّخ في 28 صفر سنة 1334هـ الموافق يوم 4 جانفي 1916م وهو يقتضي تخصيصه بالإشهاد على أوقاف الجوامع المالكيّة بتونس وكانت جرايته السنويّة مقابل تعاطيه هاته المهنة لا تفوق 900 مليم وهو مبلغ طفيف وزهيد جدًّا لا يسمن ولا يغني من جوع لذلك فكر الفقيد في إيجاد

عمل آخر إلى جانب هذا العمل الذي كان يقوم به في الصباح فقط إذ أنّه في المساء يتعاطى التعليم المجاني بجامع الزيتونة ابتداء من سنة 1331هـ/1912م.

التعليم الرسمي

إنّ السّعي الذي قام به المترجم له لتوفير دخله يتماشى تماما مع ما يلائم طبيعته واستعداده وميوله في التعليم النظامي في مدرسة عصريّة نظاميّة وهذا ما تمّ له حيث رأيناه منتدبا للتعليم بمدرسة اللغة والآداب العربيّة التي كانت بسوق العطارين إبتداء من سنة 1336هـ/1917م، وكانت الدروس تلقى فيها مساء بحيث لا تتنافى مع عمله بالأوقاف ولا مع تطوّعه المجاني للتدريس في جامع الزيتونة.

وفي هاته المدرسة وفي الزيتونة تتلمذ له في الأدب والمعرفة جمع كبير من التونسيّين لا يكاد عددهم يدخل تحت الحصر فيهم من زان المحافل الدوليّة وفي الطليعة الحبيب بورقيبة.

التدريس بالزيتونة

ساهم الفقيد في كثير من المناظرات التي تجريها الزيتونة لانتخاب مدرّسين وكان عدد المدرّسين بجميع طبقاتهم لا يتجاوز المائة، بحيث أنّ الشغور كان لا يحصل إلا بقلة وإذا حصل يكثر المتزاحمون وكانت المناظرات الزيتونيّة تراعى فيها اعتبارات قد لا تتصل أحيانا بموضوع المناظرة وكفاءة المتناظرين بل كانت المحسوبيّة لها بعض التأثير، لذلك لم يتمكن الفقيد من التحصيل على خطة مدرّس رسمي بالزيتونة إلى أن انتدب لذلك انتدابا في شهر شوّال سنة 1364هـ/أكتوبر 1945م وكلف بتدريس الأدب العربي بالقسم العالي وعيّنت له الساعة العاشرة صباحا، ففي أيّام السبت والأحد والإثنين يقرئ درسا موضوعه مختارات من النظم والنثر وهذا الدرس يلقيه على الطلبة الزيتونيّين بالمدرسة الخلدونيّة، وفي يوم الثلاثاء يلقى درسا بالزيتونة موضوعه الموازنة

بين البحتري وأبي تمّام يدرّسها بكتاب أبي هلال العسكري، وفي يوم الخميس يلقي درسا على من ذكر من كتاب نقد الشعر لابن قدامة، وكان هذا الانتداب بعد انتهاء مأموريّته التعليميّة من مدرسة اللغة والآداب العربيّة، أما مأموريّته بالأوقاف فقد انتهت بطلب منه نظرا للمضايقات التي أصبح يتعرّض لها من طرف مديرها السيّد محمّد سعد الله ولزهادة جرايته السنويّة التي لم تتجاوز 15800 وذلك في موفى شهر سبتمبر سنة 1934.

رحلتـه إلى المغرب

كان الفقيد مرموقا بعين الرضا من الشعب ومن الحكومة لِما امتاز به من حسن الشمائل والسماحة ورضيّ الخلق، إلى جانب تخصّصه في دراسة الأدب العربي عموما وأدب المغرب العربي بما في ذلك بلاد الأندلس بوجه خاصّ، لذلك أنابته الحكومة لتمثيلها ضمن وفد ضمّ السيّدين محمّد التركي ووليام مارسي، والمؤرّخ التونسي الشهير الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في مؤتمر اللغة والأدب العربي الذي انعقد بالرباط في مارس سنة 1933.

عند حلوله بالمغرب ألقى قصيدا أشاد فيه بالصداقة والأخوّة العربيّة هذا مطلعـه:

خضراء تونس حيّت بالثنا العطر
معاهد المغرب الأقصى منى النّظر
وحمّلتني تحيّـات لساكـنـها
أزكى من المسـك أنفاسـا لمقتبـر
لمّا بدت من حمى فاس معالمه
ما بين مرتفـع منها ومنحـدر
كادت تطير لها الأرواح تاركة
من شوقها قفص الأشباح والصّور

بعد عودته من المغرب الذي تجوّل في أهمّ مدنه رغب منه المعهد الخلدوني إلقاء محاضرة عن انطباعاته حول تلك الرحلة

فلبّى طلبه وألقى تلك المحاضرة يوم 14 ماي 1933 على الساعة الخامسة والنصف بعد الزوال.

وبهذه المناسبة أقول إنّ الشيخ قد ضاعت منه حقيبته أثناء إجراء عمليّة اجتياز الحدود الجزائريّة المغربيّة التي كانت بها المحاضرة التي سيلقيها في المؤتمر ومع ذلك فقد استطاع أن يعيد تحريرها من ذاكرته التي يضرب بها المثل في الاستحضار.

عمله في المنظمات

عندما استأنف النادي الأدبي بجمعيّة قدماء الصادقيّة نشاطه سنة 1929 بإضافة عناصر جديدة من الشباب الزيتوني والمدرسي وتنظيم سلسلة من المحاضرات الاعتراضيّة في كل أسبوع، رأت الجمعيّة الخلدونيّة في السنة الموالية إثر نجاح عمل القدماء أن تحدث هي بدورها مجمعا أدبيّا يقوم بإلقاء سلسلة من المحاضرات في كلّ أسبوع، ورأى المجلس الإداري للخلدونيّة وعلى رأسه زميل الراحل المرحوم عبد الرحمان الكعّاك أنّ أنجع وسيلة لنجاح تنفيذ برنامج المجمع هي انتخاب أكبر شخصيّة أدبيّة في البلاد التونسيّة للقيام بهذا العمل الأدبي الجبّار، والشخصيّة الوحيدة التي لا ينضب لها معين هي شخصيّة المرحوم الكبادي، وهذا ما تمّ تنفيذه فعلا حيث ألقى سلسلة من المحاضرات في القاعة الكبرى بالجمعيّة الخلدونيّة دامت ثلاثة أعوام، تحدّث في عامها الأوّل الذي هو عام 1930 عن الأدب العربي في عهوده المختلفة وفي سنة 1931 عن الأدب في المغربين الأوسط والأدنى والأندلسي وفي سنة 1932 تحدّث عن الأدب التونسي في مختلف عصوره الإسلاميّة، وقد وفق الله أحد تلامذة الشيخ ومريديه وهو صديقنا السيّد جلول إدريس فكان يستمع إلى هاته المحاضرات ويدوّن عنها مذكرات نشر أكثرها بجريدة النهضة في تلك السنوات.

المعهـد الرّشيدي

وعندما تأسّس المعهد الرّشيدي للموسيقى كان في مقدّمة برامجه التي أعدّها لخدمة الموسيقى بالبلاد التونسيّة جمع شتات الأغاني التونسيّة القديمة والحديثة وتدوين نوبات المالوف، وبعد أن تمّ جمع هذا التراث بمختلف الطرق عيّن المعهد الرّشيدي لجنة لتهذيب وإصلاح الأغاني القديمة قبل أن تسجّل بالترقيم الموسيقي وذلك ليكون هذا التسجيل عملا يتماشى مع الغاية التي من أجلها أسّس المعهد، وهاته اللجنة عهدت إليها مأموريّة أخرى وهي النظر فيما يقدّم من الأغاني الحديثة إلى المعهد لإبداء رأيها فيها فما أقرّته من الأغاني القديمة والحديثة يقدّم إلى الترقيم الموسيقي، وكان على المعهد أيضا أن يبحث عمّن تتوفر فيه الكفاءة لرئاسة هاته اللجنة التي دعيت باللجنة الأدبيّة، وهل غير شيخ الأدباء بحقّ الأحقّ بهذا المنصب، قبل الشيخ رئاسة هاته اللجنة التي دام عملها عشرات السنين ودفتر محاضر جلسات اللجنة الأدبيّة المحفوظ بمكتبة المعهد الرّشيدي أكبر شاهد على المجهود العظيم الذي بذله شيخ الأدباء لخدمة الموسيقى التونسيّة، ومن إنصاف هاته اللجنة أنّها لم تقبل من الأغاني العصريّة التي قدّمها رئيسها إلا أغنية واحدة وهي أغنية (أمّ الحسن غنّات فوق الشجرة) التي تغنّيها المرحومة صليحة.

وبهاته المناسبة وإنصافا للتاريخ أقول إنّ أكثر إن لم أقل كلّ المهرجانات الأدبيّة التي كان يقوم بها المعهد الرّشيدي تسند رئاستها عن جدارة لشيخ الأدباء وأذكر من بينها أربعينيّة المرحوم الشاعر المبرور محمّد الشاذلي خزندار.

الدفـاع عن المسرح

كان لزاما علينا عندما أسّسنا لجنة للدفاع عن المسرح التونسي يوم 27 ديسمبر 1944 أن تسند رئاستها لشيخ

الجيل على الإطلاق شيخ الأدباء، ليكون رائدنا في عملنا الذي عقدنا العزم على القيام به هو خدمة المسرح التونسي وإنقاذه من الإشراف على هاوية الفناء، وشيخنا هو الذي افتتح سلسلة المحاضرات التي قرّرت اللجنة القيام بها واختار لذلك موضوعا شيّقا وهو (التمثيل في اللغة العربيّة) وألقى محاضرة يوم 24 نوفمبر 1945، وكان من ضمن برنامج اللجنة القيام برحلات إلى المدن التونسيّة والتعرّف إلى الأوساط الفنيّة والأدبيّة وقد رأت اللجنة أن يكون رئيسها في مقدّمة قوافلها التي ترسلها في كلّ أسبوع إلى مدينة من المدن التونسيّة ليتمكن أهلها من الإستفادة من أدبه وفضله والتعرّف إلى مكارم أخلاقه والجلوس في مجالسه ولو لبضع ساعات، وأذكر بهاته المناسبة وقد كان لي شرف تدوين محاضر جلسات اللجنة أنّ بعض القوافل التي كان لا يقلّ عدد المساهمين فيها عن الخمسين كانت تنقلب إلى مظاهرات أدبيّة يتبارى فيها الأدباء والشعراء بإلقاء المنظوم والمنثور والمرتجل فمن ذلك الرحلة التي قامت بها اللجنة إلى بلدة دقة العتيقة، فزيادة عن المحاضرات التي قام بها الزميلان الكعّاك والزمرلي على عين مسرح دقة وفوق درجاته عن تاريخ التمثيل وتاريخ المسارح، أقيمت مظاهرة أدبيّة ساهم فيها الكثير من الحاضرين أذكر من بينهم أبو الحسن ابن شعبان الذي كان يلقبه شيخ الأدباء بالشاب الظريف ونشرت جريدة الأسبوع وصفا لهذا المهرجان وبعض القطع الشعرية التي قيلت فيه.

وأذكر بهاته المناسبة أنّنا قبل انتقالنا إلى دقة مررنا بمدينة تستور وفيها ذهبنا إلى الدار التي اشتراها لياهو ميمون للممثلة الشهيرة حبيبة مسيكة التي أحرقها بالنار لياهو المذكور فقد حدّثنا الشيخ عن رأيه في تلك الممثلة وعن نشأة الفنّ التمثيلي ومساهمة العنصر النسائي فيه في فجره.

في الإذاعــة

كانت الاتصالات بين شيخ الأدباء وبعض تلاميذه وثيقة جدّا ومن بين هؤلاء صديقنا الأستاذ عثمان الكعّاك الذي تعرّف بالشيخ منذ سنة 1926 أيّام تسميته كاتبا لمدرسة اللغة والآداب العربيّة واستمرّت صحبته إيّاه إلى العهد الأخير من حياة الشيخ أي إلى شهر رمضان المنصرم عندما جاء إلى دار الشيخ مصحوبا بالمستشرق الإيطالي الكبير رتزتانو[4] أستاذ الأدب العربي بالجامعة المصريّة سابقا وأستاذه الآن بجامعة باليرم بإيطاليا ليتعرّف هذا المستشرق على شيخ الأدباء الذي عرفه عالم الاستشراق منذ عهد قديم يقارب النصف قرن.

أدّت علاقة الأبوّة والبنوّة الأدبيّة التي تكوّنت بين الشيخ الكبادي والأستاذ الكعّاك إلى ارتباط متين انجرّ عنه أنّ كلّ عمل يناط بعهدة هذا الأخير يستعين فيه بشيخه وأستاذه الكبادي.

وهذا ما حدث فعلا في كثير من المناسبات نذكر من بينها أنّ الأستاذ الكعّاك عندما سمّي كاتبا عاما للإذاعة التونسيّة سنة 1938 وضع في الإطار الأدبي الذي اختاره للقيام بهذه المهمّة شيخ الأدباء ليكون من المحاضرين أسبوعيّا في تلك المحطة.

ومنذ ذلك العهد بدأ الناس يستمعون إلى محاضراته المتنوّعة الشيّقة التي كان يلقيها بنفسه عندما كان قادرا على التنقل ثم أصبح يلقيها بالنيابة عنه من تختارهم محطة الإذاعة من مذيعيها إلى أن أصبحت المحطة تملك سيّارة تسجيل فكانت هاته السيّارة تنتقل إلى محلّ الشيخ ومعها الفنيون لتسجيل المجالس الأدبيّة التي كانت تنعقد بدار الشيخ في كل أسبوع ويحضرها بعض الأدباء وأهل الفنّ ممّا لا يزال عالقا بأذهان بعض المستمعين.

مجالســه الأدبيّــة

وبهاته المناسبة نذكر أنّ الشيخ الكبادي كان مبذرا (إن صح هذا التعبير) تبذيرا فاحشا للأدب العربي فقد كان يبثه في

مختلف الأوساط أينما حلّ وارتحل. ففي الحومة أو الحيّ الذي كان يسكنه وهو في باب المنارة اتخذ عدّة محلات للجلوس مع أصدقائه وتلاميذه وأوّل هاته المحلات العلوّ الذي كان في أوّل نهج الزواوي وهو مقرّ إدارة جريدة النهضة التي تحدّثنا عنها ودكان الحلاق السيّد محمّد بن سليمان الذي كان من ملازمي صحبته فيه الشيخ الحطاب بوشناق العالم التونسي المشهور ومقهى باب المنارة المواجه لمقرّ كتابة الدولة للدفاع الوطني وكان بها ناد خاصّ بالشيخ وكانت مجلة المباحث تحدّثت عن هذا النادي في مقال عنوانه "البانكة العريانة" مصحوبا بصور هزليّة بريشة الفنّان التونسي المرحوم الدكتور الحبيب زويتن. وكان له مجلس خاص بمقهى الهناء في نفس الحيّ يؤمّه الطلبة والأدباء والظرفاء هنا أقول إنّ مجالس الشيخ كانت لا تخلو من ظريف يحليها بنكتة أو ملحة وكان لهؤلاء الظرفاء لباس خاص يمتازون به عن غيرهم ومن بين هؤلاء المرحوم الصّادق بوعبلة شهر(صديق).

شمائله

للشيخ شمائل قلّ أن يجود بها الدهر على بني الإنسان فُقد ضرب المثل الأعلى في السماحة والكرم وحسن الخلق، لم أتذكر طيلة صحبتي للشيخ أنّني رأيته مرّة غير مبتسم اللهم إلا في مرضه الأخير الذي أقعده سنوات في الفراش فقد كان انبساطه معتدلا رغم نكد الدهر وتفرّق الأحبّة وابتعاد الخلان ولعلّ ذلك هو الذي حمله على قول:

قرن عشرين قرن أهل القرون
والسخافات والشقا والجنون

وقوله:

الكفر والجهل والرقاعة
ذاك الفخار وذي البضاعة

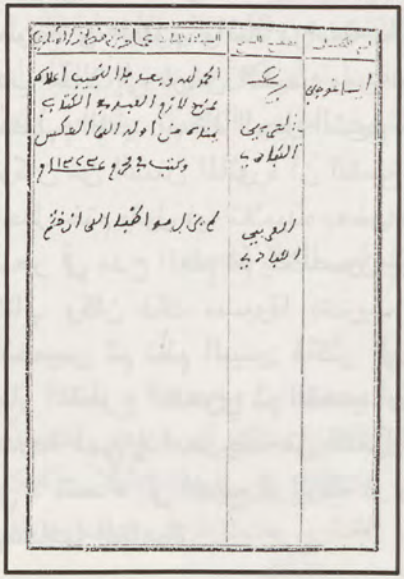
* "العمل" بتاريخ 24 فيفري 1961.

1) عنه انظر "تاريخ الصحافة العربيّة التونسيّة" لمحمد الصالح المهيدي، نشر دار نقوش عربيّة، تونس 2010، ص 86.

2) خطأ من المهيدي لأن رشيد مصوبع ساهم في تحرير الرشدية التي ظهرت واحتجبت في العشر سنوات الأولى من القرن العشرين في حين صدرت واحتجبت البصيرة فيما بين سنتي 1893 و1897 أي قبل قدومه إلى تونس في بدايات القرن المشار إليه.

3) عنه انظر دراسة لنا منشورة في مجلة "رحاب المعرفة" السنة 10، العدد 95، ص 15-31.

4) كتب اسم هذا المستشرق في الأصل كما يلي (جيزينانو) وقد أصلحناه استنادا إلى مقال فريد غازي عن الشيخ العربي الكبادي المنشور في مجلة الفكر السنة 6 العدد 8 بتاريخ ماي 1961، ص 72. وأمبرتو رتزتانو Umberto Rizzitano مستشرق تعلم العربيّة في مصر وإيطاليا وانتدب أستاذا في جامعة عين شمس ثم في جامعة بالرمو، ترك العديد من الدراسات، عنه انظر "المستشرقون" لنجيب العقيقي 401/1، دار المعارف بمصر 1964 وجريدة الصباح بتاريخ 10 و22 أفريل 1975.



صفحة من دفتر شهادات جدّنا للأمّ عمّار بن رمضان الشّابي عليها ملاحظة شيخه محمد العربي الكبادي



الشيخ حمودة القصار*

(1873 ـ 1961)

يقول مثل قديم إنّ أكبر عدوّ للشيوخ هو فصل الشتاء لأنّه يقرّبهم من الموت، وقد رأينا في شتاء هذا العام بعض من تقدّمت بهم السنّ يلبّون داعي ربّهم، ومن بين هؤلاء المرحوم الشيخ حمودة بن الشيخ محمّد القصّار المولود بتونس خلال سنة 1290هـ/1873م، كان أبوه قاضيا بتونس ومدرّسا بجامع الزيتونة وأحد أعضاء هيئة كبار العلماء (النظارة العلميّة) وبحكم هذا الوضع رسّم الأب ابنه بكتاب العزّافين بالقرب من مسقط رأسه ثم أرسله إلى جامع الزيتونة حيث أحرز على التطويع في العلوم. وأثناء دراسته بالزيتونة كان شغوفا بحبّ الأدب ميّالا إلى قرض الشعر ومن بين الأدباء الشيوخ الذين تتلمذ لهم الفقيد أستاذ الجيل الشيخ سالم بوحاجب.

وكان من السنن المأثورة أنّ الشيخ إذا أتمّ درس كتاب يقام له حفل ختم يقول فيه تلاميذه بعض ما جادت به قرائحهم من الشعر في مدح العلم ثمّ يتخلصون إلى مدح الشيخ الذي ختم الكتاب وكان ذلك مسبوقا بتدريب التلاميذ على التشطير والتخميس ثم نظم البيتين فأكثر إلى أن يتدرّب الطالب على إنجاز المقطوع الشعري ثم القصيد وكانت الأغراض الشعريّة محدودة فهي إذا خرجت عن التغزّل المصنوع صناعة لفظيّة فهي لا تتعدّاه إلى المديح أو الرثاء أو وصف جمال جسم المرأة وأوصافها الظاهرة.

الاتصـالات العائليّـة

كان لعائلة القصّار اتصال وثيق بعائلة ابن محمود فعميدا العائلتين الشيخ محمّد القصّار والشيخ محمود بن محمود قاضيان بتونس أوّلهما مالكي والآخر حنفي وكان يسمّى بالأفندي وهي كلمة تركيّة تطلق على الحاكم الشرعي الذي ترسل به دار الخلافة العثمانيّة إلى الأقطار التابعة لها في السلطة الروحيّة ومن بينها تونس، كانت عائلة القصّار تقضي مصيفها بجبل المنار وعائلة ابن محمود تقضيه ببلدة رادس، وكان الفقيد وهو في شبابه يقضي المصيف بجبل المنار مع أبناء الذوات التي كانت تسكن هناك أمثال عائلات زرّوق وثامر والبلهوان والعروسي وكان يروقه قضاء ساعات اللهو واللعب مع أترابه هناك، لكن والده يذهب به إلى دار صديقه وزميله الشيخ محمود بن محمود برادس وهناك لا يجد الفقيد مع من يلهو ويلعب إلى أن أفضى به الحال في يوم من الأيّام إلى نظم قصيدة يذمّ بها رادس منها هذا البيت:

رادس يا مـأوى الذئـاب
قبّحـت يا أرض العـــذاب

واستمرّت العلاقة بين العائلتين من الآباء إلى الأحفاد ذلك أنّ الشيخ محمود بن محمود عندما توفي كان من بين من رثاه ابن الفقيد الشاعر المعروف الشيخ الطاهر القصّار بقصيد يقول في طالعه:

عظمـت رزيّة قطـرنا المنكود
بوفـاة نبـراس العلا محمود

وفي تأريخها يقـول:

إذ جاء في تاريخه يا باريا
أحسن ثوا محمود بن محمود

لم يسلك الفقيد المسلك الذي سلكه أبوه وهو التصدّي للتعليم والتدريس بالزيتونة والتطلع إلى الخطط الشرعيّة كما فعل أبوه بل فضّل العمل الإداري فانخرط في سلك موظفي

القسم الأوّل من الوزارة الكبرى واكتفى من الخطط الشرعيّة بخطة العدالة يباشرها في تونس.

في القسم الأوّل زامل جمعا من أبناء الذوات ومن بين هؤلاء المشائخ محمّد جعفر ومصطفى المسعودي وأحمد جعيّط وعبد العزيز بن شعبان وكان الوزير الأكبر في ذلك العهد هو السيّد خليل بوحاجب. نعم إنّ الفقيد كان له أمل في الحصول على خطة مزوال[1] بجامع الزيتونة وهي خطة موقوف عليها أوقاف ذات دخل وافر وتعلقت همّته بالتحصيل على ذلك إلى أن تمّ له الفوز بها في آخر عهده بالوظيف، ارتقى في السلك الإداري إلى أن وصل درجة كاتب بنك - منشئ - وهي من الخطط المرموقة في تلك الوزارة. كثير الجلوس في المقاهي الفاخرة بتونس كمقهى الروتوند بقلب الحيّ الأوروبي في الكوليزي.

كان جميل الصورة أنيق اللباس أكثر ما يشاهد وهو جالس في المقهى يرى بيده القلم والقرطاس وهو يدوّن خواطره. وقد ألف هذه الحالة من عهد شبابه حتى أنّه كان إذا حضره خاطر شعري سجّله على أقرب شيء إليه ولو على باب بيت سكناه حتى لا يضيع عنه الخاطر.

الفقيد الفنّان

كان محبّا للفنون الجميلة وعلى الأخصّ الموسيقى فقد كان يحسن التوقيع على البيانو وعلى الكمنجة وكثيرا ما يشاهد وهو جالس في مقصورة سقيف محلّ سكناه بنهج العزّافين منكبّا في خلواته مع بعض أصدقائه على التوقيع على الكمنجة ينشد الشعر القديم التلحين وقد يخترع له بعض التلاحين.

شعره

جلست إليه في أخريات أيّام حياته وأسمعني شيئا من أدبه الذي كان ينظمه في بعض المناسبات فمن ذلك قوله وهو من غراميّاته:

سايرتها وهي عجلى في شواغبها
يرتجّ ما بين أعلاها وأدناهـــا
وكلّما استلفتت أنظارها تحف
من المغازات ألــفتني بحــذواهــا
حتى إذا اتضح الإشكال واقتنعت
بذي الظواهر مني لان قـــسواهـا
هامت وهام بها قلبي فقلت لها
بعد التحيّة إنّ القلب يهـواهـــا
فعندما طرقت أسماعها نغم
بذي الحديث زها منها محـــياهـا
فلم تفكر طويلا في تمنعها
ومثلها ليس يخفى عنه مـــعناهـا
فناولتني الرضا منها عواطفها
وضمّني في فراش الوصل عطفاهـا
ومن غزليّاته قوله:
تدرّعت السواد فأبصرتنا
سواد حظوظنا دون اقتـناهـــا
وزادت إذ تدرّعت احمرارا
ترينا دماءنا دون اجتـناهـــا
وأوترت الحواجب قوس رام
وفوّقت اللواحظ في انـــتضاها
فمن أين السبيل إلى (نجاة)
وضاق عن النجاة بـها لـظاهـــا
وقال يصف غادة فوق فلك بشاطئ الكرم:
قامت على فلكها في شاطئ (الكرم)
ليلا تنير بوجه ظلمة الحـــلك
فحار فكري أكان البدر مطلعه
في قبّة الفلك أم من قبّة الفـلك

وقد رمت بشراك اللّحظ في لجج
تصيد لهوا فيا لله من شرك
قد فكك الحوت عنه الأسر من بله
وما لأنياط قلبي عنه من فكك

وقال في قصر خيرالدّين عندما سكنه شيخ الإسلام أحمد بيرم وزاره هناك:

قصر تسامى قصر شيخ الدّين
لا ما تسمّى قصر خـيرالدّيـــن
قد كنت أسمع عن فخامته
وكم بين السماع وبين رأي العـين

وقال مضمّنا سورة من القرآن الكريم (إذا جاء نصر الله والفتح) :

إذا جاء نصر الله والفتح والهنا
ترى الناس أفواجا عليه وأسرابا
فسبّح بحمد الله واستغفر له
فقد كان غفار الذنـوب وتـوابا

---

* "الصباح" بتاريخ 2 فيفري 1961، انظر له أبياتا منشورة في العدد 513 من جريدة الحاضرة بتاريخ 13 سبتمبر 1898. لايفوتنا أن نتوجّه بالشكر إلى حفيدة المترجم له السيّدة فاطمة شهرت سيّدة بنت الطيب القصّار حرم محمّد عمارة على تفضلها بمدّنا بصورتين لجدها رحمه الله.

1) هو الشخص الذي يخرج الإمام من المقصورة إلى بيت الصلاة.



الشيخ سالم بن حميدة*

(1882 ـ 1961)

الـولادة

في مدينة أكودة البعيدة عن مدينة سوسة عاصمة الساحل التونسي ببضعة أميال ولد المرحوم الشيخ سالم بن حميدة خلال سنة 1882 وبها حفظ القرآن.

التعلـّم

اختار له أبوه بعد حفظ القرآن التعليم الزيتوني فأرسله إلى تونس ليلتحق بجامع الزيتونة أوّلا وبعد نحو ثلاثة أعوام انتقل إلى المدرسة التأديبيّة وهي مدرسة لتخريج معلمين للمدارس الابتدائيّة العربيّة الفرنسيّة.

استمرّ في التعلم بالتأديبيّة مدّة ثلاثة أعوام حصل إثرها على شهادة التخرّج. ولم يقف عند هذا الحدّ من الثقافة لأنّه رأى أنّ المعلومات التي تلقاها غير كافية لإرضاء تشوّفه للمعرفة.

العـــودة

عاد إلى الزيتونة لإشباع نهمه الثقافي فتابع التعليم بها إلى أن أحرز على شهادة التطويع[1].

العمـــل

لم يفكر في العمل إثر التخرّج من الزيتونة بل انتصب بها للتعليم مدّة عامين لاقى فيهما ما يلاقيه كل شابّ مفكر من سوء

المعاملة ليس من طرف الإدارة الزيتونيّة فقط بل حتى من زملائه وبعض التلاميذ المزاولين للتعليم هناك.

واضطرّ إزاء هذا الموقف الذي وقفه ضدّه الشيوخ وبعض التلاميذ إلى مفارقة الزيتونة واستعمل إجازة المدرسة التأديبيّة فانتصب للتعليم ببعض المدارس الابتدائيّة التابعة للحكومة التونسيّة.

الأحـــداث

نشأة الشيخ سالم الأولى كانت نشأة تحرّر من القيود التي كانت تحيط بزملائه الزيتونيّين سواء عندما كان بالزيتونة أو معلما بمدارس الحكومة، لأنّه كان ميّالا إلى مطالعة الكتب الحديثة التي وصلت إلى تونس في ذلك العهد ولها اتصال بحريّة الفكر سواء في الميدان الأدبي أو الاجتماعي.

روح التحرّر في القـرآن

حدث في تونس حدث هام في تاريخ حرّية الفكر بالبلاد التونسيّة كان الأوّل من نوعه اهتزّت له الأوساط الحكوميّة والشعبيّة وأحدث رجّة لا نظير لها، هذا الحدث هو صدور كتاب ألفه المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي موضوعه مدى حريّة الفكر التي وردت في القرآن بالنسبة لتعاليم الدين الإسلامي، وكيف قصر الفقهاء وبعض المفسّرين في فهمها واقتصروا على نقل آراء من سبقهم في التفسير وشرح معاني القرآن؟، ونقل هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسيّة بواسطة السيّدين الهادي السبعي والمحامي بن عطار، ووزّع في المشرق والمغرب وقابله الرجعيّون بضجّة كبرى.

هذا الحادث كان له الأثر البعيد في نفس المرحوم سالم بن حميدة فنظم قصيدا مجّد فيه هذا الموقف، امتنعت كلّ الصحف في ذلك العهد عن نشره وقد تمكنّا من الحصول على نسخة منه بخط المرحوم سننشرها في عدد مقبل[2].

استطاع المرحوم أن يصمد في وجه الرجعيّة وأن يتابع المنهج الذي اختاره وهو مسايرة حركة التحرير الفكري والاجتماعي مسايرة فيها شيء من التؤدة لكن لا على معنى التخلف أو الخوف الذي قضى على كثير من الشباب المتطلع للحريّة ووجد أمامه عقبات واصطدم بالاضطهادات الإداريّة والشعبيّة.

خطوة جديدة

حُدث في سنة 1909 حادث هامّ بالجزائر كان نتيجة للأمر الذي أصدره وزير الداخلية بفرنسا (كريمي) حيث رخص لجميع الإسرائيليّين الجزائريّين حقّ اكتساب الجنسيّة الفرنسيّة مرّة واحدة ليتمتعوا بجميع الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيّون بالجزائر، هذا الحادث كان له صداه بتونس حيث طالب الإسرائيليّون هنا بالتمتع بهذا الحقّ عن طريق بعض غلاتهم وكان هذا الطلب مبعثا لقيام حركة مقاومة من طرف المسلمين التونسيّين لأنّ انضمام كلّ الإسرائيليّين التونسيّين إلى الجنسيّة الفرنسيّة من شأنه أن يحدث عواقب سيّئة بتونس.

المظاهرة والخطاب

نظم المسلمون التونسيّون اجتماعا بالباماريوم لمناقشة الفكرة، فكرة الالتحاق الجماعي وأشاروا على الباي الناصر في ذلك العهد بعدم المصادقة على أيّ قانون يقدّم له في هاته القضيّة، وكان من بين خطباء ذلك الاجتماع المرحوم سالم بن حميدة بحيث ساهم أوّلا في المظاهرة ثم كان ثانيا من خطباء الاجتماع في حين أنّه كان معلما بإحدى المدارس الحكوميّة، لم يراع الفقيد حرمة الوظيف الإداري الذي كان يشغله بل راعى إرضاء ضميره الوطني عندما ما قام خطيبا وسط الجماهير المتحمّسة لقضيّة الانسلاخ عن الجنسيّة التونسيّة والالتحاق بجنسيّة دولة محتلة تريد الإكثار من سواد رعيّتها حتى تتمّ لها السيطرة على تونس.

الجـزاء

وكان من الطبيعي أن تقف الحكومة موقف المناهضة للفقيد فأبعدته عن التعليم من مدارسها وتقبّل الفقيد هذا القرار بصدر رحب لأنّه كان يعتقد أنّ قيامه بواجبه الوطني أفضل من مراعاة مصلحته الشخصيّة.

نشـاط جديد

لم يقف الفقيد مكتوف اليدين إزاء حادث إبعاده عن عمله الإداري بل إنّه لبّى نداء الجمعيّة الخيريّة الموجّه إليه من طرف رئيسها للالتحاق بمدرستها العرفانيّة لأنّها رأت فيه الرجل لا ضحيّة الواجب الوطني فقط بل الكفء الذي يستطيع أداء رسالته الثقافيّة حقّ الأداء فلبّى الطلب وقام بهذا العمل أحسن قيام.

وجد الفقيد المجال أمامه فسيحا وكان يعتقد أنّه في استطاعته متابعة رسالته الثقافيّة في هذه المدرسة ولكنّ الأحداث التي توالت على تونس بين عامي 1910 و1914 وأهمّها قضايا الزلاج واحتلال ليبيا من طرف إيطاليا والمغرب من طرف فرنسا والحرب العالميّة، هذه القضايا جعلته مجبرا على خوض غمارها والمساهمة فيها مساهمة فعّالة بمتابعة عمله الثقافي والشعبي في المدرسة والمجتمع يخطب تارة وينظم الشعر الملتهب حماسا تارة أخرى.

الأثـــر

بمراجعة الصحف الوطنيّة التي كانت تصدر في تلك الفترة كالتقدّم والصواب والمرشد ومرشد الأمّة وغيرها نطالع كثيرا من الشعر الذي يمضى تارة باسمه الصريح وأخرى بالحرفين الأوّلين من اسمه ولقبه (س . ح) من ذلك القصيد الذي عنوانه (الإنسانيّة) المنشور بالعدد 56 من جريدة مرشد الأمّة.

السكـوت الجبري

اندلعت الحرب العالميّة الأولى سنة 1914 والفقيد في قوّة شبابه يعمل في ميدان الثقافة ولكنّ أحداث الحرب التي كان من أبرز آثارها تعطيل جميع الصحف وتحجير الاجتماعات اضطرّت الفقيد إلى الرحيل من العاصمة إلى سوسة ليباشر فيها عمله الثقافي في مدرستها الحرّة التريكيّة بدل عرفانيّة تونس، لكن كيف يمكن له أن يقوم بعمله والجوّ مكفهرّ والرقابة مفروضة على دروسه واجتماعاته وتصرّفاته لأنّ خطره في نظر ذلك الجيل كان يتجاوز الميدان الاعتيادي الذي كان يعيشه زملاؤه في تلك المدرسة.

استـقـالة

نظرا للمضايقات التي كان يلقاها والتهم التي أصبحت تكال له قرّر الاستقالة من عمله الثقافي ومباشرة العمل الإداري بنيابة الأوقاف بسوسة ليكون قريبا من مسقط رأسه أكودة حيث استمرّ فيه إلى أن أحيل على المعاش.

العمل التـحـريري

واكب الفقيد العمل التحريري عندما كان يشغل خطة إداريّة بنيابة الأوقاف بسوسة مدّة عمله بها ونشير هنا إلى أهمّ الأحداث التي جرت في ذلك العهد.

تحـرير المرأة

كانت قضيّة تحرير المرأة التونسيّة من العبوديّة والرقّ الذي تعيش فيه في مقدّمة القضايا التي اهتمّ بها الفقيد. فقد ضرب أوّلا المثل بالرجل الذي يقول ويعمل معا حيث أرسل ببناته إلى المدارس النظاميّة حتى تخرّجن فيها أحسن تخرّج، ومنهنّ اليوم من تزين مناصب التعليم في المدارس الثانويّة ومنهنّ كرائم العقيلات التونسيّة الماجدة، ثم استمرّ في جهاده

اللساني والقلمي في هذا الميدان لأنّه أدرك ككلّ المفكرين الذين ناصروا قضيّة تحرير المرأة بأنّ المجتمع التونسي يجب، في سير نهضته القوميّة، أن يمشي على رجلين هما الرجل والمرأة، ذلك أنّ الشعب الذي يعتمد في نهضته على الرجل فقط هو بمنزلة من يمشي على رجل واحدة.

كتاب امرأتنا

وحدث في عام 1930 أن نشر المرحوم الشيخ الطاهر الحدّاد كتابه "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" وقامت حول هذا الكتاب الضجّة الكبرى التي لم تقم حول غيره من الكتب، وتعاون على مناهضة المؤلف وأنصاره الاستعماريّون وأعوانهم من دعاة الرجعيّة ولكنّ تلك المناهضة وجدت من طرف أحرار الفكر ومن بينهم الفقيد الشيخ سالم بن حميدة ردّا قويّا وعزما صامدا لمناهضتها ومناصرة المؤلف لأنّ فكرة تحرير المرأة باتت الشغل الشاغل لكلّ مصلح اجتماعي في المشرق والمغرب، فالدعوة إليها ومناصرتها هي تحرير ومناصرة لقضيّة إنسانيّة عادلة لا تقوم نهضة أيّ شعب سواء كانت سياسيّة أو ثقافيّة أو اقتصاديّة إلا إذا كانت المرأة مساهمة للرجل في عمله التحرّري.

الحملة القلميّة

خاض الفقيد غمار الصحافة من جديد تارة باسمه الصريح وأخرى بأسماء مستعارة لا تدافع عن نفسه أو عن المرحوم الشيخ الطاهر الحدّاد ولكن عن تحرير المرأة التونسيّة الذي هو تحرير لتونس.

الزمان

كنت مسؤولا عن تحرير جريدة الزمان سنة 1932 وكانت الحملة ضدّ الكتاب ومؤلفه في عنفوانها وكانت جميع الصحف باستثناء العالم الأدبي والصواب ضدّ المؤلف وكان عليّ أن أنصر المؤلف وأن أجعل من الجريدة المسؤول عنها ميدانا لأصحاب الأقلام

الذين يناصرون المؤلف وكان الفقيد من الأنصار الذين جالوا وصالوا في الزمان ضدّ الرجعية ومناصريها مؤيّدا حريّة المرأة وبالتالي حريّة الفكر.

الشيخ الشاب

ومع أن التقدّم في السنّ قد أخذ جانبا من القوى البدنيّة للفقيد فإنّ قواه الفكريّة وإرادته التحريريّة لم يتسلط عليها الهرم رغم تقدّم السنّ فقد كان محط رحال الباحثين لكلّ من يريد معرفة الآراء الصحيحة الناضجة حول الفلسفة الاجتماعيّة، فلسفة الحياة، فلسفة الأمّة الناهضة التي تريد السموّ نحو الكمال المادي والأدبي.

والشيخ سالم الذي عرف بفيلسوف الساحل كان حقا من الفلاسفة الاجتماعيّين الذين كان لهم فضل كبير على النهضة الفكريّة والاجتماعيّة بالجمهوريّة التونسيّة،وهو ككلّ الفلاسفة الثوريّين كان لا يأبه بهندامه ولا بمظاهره الماديّة.

روح قويّة ثائرة في جسم غير متماسك خدم حريّة الفكر أكثر من نصف قرن ومات وهو قرير العين لأنّه شاهد نتيجة عمله المتواصل في الجيل الحاضر والجيل الصاعد.

فليرحمه الله ويجزه خير الجزاء.

---

* "الصباح" بتاريخ 18 ماي 1961، ترجم له كذلك الطيب بن عيسى في الصباح بتاريخ 14 ماي 1961 والصادق مازيغ في الفكر العدد التاسع من السنة السادسة في جوان 1961.

1) تحصّل على شهادة التطويع سنة 1907، انظر قائمة الناجحين في تلك السنة المنشورة بجريدة الصواب العدد 166 بتاريخ 19 جويلية 1907.

2) نشر القصيد في الصباح بتاريخ 2 جوان 1961.



الشيـــخ محمـد القلعي*

قاضي العلماء وعالم القضاة

(1881 ■ 1961)

عائلته وشبابه

ولد المرحوم الشيخ محمّد بن أحمد شهر (حميدة) القلعي في فجر القرن الرابع عشر هجري الحالي بمدينة تونس من عائلة أندلسيّة كانت وردت على تونس في الهجرة الأندلسيّة الأخيرة واستقرّت جوار شيخ المهاجرين وعميدهم الشيخ الرميمي في الحيّ المنسوب إليه بتونس ويعرف الآن بنهج حمام الرميمي. وكانت هذه العائلة تتعاطى صناعة الشاشيّة إلى عهد والد الفقيد أحمد القلعي الذي باشرها فوق الستين سنة من حياته التي قاربت القرن. تربّى الراحل الكريم في عائلة ماجدة محافظة وكان من الضروري أن ينخرط في سلك التعليم الزيتوني الذي كان قبلة أبناء العائلات.

في الزيتونـة

اجتمع في حلقات التعليم بزملاء كثيرين حَبَّب إليهم شيوخهم الأدب والانقطاع إلى تحصيل المعرفة أمثال الشيخ سالم بوحاجب والشيخ الصّادق صفر وغيرهما وكان من زملائه في الدراسة الأخوان محمود وصالح سليم ومحمود موسى وغيرهم.

صنـاعة الشعر

جرت العادة في التعليم الزيتوني أنّ الشيخ الذي يختم كتابا دراسيّا تقام له يوم الختم حفلة يتبارى فيها التلاميذ على إلقاء

منظومات شعريّة في مدحه، وتلك هي الخطوة الأولى في صناعة الشعر، وقد يغتنم التلاميذ فرصة إسناد بعض الخطط العلميّة كالتدريس في الزيتونة أو الإداريّة كالقضاء والإفتاء لإنشاد الشعر أمام شيوخهم بما تجود به قرائحهم. وعلى هذا المنهاج سار الشيخ محمّد القلعي إذ نطالع له في جريدة الحاضرة الصادرة يوم 15 مارس 1898 قصيدا هنّأ به شيخه المرحوم الصّادق صفر بمناسبة نجاحه في خطة تدريس بالزيتونة من الرتبة الثانية طالعه:

يا بلبل الافراح مالك لا تشدو
وقد زالت الأتراح وانتدب الرشد
وهبّ نسيم للبنفسج حامـلا
وصافح زهرا فانثنى وله ودّ

إلـى أن يقـول[1]:

هو الصادق الأسمى الزكيّ الذي غدت
مفاخره من دونها المنهل الورد
أصيـل كريـم مصقـع وسميـدع
همام نبيل فخره ما لـه عدّ
تقيّ نقيّ ماجـد ذو معالـم
له همّة من دونها الشمّ والنجد

التطـوّع بالإقـراء

كان والد الشيخ يرجو أن يكون ابنه في يوم من الأيّام مدرّسا في الزيتونة كما كان بعض أبناء عائلات الشواشيّة مدرّسين ومن بينهم المرحوم العلامة المجدّد المصلح الشيخ عثمان ابن الخوجة. لبّى الشيخ رغبة والده وانتصب للتعليم بالزيتونة متطوّعا ينتظر شغور خطة تدريس للمشاركة في مناظرتها وفعل مثل ذلك زميلاه الأخوان محمود وصالح سليم.

الميدان القضائي

كان للزيتونيّين ميدان قضائي ينتظرونه وينتظرهم خصوصا عند إنشاء المجالس العدليّة بالبلاد التونسيّة، وهذا الميدان لا يقلّ أهميّة عن التعليم في الزيتونة لأنّه يتطلب من الكفاءة العلميّة ما يتطلبه نفس التعليم كالفقه وأصوله والقضاء والتشريع، ثمّ إنّ عدد البقاع الخاصّة بالتدريس في الزيتونة كان محدودا وانتظار شغور التدريس يتطلب زمنا طويلا، أمّا الميدان القضائي فإنّه فسيح ويجد فيه المترشّح مجالا ليبرهن على مقدرته العلميّة خصوصا أنّه لم تكن لدى القضاة العدليّين في ذلك العهد مجلات تشريعيّة بل كان القضاة يعتمدون في أحكامهم على النصوص الفقهيّة وبعض الأوامر العليا.

اتجاه جديد

اتجه الفقيد إلى الميدان العدلي لا عن رغبة ولكن لظروف خاصّة وإلحاح من ذوي العلم والمعرفة لأنّ تجربة فتح المجالس العدليّة تعدّ تجربة عسيرة النجاح إذا لم يترشّح لها الأكفاء من الزيتونيّين وكان الرؤساء بمحكمتي الوزارة والدريبة هم أنفسهم من الزيتونة أمثال الشيخ حمودة تاج[2] وغيره.

لبّى الشيخ رغبة شيوخه وأصدقائه وانخرط في سلك الحكام النوّاب بالمجلس العدلي بالقيروان في جانفي سنة 1906 ومنها انتقل إلى سوسة وفيها سمّي حاكما رسميّا سنة 1907 ثم وقعت ترقيته إلى خطة رئاسة محكمة قفصة الابتدائيّة سنة 1913 ومنها انتقل رئيسا لمحكمة سوسة الابتدائيّة سنة 1915 ولمّا شغرت رئاسة محكمة الدريبة بتونس كما كانت تسمّى في ذلك العهد (محكمة تونس الابتدائيّة الآن) أسندت إلى كفاءته ولم تمض بضعة أعوام حتى رأيناه يتقلد رئاسة دائرة الاستئناف المدني لمحكمة الوزارة سنة 1920.

دائـرة التمييـز

لم تكن توجد بتونس محكمة لتعقيب الأحكام وإنّما كانت توجد بها دائرة تعرف بدائرة التمييز أحدثها قانون المرافعات المدنيّة سنة 1912 وهي تتركب من أعضاء دوائر محكمة الوزارة ويرأسها حاكم تونسي، ولما توفي الرئيس المرحوم محمّد بوسن قرّرت حكومة الحماية أن تسند رئاسة دائرة التعقيب إلى حاكم فرنسي من المحكمة الفرنسيّة بتونس اعتقادا منها أنّه لا يوجد من التونسيّين الأكفاء من يصلح لرئاسة تلك الدوائر، وترتب على هذا الحدث الاستعماري تعطيل في سير القضايا المعروضة على تلك الدائرة سببه أنّ ملفات القضايا كانت محرّرة باللغة العربيّة والحاكم الفرنسي الذي أسندت إليه رئاسة دائرة التمييز لا يحسن العربيّة فوجب والحالة كما ذكر ترجمة الملفات ليطلع عليها الرئيس الفرنسي.

ارتكاب أخفّ الضررين

لمّا كثر التذمّر من هذا الوضع الاستعماري الشاذ قرّر مدير العدليّة أن يكلف أحد الرؤساء في محكمة الوزارة بإعداد ملحوظات قرارات الدائرة باللغة العربيّة ثمّ تترجم تلك الملحوظات ليطلع عليها الحاكم الفرنسي ويبدي فيها رأيه ووقع الاختيار في أكثر ما يعرض على دائرة التمييز من القضايا على كفاءة المرحوم الشيخ محمّد القلعي ليحرّرها ويسدل الستار على هذا العمل القضائي وتصدر قرارات دائرة التمييز باسم الحاكم الفرنسي وكأنّه هو الذي حرّرها في حين قام حاكم تونسي بالعمل.

محكمـة التعقيـب

لمّا ضجر الشعب التونسي من هذا الوضع وطالب بإرجاع حقه المسلوب منه وهو إسناد رئاسة دائرة التمييز إلى تونسي، تمّ إصلاح هذا الوضع بإنشاء محكمة تعقيب تكون لها خصائص المحكمة وتسند إلى حكام قارّين يباشرون العمل فيها بانتظام ككلّ المحاكم الأخرى.

رضخت سلطة الحماية لهذا الطلب وأجابت النداء بفضل تضامن الشعب مع الهيئة العدليّة المناضلة وتأسّست المحكمة في سنة 1947 وسمّي الراحل الكريم رئيسا لها واختار أربعة من الحكام ليكونوا أعضاء قارّين في تلك المحكمة.

تخريج القضاة

في جميع الأدوار التي مرّت بالإصلاح القضائي بتونس بما في ذلك إنشاء دروس الحقوق التونسيّة سنة 1921 وإنشاء دروس العدالة سنة 1931، كان الفقيد مدرّسا لمادّة من أهمّ مواد التعليم في كليات الحقوق العصريّة وهي مادّة التشريع المقارن للفقه الإسلامي بالتشريع غير الإسلامي، وهي مادة تتطلب اتساع دائرة معلومات من يقوم بها وتخصّصه في الموضوع، باشر عمله في التعليم طيلة ثلاثين عاما كان خلالها رجل العمل المتواضع الذي لا ينضب معينه ولا يجفّ قلمه السيّال فيما يكتب أو يملي من دروس.

قراراته وأحكامه

تعدّ قرارات وأحكام الشيخ محمّد القلعي من أحسن المراجع في فقه القضاء التونسي لأنّها مبنيّة على أصول ثابتة قلما يتطرّق إليها الخلل، وسبحان من تنزّه عن الخطأ والنسيان، ذلك لأنّ الفقيد كان رائده فيما أنيط بعهدته من المهمّات هو الصالح العام ومصلحة المتقاضين قبل كلّ اعتبار آخر، ثم إنّه صاحب ضمير صناعي يحاول أن لا يترك المجال لغيره ليقول في شأن ما يقضي به نقدا أو قدحا.

شيخ العلماء

امتاز المرحوم الشيخ محمّد القلعي بما امتاز به السلف الصالح من شيم العلماء وأهمّها التواضع والاعتدال، وحبّ الخير، والصبر على المكروه مهما كان مصدره.

وحبّه للمعرفة مكنه من التحصيل على مكتبة عامرة بالكتب المخطوطة والمطبوعة ممّا يقلّ وجودها عند غيره.

إحالته على المعاش

ولمّا بلغ الشيخ سنّ الإحالة على الراحة أقيمت له حفلة تكريم مجّد فيها الخطباء فضله على القضاء وأهله.

مؤلفاته

يقول بعض من لهم اتصال بالفقيد الكريم أنّه أعدّ كتابا سمّاه "القانون المدني" شرح فيه نظريّة الالتزامات والعقود، وله رسائل أخرى في الخلق وأقسامه والنصبة[3] والمفتاح وغير ذلك زيادة على مجموع القرارات والأحكام التي أصدرها طيلة خمسين عاما باشر فيها القضاء.

اقتراح

ويا حبّذا لو تقوم كتابة الدولة للعدل وتتفق مع ورثة الراحل العظيم بطبع ما هو متأكد طبعه من تلك المؤلفات والمحرّرات ليعمّ نفعها أوّلا ولتسدّ الفراغ الموجود والمحسوس في التأليف القضائي التونسي ثانيا وهي بعملها هذا تسدي جميلا للثقافة القانونيّة ستذكرها لها الأجيال الصاعدة.

---

* "الصباح" بتاريخ 28 ديسمبر 1961. عنه في مجلة "القضاء والتشريع" العدد الأوّل السنة الرابعة في جانفي 1962، و"الأسبوع" ع74 في 31 أوت 1947، و"الصباح" بتاريخ 15 جوان 1954.

1) له قصيد آخر في جريدة الحاضرة منشور في العدد 565 بتاريخ 19 سبتمبر 1899.

2) هو أبو محمّد حمّودة بن محمّد تاج ولد خلال سنة 1854 وتوفي يوم 3 نوفمبر 1919 درس ودرّس في الزيتونة ثم انتقل إلى العمل في سلك العدليّة التونسيّة حتى صار رئيسا للمحكمة الجنائيّة، كلف بالتدريس في الخلدونيّة، كما أنّه من أقطاب الطريقة التجانيّة، نشر عددا من القصائد

في الحاضرة والزهرة والسعادة العظمى، عنه انظر شجرة النورالزكيّة وعنوان الأريب ومقال "الشيخ حمّودة تاج" لمحمّد المأمون النيفر في جريدة الزهرة في 15 أفريل 1938.

3) له دراسة عن النصبة منشورة في مجلة الثريّا العدد الثامن السنة الثانية في أوت 1945.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



محمد علي العنابي*

(1906 ـ 1962)

عائلة العنّابي

مضى على استيطان هذه العائلة مدينة رأس الجبل بولاية بنزرت ما يقارب المائة والخمسين عاما، فالمؤرّخ ابن أبي الضياف يحدّثنا في تاريخه بمناسبة الكلام عن دولة أحمد باشا الأوّل عن أحد أفراد هذه العائلة وهو العالم الفقيه الشيخ محمّد العنابي قاضي رأس الجبل سنة 1846 الذي التجأ إلى مقرّ السفارة البريطانيّة بالمكان وذلك عندما أخذ أمير لواء عسكر غار الملح صالح شيبوب ابني القاضي العنابي غصبا للخدمة بسراية غار الملح، ودعاه بما لا قبل له به وأخذ منه مالا فالتجأ لدفع الضرر بهذا الهروب كما يقول المؤرّخ، وقد كان أحمد باي لا يرى ولا يسمع فيما يجريه الحاكم العسكري لغار الملح نظرا لعنايته بهذا المرفإ الجديد الذي أراد أو قال له مهندسوه بأنّه سيكون أحسن مرفأ بالبحر الأبيض المتوسّط. فعائلة العنابي إذن عائلة عريقة في المعرفة وفي التطلع إلى الحريّة مهما غلا ثمنها وسنرى نماذج من هذا التطلع.

البشيـــر العنابي

والد الفقيد هو المرحوم البشير العنابي المولود برأس الجبل أيضا زاول تعليمه الأوّلي هناك ومنها انتقل إلى المدرسة الصادقيّة وبعد تخرّجه منها انخرط في سلك العمل الإداري فانتخبته الحكومة مترجما في المراقبات المدنيّة وتحدّثنا النزهة

الخيريّة أنه باشر هذه الخطة بمراقبة سوق الأربعاء سنة 1897 وآخر مراقبة مدنيّة باشر عمله بها هي مراقبة بنزرت. ثمّ تحوّل إلى بلديّة المكان ليقوم بمهمّة الكتابة العامّة بالبلديّة، ولكنّه لم يجد ما يرضيه فاستقال للخلاف بينه وبين الكاهية المفوّض للبلديّة الذي اشتهر بحبّ الهيمنة والسيطرة وعدم احترام التونسيّين مهما سما مكانهم في المجتمع.

وقد رغب منه أعيان الجهة أن يترشّح للنيابة عن الجهة بالمجلس الكبير سنة 1922 فنزل عند رغبتهم، وفي دورة سنة 1925 للمجلس المذكور انتخب كاهية لرئيس القسم التونسي به. وبرغبة من زملائه قدّم إلى سفير فرنسا في ذلك العهد لائحة تتضمّن إجراء عدّة إصلاحات في الميدان الإداري والاقتصادي رأتها جريدة الدبيش منافية لمهمّة النوّاب (الاستشاريّة) وعلقت عليها بعددها الصادر يوم 22 فيفري 1925 بما ليس هذا مكان شرحه فاضطرّ إلى الردّ عليها بمقال نشرته جريدة النهضة تحت عنوان إظهار حقيقة، والحقيقة التاريخيّة التي لا غبار عليها والتي يجب أن نعلنها هي أن الصحافة الاستعماريّة كانت تهاجم بعض الذوات التونسيّة ولو الموالية بعض الولاء للسياسة الفرنسيّة إذا رأت من تلك الذوات تطلعا إلى الحلول محلّ الفرنسيّين في أيّ ميدان اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي.

وفي قضيّة الحال نقول إنّ الذي حمل الدبيش على مهاجمة المرحوم البشير العنابي ليس هو العريضة المتحدّث عنها وإنّما هناك سبب آخر وهو أنّ كاهية القسم التونسي من المجلس الكبير قد اشترى مزرعة فلاحيّة كبرى تحتوي على الآلاف من أشجار الزيتون التي كانت ملكا لإحدى الشركات الأجنبيّة، فهذا العمل ينافي سياسة (قم لأجلس مكانك) التي سلكتها حكومة فرنسا بتونس.

محمّد علي العنابي

شاهد البشير العنابي الوضع السياسي إثر انتصاب الحماية الفرنسيّة على تونس عن كثب حيث كان ضمن موظفي الحماية

في سلكها الحسّاس وهو المراقبات المدنيّة التي تمثل السفارة الفرنسيّة بأنحاء البلاد التونسيّة وشاهد سياسة الميز، لذلك استقرّ رأيه على أن يثقف ابنه محمّد علي المولود ببنزرت في 15 ديسمبر 1906 ثقافة كاملة فمن المدرسة الابتدائيّة ببنزرت نقله داخليّا إلى المدرسة الصادقيّة بتونس وفيها أتمّ ما يدرس بها من العلوم وما يدرس بمدرسة ليسي كارنو وبالمدرسة العليا للغة والآداب العربيّة وأحرز على كلّ إجازات هذه المعاهد الثانويّة بتفوّق لِما اتصف به من الذكاء الحادّ والهدوء والرصانة وهي صفات قلما اجتمعت في غيره من أقرانه.

إلى باريـــس

كانت مدينة باريس هي محط رحال أبناء الذوات من البلاد التونسيّة لمتابعة تعليمهم العالي، وكان معظم هؤلاء يتابعون المحاماة والطبّ والصيدلة، أمّا الهندسة فعدد طلابها قليل جدّا ومثل ذلك التدريس والآداب على الأخصّ. ترك الوالد البشير لابنه محمّد علي حريّة الاختيار فيما يتابع من الدراسات واختار الإبن عند وصوله إلى باريس أيّ المعاهد يؤمّ وأخيرا صحّ عزمه على أن ينخرط في عدّة معاهد ليجرّب طاقته الذهنيّة.

كان رائده التحصيل على المعرفة لخدمة بلده أمّا ذاته فيكفيه ما عند والده من ثروة واسعة، جرّب طاقته فتابع تعليمه في معهد سان لوي حيث زاول العلوم الحسابيّة وبمدرسة البوليتكنيك قام بتحليل نظريّة لم يقع تحليلها من قبل تحليلا محكما، وانخرط أيضا في سلك تلامذة المدرسة القوميّة للمناجم وأتمّ ما فيها من المعارف في سنتين فقط، وفيها حلل مشكلة هامّة تتعلق بالمرونة والتمطط نالت إعجاب أساتذته واستحقّ من أجلها شكرهم، وفي السوربون تابع دراسة الآداب في كليّة الآداب وفيها أحرز على الليسانس، وفي كليّة العلوم والحساب أحرز أيضا على الليسانس ودخل المدرسة الحرّة للعلوم السياسيّة ودرس فيها

عاما واحدا أحرز في نهايته على دبلومها الذي يتسلمه الطلبة عادة بعد دراسة ثلاثة أعوام كاملة.

التدريس بالسوربون

لفت هذا النابغة الإفريقي أنظار كبار الأساتذة بباريس، وكان نبوغه حديث النوادي الأمر الذي قرّر بموجبه معهد السوربون في السنة الدراسيّة 32 . 33 أن يطالبه بإلقاء محاضرات في معاهد التاريخ والفلسفة والعلوم فكان له ما أراد واستجاب لرغبته.

الجنسيّة تحول

حاولت جامعة السوربون من الفقيد أن يتخلى عن جنسيّته التونسيّة لتسند إليه منصب تدريس العلوم النظريّة بها ولكنّه رفض ذلك بكلّ إباء قائلا إنّه تعلم لينفع بلاده لا لينتفع شخصيّا ولو بأسمى الوظائف في أعظم دولة من دول العالم.

المشاريع الطالبيّة

كان الفقيد وهو طالب بباريس ممتزجا مع رفاقه الطلبة لا يترفع عنهم ولا يجدون منه إلا كلّ مساعدة وظهر ذلك جليّا عندما تأسّست جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا سنة 1928 حيث ساهم في التأسيس وكان عضوا عاملا في مجلس إدارتها.

وقد تنبّه إلى ما تحتاجه البلاد التونسيّة من الإطارات الفنية في ميادين الهندسة والمعادن والميكانيك والكيمياء وغيرها ووجد نفسه التونسي الوحيد عندما كان بالمدرسة المركزيّة يتابع فيها تعليمه ووجد إلى جانبه تونسيّا فقط عندما كان بالمدرسة الوطنيّة للمناجم وهو المرحوم صالح بن صالح الذي مات شهيدا في الكونغو عندما رفضت الدولة التونسيّة استخدامه في إدارة الأشغال العامّة.

قام يحرّض الطلبة على الدخول إلى المدارس الفنيّة ونشر هذا التحريض في نشرة الجمعيّة في عامي 1928 . 1929.

العـودة إلى الوطــن

استكمل الفقيد معارفه في باريس وكانت مدرسة البوليتكنيك لا يقبل فيها إلا من كانت جنسيّته فرنسيّة لأنّ التخرّج فيها يقتضي التزام الطالب في ميدان من ميادين العمل الفرنسي. لكنّ والد الفقيد ذلل هذه الصعوبة حتى تمكن ابنه من متابعة التعليم بها فلمّا عاد إلى الوطن حدثت مشكلة بتونس وهي أنّ المهندس محمّد علي العنابي يحمل شهادات وإجازات علميّة لا يحملها حتى مدير إدارة الأشغال العامّة نفسه، وكان لا بدّ من فتح باب الوظائف الفنيّة العليا في الإدارات التونسيّة لمن أهّلته معارفه لتبوئ تلك المناصب وقامت الصحافة التونسيّة بضجّة كبرى في هذا الشأن، وتوجّهت إلى الفقيد وأنا المحرّر الأوّل لجريدة الزمان لأجري معه حديثا وتحصّلت على صورته ونشرت الحديث الزمان، وكان من نتائج تضامن الأمّة حول قضيّة إسناد الخطط الإداريّة العليا إلى التونسيّين متى توفرت الأسباب صدور الأمر المؤرّخ في 3 جويلية 1933 الذي نصّ على تشريك المثقفين التونسيّين في الوظائف السامية لكن طبق رغبة مديري الإدارات وحسب الشروط التي يرونها. قبلنا هذا الحلّ المؤقت وانخرط الفقيد في سلك موظفي إدارة الأشغال العامّة وسمّي مهندسا مساعدا لرئيس مصلحة المناجم بتلك الإدارة وفتح الباب للتونسيّين لأوّل مرّة من تاريخ انتصاب الحماية.

العمــل الجـبّار

لقد قلت وأكرّر القول بأنّ الفقيد عاد إلى الوطن ليبني له المستقبل الباسم والأمل المرجوّ وليجعل من شبابه روّاد معارف حقة لا طلاب رزق وأحلاف مصالح خاصّة وشخصيّة.

كانت جمعيّة قدماء الصادقيّة منذ تاريخ نشأتها إلى العهد الذي تولى فيه رئاستها وهو سنة 1934 تقتصر في عملها على إلقاء المحاضرات واقتبال الشخصيّات وإلقاء بعض الدروس التكميليّة لمن يريدون متابعة دروسهم العليا بفرنسا وكان لها

ناد واحد هو النادي الأدبي الذي كان عمله محليّا لم يتجاوز العاصمة إلا مرّة واحدة قام فيها برحلة إلى مدينة سوسة.

دعي الفقيد إلى رئاسة جمعيّة قدماء الصادقيّة وكان جديرا بهذا المنصب فلم يقتصر نشاطه كسابقيه على ما قدّمنا بل اتجه اتجاها بنّاءا لهذا الوطن وهو السعي في إعداد الإطارات الفنيّة للبلاد التونسيّة[1].

بنـي التصميم الذي مهّد به للوصول إلى هاته الغايـة على إنشاء النـوادي التالية:

أ ـ نادي البحوث الفلسفيّة والاجتماعيّة الذي ترأسه بنفسه ومن الموضوعات التي تولى بحثها هذا النادي، المعرفة، صلة الرّوح بالجسد، قوانين الصدفة، تأثير التطوّر الفكري على التطوّر الاقتصادي.

ب ـ نادي البحوث التشريعيّة والقانونيّة الذي ترأسه صديقنا الأستاذ الهاشمي السبعي ومن الموضوعات التي بحثها الإنسان والقانون، تطوّر القوانين.

ج ـ نادي البحوث في المسائل الاقتصاديّة الذي ترأسه المرحوم الطاهر صفر ومن موضوعات بحثه تطوّر المذاهب الاقتصاديّة، نظريّة التقدير... إلخ.

اجتماع نوادي البحوث

كانت نوادي البحوث تجتمع كلّ يوم إثنين للتفاوض في وضع برامجها وتنسيق العمل بينها دوريّا وكان أكثر من يحضرها الطلبة وبعض الموظفين والمفكرين وكانت الغاية من إنشاء هذه النوادي توجيه الفكر التونسي توجيها علميّا وفلسفيّا حتى تتجه الناشئة العلميّة إلى طلب المعرفة لذاتها ولخدمة الوطن.

مساعدة الطلبة

كانت في تونس جمعيّة تسمّى جمعية (أحبّاء الطلبة) وكانت الغاية التي قصدناها من تأسيس هذه الجمعيّة هي جمع

الإعانات والتبرّعات للطلبة الفقراء غير القادرين على متابعة تعليمهم خارج القطر التونسي.

وبفضل المساعي الحميدة التي قام بها رئيس الجمعيّة المرحوم الدكتور محمّد التلاتلي[2] أمكن لها الحصول على إعانة سنويّة من الميزان التونسي عن طريق المجلس الكبير لكنّ حالة الحصار وحلّ الجمعيّات الذي أعلن عنه إثر حوادث 9 أفريل 1938 عطلت سير ونشاط هذه الجمعيّة وتعذر تجديدها بعد الحرب الأخيرة فابتكر الفقيد طريقة جديدة لجمع الإعانات للطلبة باسم جمعيّة قدماء الصادقيّة وسمّي هذا الابتكار بـ:

نصف شهر الطالب

وقع الشروع فيه ابتداء من غرة مارس سنة 1946، وقد تمكن الراحل الكريم وهو من علمت من علوّ المنزلة في المجتمع التونسي من تذليل الصعوبات للوصول إلى هاته الغاية وذهب بنفسه إلى القصر الملكي وقابل الملك الأخير الأمين الأوّل وطلب منه فتح هذا الاكتتاب ليكون ذلك رمزا منه على المصادقة على الشروع في العمل، فتبرّع بمائة ألف فرنك في ذلك العهد (مائة دينار الآن) أما وزيره الأكبر فقد أصدر منشورا إلى العمّال ليساعدوا اللجان المحليّة المكلفة بجمع التبرّعات للطلبة باسم جمعيّة قدماء الصادقيّة لحثّ الشعب على الإقبال على التبرّع.

يوم العلم

أما في سنة 1947 فقد اتسع نطاق العمل الذي قامت به جمعيّة قدماء الصادقيّة تحت إشراف الفقيد وبمساعدة المنظمات القوميّة طبعت الجمعيّة بطاقات ثمن كلّ واحدة 50 فرنكا (مليما) وزّعت في سائر أنحاء البلاد التونسيّة. وتبرّع الباي بما تبرّع به في التي قبلها، أمّا الجمعيّات الرياضيّة التي تطوّعت بتسليم ما تجمّع لديها من الأموال في الحفلات التي

أقامتها لفائدة الحيّ الزيتوني فقد رضيت بأن تحوّل هذا المبلغ وقد فاق المليون فرنك (ألف دينار) إلى صندوق يوم العلم.

لم يكتف رئيس القدماء المغفور له بهذا النشاط بل إنّه وجّه نداء عاما إلى الأيمّة والخطباء بجوامع البلاد التونسيّة كلها على أن يجعلوا موضوع خطبهم الجمعيّة يوم 7 مارس 1947 مدّ يد المساعدة للطلبة التونسيّين الذين يطلبون العلم خارج أرض الوطن، ونشر هذا النداء في الصحافة التونسيّة الصادرة يوم 5 مارس 1947.

الإطارات الفنية

وكم كانت رغبة الفقيد ملحّة على الطلبة في أن يحصروا همّهم في متابعة العلوم الهندسيّة لا ليتعزّز جانبه هو بل لأنّ الفرنسيّين يتحدّثون عنّا بأنّنا ليس فينا الأكفاء للقيام بشؤوننا الإداريّة وعلى الأخصّ الفنية منها لو تخلوا هم عن القيام بها.

وكان هدفه الأعلى يرمي إلى تحطيم هذا الادعاء بكلّ الطرق يرشدنا إلى ذلك لا مقالاته ولاجمعه الأموال لفائدة المتغرّبين في طلب المعرفة بل كان بالمرصاد لكلّ بادرة تبدو من الإدارة الفرنسيّة لامتحان قدرتنا على القيام بما نطالب به، والدليل على ذلك أنّه عندما أعلنت إدارة الأشغال العامّة عن فتح مناظرة لانتخاب مهندسين معاونين بادر الفقيد وهو رئيس لجمعيّة قدماء الصادقيّة بالإعلان عن فتح دروس لإعداد الطلبة التونسيّين لاجتياز تلك المناظرة وأنّ تلك الدروس تعطى بمحلّ الجمعيّة الكائن بنهج دار الجلد عدد 13 بتونس ابتداء من يوم 25 ديسمبر 1946 وأنّ تلك الدروس تعطى مجانا بواسطة أساتذة أخصائيّين.

جمعيّة المهندسين والفنيين

شعر الفقيد وهو يقوم بهذا العبء الثقيل أنّه في حاجة إلى من يعمل معه في هذا الميدان وهو تكوين الإطارات الفنيّة

التونسيّة لتحتلّ المناصب الإداريّة وقت الحاجة فأسّس جمعيّة المهندسين والفنيّين وكانت الغاية الأولى من تأسيسها متابعة الرسالة التي بدأها الفقيد وهي تكوين الإطارات ثم التكتل لمجابهة القوات الاستعماريّة بالإدارات لافتكاك الوظائف من أيدي الفرنسيّين أصالة أو من تجنّسوا بالجنسيّة الفرنسيّة وكان عددهم كبيرا بجميع المصالح الإداريّة التابعة للأشغال العامّة والسكك الحديديّة وقيس الأراضي والإرصاد من إيطاليّين ومالطيّين وروسيّين وإسبانيّين وغيرهم، وقد لعبت هذه الجمعيّة دورا هامّا في الكفاح السياسي بما قام به أفرادها من أعمال كبرى أيّام الكفاح التحريري.

مضايقـات إداريّـة

لمّا شعرت حكومة الحماية بأنّ هذه الشخصيّة الفذة التي حازت مختلف أنواع المعرفة وأحرزت على مختلف الإجازات العلميّة في الفلسفة والأدب والعلوم والحقوق والهندسة وتجرّدت عن النقائص الماديّة سوف لن تساير برنامجها الاستعماري، اضطرّت إلى إسناد خطة سامية لها في سنة 1934 بأكبر معقل استعماري وهو إدارة الأشغال العامّة إزاء إلحاح الشعب، ولمّا رأت الظروف ملائمة لزحزحته من مكانه أبعدته عن هاته الإدارة وبعثت به إلى الكتابة العامّة للحكومة التونسيّة وقد كانت فرنسيّة بحتة حيث كلفته هناك بالصناعات والفنون التقليديّة ثم نقلته مرّة أخرى إلى الإدارة الجديدة التي سمّتها الإدارة العامّة والجهويّة في سنة 1943 حيث أسندت إليه خطة مستشار فني في مصلحة البلديّات، ورغم هذه التنقلات المتوالية المتباعدة الأغراض والغايات فقد كان الفقيد يسير في مشاريعه البناءة رغم كل العراقيل.

وقد حدّثني أحد أصدقائه بأنّ الفقيد كان يشعر بمسؤوليّة الرجل المفكر الذي يجب أن يؤخذ رأيه في المشاكل التونسيّة

كلما قدمت إلى تونس لجنة بحث برلمانيّة أو شخصيّة فرنسيّة بارزة فكان يبذل كل مجهوداته للاتصال بلجان البحث والشخصيّات البارزة ليدلي برأي تونس في ميدان تطلعها إلى حياة أفضل وبأحقيتها بما تطالب به من حقّ وحريّة واستقلال.

عبقريّة وانتصار

كان الراحل الكريم يشعر في قرارة نفسه وهو يكافح الاستعمار بالطرق المنطقيّة والعلميّة أنّه سيأتي اليوم الذي ينتصر فيه الشعب التونسي المكافح على الاستعمار الغاشم لأنّه كان يركز جهوده على الأدلة المنطقيّة العلميّة مستندا إلى الوقائع التاريخيّة. كان يفعل ذلك وهو موظف ولا يخشى ما عسى أن يلحقه من المضايقات أو العزل الاستعماري عن الوظيف إيمانا قطعيّا منه أنّه على المثقفين رسالة يجب عليهم أداؤها مهما كلفهم ذلك خصوصا وهو يشعر بأنّ غيره ليس قادرا على القيام بمأموريّته الإقناعيّة المبرّأة من كل طمع أو شائبة. كان يسعى لمقابلة الصحفيّين الأجانب الذين يحلون بتونس كلما حدثت فيها أزمة سياسيّة ليمدّهم بالإرشادات الصحيحة عن الوضع التونسي وقد يتكبّد مصاريف ماليّة باهضة على نفقته الخاصة فيقتبلهم باسم جمعيّة قدماء الصادقيّة أو جمعيّة المهندسين والفنيّين التونسيّين ليبلغهم رسالة تونس أثناء ذلك الاقتبال حتى في عهد المقيم الفرنسي الطاغية دي هوتكلوك الشهير.

خارج الحدود

كان للفقيد أصدقاء كثيرون في المحافل العلميّة وكانت الصحافة العلميّة تنشر الكثير من البحوث التي يحرّرها بطلب من أصحاب تلك الصحف أو يريد هو نشرها تعليقا على ما يطالعه من البحوث العلميّة والفلسفيّة.

وجاءت حوادث قنبلة هيروشيما الذريّة التي ألقت إثرها دولة اليابان السلاح، من أهمّ العوامل التي حفزته على التحرير والاندفاع إلى خوض غمار البحث الذرّي وكيف يجب أن يتحوّل استعمال الذرّة إلى أغراض سلميّة.

كان هذا الأفق الجديد مرتعا خصبا لعبقريّته فانهال على التحرير والكتابة، وليجعل من بحوثه نقطة ارتكاز لعمل مشترك انخرط في الوكالة العالميّة للطاقة الذريّة التي مقرّها مدينة فيينا عاصمة النمسا وكان انخراطه بصفة شخصيّة قبل أن تتكوّن في تونس مندوبيّة الطاقة الذريّة.

وبدأ بهذا الانخراط اسم تونس يتردّد على الأفواه والأسماع وتنقله مذاييع الدنيا بما يقدّم هذا الرائد الإفريقي الأوّل للبحوث الذريّة، الذي أصبح له مقام مرموق ومكانة ممتازة. وإذا بالفرنسيّين يفاخرون بأنّه من خرّيجي مدارسهم وأنّ الفضل في تنشئته يعود إلى الثقافة الفرنسيّة وقد تناسوا أو تجاهلوا أنّ الفقيد عليه الرحمة كان يتقن عدّة لغات أخرى غير لغتهم، وأنّ مواهبه وفطنته ونبوغه هي أسباب تفوّقه لا معرفة لغتهم.

عمـله في الـوكالة

عندما أصبح عضوا عاملا في الوكالة الدوليّة للذرّة دعي لحضور مؤتمرها الذي انعقد بفيينا في شهر أكتوبر سنة 1957، اطلع على وضعها الحاضر وقدّم تقريرا تضمّن بيان الشروط الثلاثة التي تضمن النجاح المتأكد لأشغال الوكالة وتلك الشروط هي الآتية:

أولا: تدويل الوكالة.

ثانيا: فاعليّة نشاطها.

ثالثا: اقتصاد صائب.

وتطبيقا لهذه الشروط اقترح بأن تسند خطط الوكالة بالتناوب للدول الأعضاء وأن تكون أشغالها لامركزيّة وطلب

زيادة على ذلك أن لا تعطل الوكالة استثمار رؤوس الأموال في حالة ما إذا وجدت هذه الأموال وأن تكون مشاريع المساعدة الفنيّة مطبّقة في نطاق المساعدة الثنائيّة المتعدّدة، وأعلم من حضر من المؤتمرين بأنّ البلاد التونسيّة ينقصها التجهيز الصناعي ولا تتوفر لديها موارد الطاقة المتفق عليها كما لا توجد لديها مدخرات طبيعيّة، وأنّها تنفق سنويّا مبلغ عشرة ملايين دولار للحصول عليها وأنّ تونس في حاجة إلى مولد للطاقة كلّ خمس سنوات قوّته عشرة ميغاتون لتخصّب بفضله أراضي الجنوب التونسي وأنّ تونس تنتظر من الوكالة الذريّة إيفاد فنيين وإمكانيّة شراء متشابهات الخواص.

في فجر الاستقلال

ذلك هو الدور الذي قام به الفقيد في فجر الاستقلال وتونس لم تتخلص بعد من رواسب الاستعمار، فبعد ثلاثة أشهر من ابتداء عمليّة انسحاب الجيش الفرنسي عن الجنوب التونسي والتوجّه إلى بنزرت ليرحل منها إلى فرنسا كان الفقيد ينادي من أعلى مبنى الوكالة العالميّة للطاقة الذريّة بأنّ تونس في حاجة أكيدة إلى التحصيل على مساعدات فنية عالميّة لتستطيع مواجهة مشاكلها الاقتصادية التي كان رحمه الله يرى أنّها من أخطر المشاكل في حياة الشعوب.

دورة تحضيريّة

وخلال هذه السنة عقدت الوكالة بنيويورك ندوة تحضيريّة لمؤتمرها الثاني الذي سينعقد بجنيف ترأسها سعادة سفيرنا بواشنطن الأستاذ المنجي سليم وكان موضوع الندوة استعمال الطاقة الذريّة في أغراض سلميّة ازداد فيها موقف تونس وضوحا في هذا الشأن وألحّ رئيس الندوة على وجوب مساهمة الدول الصغيرة في الوكالة لتتمكن من الحصول على إعانات فنية تساعدها على النموّ الاقتصادي والتطوّر.

إدارة الأبحاث العلميّة والطاقة الذريّة

رأت تونس وهي في فجر الاستقلال أنّ الوقت قد حان لإنشاء مصلحة للأبحاث العلميّة والطاقة الذريّة فأنشأتها وأسندت إدارتها إلى الفقيد العزيز، ومن ذلك الوقت بدأت كلّ المخابرات الخارجيّة الخاصّة بتلك الأبحاث تتلقاها المصلحة المشار إليها، لذلك عندما تقرّر في شهر سبتمبر سنة 1958 عقد المؤتمر الدولي الثاني لاستعمال الذرّة لأغراض سلميّة كان الفقيد هو المترشح لرئاسة الوفد التونسي.

الالتحاق بالمؤتمر

تعيّن يوم 9 من شهر سبتمبر المذكور لافتتاح أشغال المؤتمر وسافر الوفد التونسي وعند وصوله صرّح الفقيد في مقابلة صحفيّة بأنّ تونس تنوي استخدام الطاقة النوويّة لاستخراج المعادن من الجنوب التونسي وأنّها تنوي استيراد فرن ذري لهذه الغاية يولد ما يتراوح بين الخمسة والعشرة آلاف كيلوات من الطاقة الكهربائيّة.

ويستخدم هذا الفرن لاستخراج (البوتاسيوم) و(المغنسيوم) وغيرهما من المعادن الوفيرة في منطقة جرجيس وبدأ المؤتمر أشغاله وقسّم المؤتمرين إلى لجنتين الأولى لدرس المسائل الفنيّة المتعلقة ببرامج الطاقة الذريّة لأغراض سلميّة وقد ترأسها سفير إسبانيا بفيينا واللجنة الثانية كانت إداريّة صرفة وأسندت بالإجماع مهام نيابة رئيس هذه اللجنة إلى ممثل تونس ورئيس وفدها المغفور له محمّد علي العنابي أمّا مقرّر اللجنة العام فكان أستاذا يوغسلافيا يدرّس العلوم الذريّة ببلغراد.

اغتنم ممثل تونس فرصة المهمّة المسندة إليه في هذا المؤتمر وهي نيابة رئيس لجنة الطاقة الذريّة فتقدّم إلى المؤتمرين بلائحة للوكالة الأمميّة للشؤون الذريّة لفت فيها نظرها إلى دور الدول الصغيرة في ميدان الطاقة ووجوب اهتمام الوكالة بتطلع الدول

الضعيفة إلى أهداف الذرّة السلميّة، وقد لقيت هذه اللائحة الترحاب الحارّ من جميع المؤتمرين، وهكذا بدأ العالم يشعر منذ ذلك العهد بوجود دولة إفريقيّة فتيّة هي أهل لأن تجلس إلى جانب الدول الكبرى في ميدان العلوم الكونيّة وتلك الدولة هي تونس المستقلة حديثا.

كوميساريّة الطاقة الذريّة بتونس

إزاء هذا التقدير العالمي لتونس رأت الحكومة التونسيّة الوطنيّة أنّه لا بدّ من تأسيس كوميساريّة للطاقة الذريّة لتضطلع بالأبحاث الذريّة وتمّ ذلك فعلا في سنة 1959 وكان من الضروري أن يكون المرشّح لهذا المنصب عن جدارة وكفاءة الفقيد محمّد علي العنابي ومن أجدر بهذه الخطة السامية في ذلك العهد غير الفقيد.

رحلة دراسيّة

قبل أن ينهمك الفقيد في أعمال كوميساريّة الطاقة الذريّة بتونس قرّر أن يطلع على تجارب الدول الكبرى في الميدان الصناعي وعلى الأخصّ الصناعات الثقيلة وبوصفه المهندس الرئيس في كتابة الدولة للصناعة والنقل أجرى مخابرة مع الحكومة الأمريكيّة في نطاق التبادل الثقافي بين تونس وأمريكا وخاطبها في صائفة عام 1959 بشأن قيامه برحلة إلى الولايات المتحدة فوقعت المصادقة على ذلك.

وكان القصد الأوّل من هذه الرحلة التي استغرقت 37 يوما من غرّة جوان 1959 إلى 7 جويلية الاطلاع على المنشآت الذريّة واستخدام الطاقة الشمسيّة والاطلاع على صناعة البترول ومشاريع الطاقة الكهربائيّة المائيّة ومشاريع بحوث السيطرة على المناخ واستغلال وإصلاح الأراضي وآليّة المصانع ومخابر العلوم التطبيقيّة.

فزار مدينة ديترويت الصناعية واستغرقت زيارته لمدينة السيّارات أربعة أيّام، ثمّ تابع سفره إلى مدينة شيكاغو فاطلع على مصانعها ومعاهدها الذريّة وقضّى بها ستة أيّام، ثم زار مدينة سان دياغو في كاليفورنيا حيث حضر حفلة تدشين مخبر بول هوبكنز للعلوم النظريّة والتطبيقيّة.

وفي واشنطن زار مكتب النماذج الأمريكي وأجرى محادثات وبها زار مكتب البحوث المناخيّة وتحدّث مع الدكتور أودشو المدير التنفيذي للمؤسّسة الجيوفزيائيّة الدوليّة، كما زار مخابر الذرّة في أرجون ولاحظ عمل الأفران الذريّة والتطورات الحديثة في ميدان استخدام الطاقة الذريّة في الطب والزراعة، وفي مدينة فيونكس حضر اهتمامه في استخدام الطاقة الشمسيّة وزار بعض مشاريع الإسكان، أمّا في مدينة تنسي فقد أدّى زيارة لإدارة مشروع وادي تنسي واطلع على مرافق الطاقة الذريّة والمتحف الذرّي في أوك ردج.

الإنجازات

عندما رجع الفقيد من رحلته الموفقة إلى أرض الوطن مزوّدا بالمعلومات والمشاهدات شرع في القيام بالتجارب العلميّة، وكان العمل الأوّل الذي باشره هو إقامة مخبر للطاقة الشمسيّة بمرصد مطار العوينة المكلف بقيس ورصد الشعاع الشمسي بتونس وضبط حرارته وقوّة إضاءته طيلة النهار والليل، اخترع آلة لتسخين الماء بواسطة الشمس وأجرى فيها تجربة للتحصيل على الذرات الشمسيّة بواسطة الماء، وقد تمكن من الحصول على كمية من الماء تبلغ 500 ليترة درجة حراراتها 80 وكانت الغاية الأولى التي يرمي إليها من هذه التجربة هي التمكن من تكرير ماء البحر وتحويله إلى ماء عذب صالح للأغراض الفلاحيّة، ولم يدخل استغلال الطاقة الشمسيّة في ميدان التطبيق لارتفاع أثمان الأجهزة اللازمة لذلك ولأنّ

الاستغلال لا يتمّ إلا نهارا وفي بعض ساعات فقط وفي الأيّام التي تتوفر فيها الشمس، على أنّ ذلك لا يحول دون تحقيق هذه الغاية إذا قامت تجارب كبيرة في البلاد وخصّصت لها الاعتمادات الكافية، ثم إنه بعد تلك التجربة اتجه إلى العمل بكوميساريّة الطاقة الذريّة وقسم عملها إلى قسمين حسب حاجيّات تونس إلى:

- قسم داخلي مهمّته تسديد حاجيّات الجامعة التونسيّة التي تأسّست سنة 1960.
- قسم خارجي مهمّته ربط الصلة بين تونس والمنظمات العالميّة التابعة للأمم المتحدة وفي مقدّمتها منظمة اليونسكو.

مراكز ومخابر

بفضل التعاون بين الجامعة التونسيّة ومنظمة اليونسكو أمكن لتونس أن تؤسّس مركزا للبحوث حول الأرض القاحلة وهو الأوّل من نوعه في الشرق الأوسط وهذا المركز التابع للجامعة التونسيّة كائن بنهج الساحل ويديره السيّد المنجي حمص الأستاذ بكليّة العلوم بالجامعة التونسيّة ويحتوي على مخبرين أحدهما في فيزياء الأرض والآخر في الفيزيولوجيا النباتيّة وقد بلغت تكاليفهما 20 ألف دينار دفعتها الدولة التونسيّة، وتوجد بالمركز مكتبة فخمة وهو يعمل منذ إنشائه بنشاط مستفيدا من التعاون المتواصل مع المصالح الفنيّة لكتابة الدولة للفلاحة، أمّا مساعدة اليونسكو لهذا المركز فقد تمثلت في تحمّلها نفقات الخبير الهولاندي في الأراضي القاحلة الأستاذ (فان ويجك) الذي بدأ عمله بالمركز في غرة جانفي 1961.

نـدوة عـالميّة

وفي خصوص النشاط الخارجي تمكنت كوميساريّة الطاقة الذريّة بتونس من الحصول على الموافقة على عقد ندوة عالميّة للتنقيب عن المياه وتقدير كميّاتها بالأراضي القاحلة نظمتها

اليونسكو بتونس، ودامت أربعة أسابيع بداية من يوم 23 أكتوبر 1961 حيث وقع افتتاحها على الساعة الثالثة بعد الظهر بالمعهد القومي الأعلى للفلاحة بتونس، حضر الندوة 25 خبيرا من 12 دولة من الشرق الأوسط وأشرف عليها الأستاذ جان سميد مدير المركز العلمي لليونسكو بالشرق الأوسط، وشارك فيها ثلاثة خبراء عالميّين في الأراضي القاحلة البروفسور شولر من جامعة بوردو والبروفسور بومولوف من أكاديميّة العلوم في الاتحاد السوفياتي والدكتور توماس من مصلحة الجيولوجيا بالولايات المتحدة، وساهم في تنظيم الندوة من تونس زيادة عن كوميساريّة الذرّة اللجنة القوميّة التابعة لليونسكو بكتابة الدولة للتربية القوميّة واللجنة القوميّة للأراضي القاحلة التابعة لكتابة الدولة للفلاحة التي يرأسها الأستاذ الأسعد بن عصمان رئيس مصلحة المياه. باشرت الندوة أشغالها النظريّة مدّة أسبوعين، أمّا الأسبوعان الأخيران فقضتهما في البحوث التطبيقيّة بمخبر الجامعة التونسيّة وختمت بالقيام بجولة عبر البلاد التونسيّة قام بها الخبراء والمؤتمرون حيث زاروا مناطق الأراضي القاحلة بالوسط والجنوب التونسي وأجروا تحليلا على ترابها ومياهها.

المؤتمـرات العالميّـة

تابع الفقيد عمله البناء ورسالته العلميّة والعمليّة بالمواظبة على حضور كلّ المؤتمرات العالميّة التي تنعقد في نطاق الأبحاث الذريّة وتجلى نشاطه في مشاركته في ثلاث مؤتمرات عالميّة من هذا النوع سنة 1961.

استثمار الطاقة الجديدة

قرّر المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع للجمعيّة العموميّة للأمم المتحدة عقد مؤتمر عالمي لبحث استثمار أنواع الطاقة الذريّة، وتعيّن موعد انعقاده من يوم 21 إلى يوم 31 أوت 1961،

أمّا مكان الانعقاد فهو مقرّ منظمة التغذية والزراعة التابع للأمم المتحدة بروما، شارك في هذا المؤتمر ما يزيد عن 555 عضوا يمثلون ثمانية وستين بلدا من بينها الجمهوريّة التونسيّة، وتناول الكلمة في هذا المؤتمر نواب الدول الكبرى ولما انتهوا من بياناتهم قام رئيس المؤتمر وهو أمريكي الجنسيّة وقال أحيل الكلمة الآن للدول المتخلفة!!!، وتناول بعده ممثل تونس فقيدنا العزيز الكلمة وانتقد بعض أساليب استعمال الطاقة الجديدة واقترح إبدالها بأساليب أخرى لاستثمار الطاقة الجديدة وخاصّة الطاقة الشمسيّة وأخيرا ردّ رئيس المؤتمر بطريقة غير مباشرة وأوضح أنّ تونس لا تعتبر من الأمم المتخلفة بل إنها لا تنقصها إلا وسائل الاستغلال وهذا ما ستسعى للحصول عليه طال الزمن أو قصر، ونالت كلمته إعجاب كلّ الحاضرين خصوصا وأنّ موضوعها كان وجوب استعمال الطاقة في أغراض سلميّة وتحريم استعمالها ضدّ البشريّة.

مؤتمر بلغاريا

وسبق مؤتمر روما مؤتمر آخر انعقد في بلغاريا في شهر ماي حضره ممثل تونس الفقيد العزيز الأستاذ محمّد علي العنابي وكان الموضوع الذي بحثه المؤتمر هو الكهرباء النوويّة وطرق استخدامها.

مؤتمر فيينا

أمّا المؤتمر الذي تجلت فيه عظمة الفقيد ونالت إعجاب العلماء فهو مؤتمر الدورة الخامسة للوكالة العالميّة للطاقة الذرية الذي انعقد من يوم 25 سبتمبر إلى يوم 7 أكتوبر 1961، ففي هذا المؤتمر انتصر ممثل تونس عدّة انتصارات، ورغم أنّ المصالح المختصّة بتونس لم تمكنه من السفر في الإبّان فوصل بعد فوات موعد الجلسة الأولى للمؤتمر، ومع ذلك فقد أمكن له أن يرشح نفسه لخطة نائب رئيس الوكالة لمدّة عامين ففاز في

هذا الترشيح رغم أنّ عدة دول كبرى كانت رشحت نفسها لهذا المنصب ولم تحرز عليه، وتقدّم إلى المؤتمر باقتراح يرمي إلى زيادة منصبين في مجلس المتصرّفين للوكالة وإسنادها لمندوبين عن إفريقيا وآسيا فوقعت المصادقة عليه أيضا بشبه إجماع.

مناورة أمريكيّة

تفطن الفقيد إلى مناورة قام بها ممثل الولايات المتحدة وهي إيعازه لخمس دول لتتقدّم باقتراح إلى المؤتمرين يتضمّن عدم إدخال أيّ تنقيح على القانون الأساسي قبل ثماني سنوات مقبلة بداية من العام 1961 وذلك لاستمرار حرمان الدول الإفريقيّة والآسيويّة من أيّ نشاط في الوكالة طبقا للقانون القديم، وكانت حجّته في إبطال المناورة الأمريكيّة هي انتخابه كاهية رئيس وحصول الموافقة على ذلك بالإجماع.

مساع سلميّة

ومن أبرز ما تجلى فيه الموقف التونسي في هذه الدورة حصول الموافقة على البرنامج الذي تقدّم به الفقيد إلى المؤتمرين حول إجراء التجارب الذريّة لكن طبق الشروط التالية:

1 ـ أن تكون تحت الأرض.

2 ـ وتجرى بمحضر عدد كبير من العلماء المحايدين.

3 ـ وأن تذاع أسرار هذه التجارب في أنحاء العالم أجمع.

4 ـ وأن تباع النظائر الناتجة عنها للبلاد الضعيفة بأسعار زهيدة.

توزيع إقليمي

كان العمل جاريا في الوكالة بأنّ الخطط المعيّنة لكواهي المدير العام توزّع حسب جنسيّات خاصّة: فرنسا، بريطانيا، أمريكا، روسيا، لكن هذا النظام ينافي الصبغة العلميّة التي تصطبغ بها الوكالة لذلك تقدّم باقتراح جديد يرمي إلى توزيع

تلك المناصب حسب المناطق الجغرافيّة كما يأتي: أوروبا الغربيّة، البلاد الشيوعيّة، إفريقيا، آسيا، أمريكا.

مساعدات لتونس

اغتنم الفقيد العزيز فرصة وجوده في ذلك المؤتمر فحصل على وعد الوكالة بأن تمدّ تونس بما يلي:

1 ـ خبير للعمل بالمخبر المركزي لكتابة الدولة للتصميم والماليّة لفحص المعادن بشعاع قاما.

2 ـ تكميل مخبر النباتات الذي أحدث بتونس سنة 1960.

3 ـ خبير لفحص المياه وقيس سيلان الأودية وكميتها.

4 ـ خبير في التصميم في ميدان الطاقة الذريّة.

وقد أنتجت مساعيه الحميدة في النطاق الخارجي وجنت تونس عدّة فوائد من ورائها وتمكنت من اكتساب مودّة دول كثيرة ومنظمات عالميّة.

وبينما كنا ننتظر منه متابعة عمله الجبّار إذ الناعي يخبرنا بموته المفاجئ، وبذلك خسرت تونس أحد الرجال العاملين في صمت المتفانين في الإخلاص للعمل الجادّين في طريق خير الإنسانيّة.

رحمه الله بقدر ما عمل وجازاه بما يجازى به كلّ مؤمن صادق وعامل مخلص.

---

* "الصباح" بتاريخ 18 و25 أفريل 1963.

1) انظر حديثا للمترجم له عن جمعية قدماء الصادقيّة نشر في مجلة المباحث العدد العاشر في ماي 1944.

2) عنه انظر بالفرنسية "الدكتور محمد التلاتلي" للدكتور محمد المنصف زيتونة، نشر مركز المنشورات الجامعية، تونس 2004.

محمد نعمان*

(1875 ■ 1962)

يكاد يكون قادة حركة حوادث الزلاج من مواليد سنة 1875 ففيها ولد السيّدان عبد العزيز الثعالبي وعلي باش حامبه وفيها ولد أيضا الأستاذ محمّد نعمان بمدينة تونس.

عندما تأسّست المدرسة العلويّة كان من الفوج الأوّل الذي زاول تعليمه بها إلى أن تخرّج منها يحمل شهادة ختم دروسها.

ومن سنة 1895 بدأ يباشر التعليم بالمدارس الابتدائيّة التي أحدثتها حكومة الحماية، ولكن تطلعه للحياة الحرّة جعله ينكبّ على متابعة تعليمه العالي إلى أن أحرز على شهادة الحقوق، فارق التعليم وانخرط في سلك المحامين المتربّصين من يوم 22 جويلية 1908 بالحضرة التونسيّة.

وفي هذا الطور من شبابه بدأ يعمل مع جماعة التونسي ويساهم في حركة الشباب المتطلع إلى حياة كريمة أفضل، وأظهر نشاطا وحركة لفتت إليه الأنظار، فألقي عليه القبض في مارس 1912 وأبعد مع من أبعد إلى فرنسا، ثم انتقل منها مع رفاقه في المنفى إلى مدينة إسطنبول عاصمة دار الخلافة الإسلاميّة.

فكر وهو بإسطنبول في مباشرة المحاماة في قطر عربي لأنّ تركيا في ذلك العهد لا تقبل المحامين الذين لم يتخرّجوا من معاهدها، فأرسل إلى الحكومة المصريّة طلبا في ترسيم اسمه بجدول المحامين لدى المحاكم المختلطة بالقاهرة كما فعل من قبله زميله الأستاذ الشاذلي البكوش، وفيما هو يتأهّب للالتحاق بمصر حيث أجيب طلبه وردت عليه برقيّة من تونس تعلمه بإلغاء قرار الإبعاد الصادر ضدّه وتطالبه بالعودة إلى

تونس، وهذا ما تمّ بالفعل حيث عاد إليها وبدأ المحاماة بصفة رسميّة بتونس من يوم 9 أفريل سنة 1913.

جاءت الحرب العالميّة وتعطل كلّ نشاط سياسي في تونس فلمّا وضعت أوزارها استأنف نشاطه مع الحزب الدستوري، ثم انضمّ إلى الحركة العماليّة التي قام بها الدكتور محمّد علي وصحبه سنة 1924، كما اندفع إلى العمل مع الشعبة التونسيّة للحزب الاشتراكي الفرنسي بتونس، وبدأ يحرّر في جريدتها اليوميّة "تونس الاشتراكيّة"، وكانت أكثر فصوله في هذه الجريدة تحوم حول الشؤون الاجتماعيّة والسياسيّة، والتجأ إلى ذلك يوم عطلت الحكومة الفرنسيّة أكثر الصحف العربيّة التونسيّة ولم تسمح بإصدار أيّ جريدة جديدة من سنة 1925 إلى سنة 1934 إلا جريدة الزمان.

وجد الأستاذ نعمان المجال فسيحا للعمل مع الشعبة الاشتراكيّة فأشبع نهمه إلى أن قامت من جديد الحركة الدستوريّة وتأسّست جريدة صوت التونسي أوّلا ثمّ جريدة العمل التونسي ثانيا فكان من بين محرّريها البارزين. ثم هو المحامي المقدام الذي تطوّع للدفاع عن الموقوفين والمتهمين من التونسيّين في القضايا الوطنيّة المنشورة أمام المحاكم الفرنسيّة أو العسكريّة بتونس.

وعندما حلت كارثة حوادث 9 أفريل سنة 1938 وتعطلت أكثر الصحف التونسيّة وتوفي المرحوم محمّد الجعايبي الذي كان يرأس تحرير جريدة الزهرة اليوميّة في 5 ماي من تلك السنة تطوّع الأستاذ نعمان بتحرير المقال الرئيسي بجريدة الزهرة اليوميّة فكان لفصوله صداها الممتاز في مختلف الأوساط.

والأستاذ نعمان يمتاز بالحيويّة والنشاط في عمله الاجتماعي والسياسي، وهو صاحب حنكة ودراية يعرف كيف يعالج المشاكل الهامّة.

---

* من أرشيف المهيدي في المكتبة الوطنية.



محمد الشاذلي المورالي*

(1879 ـ 1963)

فقدت الصحافة التونسيّة يوم الإثنين 8 شوّال 1382هـ الموافق لـ4 مارس 1963م أحد الرجال الذين ابتلاهم الله بحبّها فلاقوا في سبيلها كلّ مكروه، ذلكم هو صاحب المنير رحمه الله.

عائلتـه وميـلاده

ينتمي الفقيد إلى عائلة انحدرت من تركيا إلى تونس وهي عائلة المورالي في القرن الماضي، اشتغل أفرادها بالعمل الإدراي في مدينة تونس كأكثر أفراد الجالية التركيّة والمماليك الأتراك الوافدين على هذا الوطن، فقد كانت الدولة تقدّمهم في العمل الإداري على أبناء الوطن وتسند إليهم أسنى الرتب لا لتفوّقهم في المعرفة بل لمجرّد كونهم غرباء عن هذا الوطن لأسباب ليس هنا محلّ بيانها.

من هو صاحب المنير؟

يحدثنا م.بول لامبير الفرنسي في كتابه المعجم المصوّر للمملكة التونسيّة المطبوع سنة 1912 صحيفة 295 عن حياة صاحب المنير فيقول إنه:"الشاذلي بن محمّد بن حسونة المورالي وإنه مولود بتونس في شهر أكتوبر 1879 وهو صحفي عربي تعلم بمدرسة ترشيح المعلمين بالعلويّة ثم بالصادقيّة وأخذ شهادة البروفي

العربيّة وسمّي حاكما نائبا بقابس سنة 1901 ثم نقل بمثل خطته إلى قفصة بإضافة خطة كتابة المحكمة إليه وذلك سنة 1905، وهو مدير ورئيس قلم تحرير المنير منذ ماي سنة 1907 وكان عضوا عاملا بجمعيّة قدماء المدرسة الصادقيّة عام 1912". ذلك هو النصّ الحرفي لِما جاء بالمعجم المذكور بتعريب صديقنا الأستاذ عثمان الكعّاك محافظ دار الكتب الوطنيّة بالجمهوريّة التونسيّة.

كان والده موظفا بإدارة مشيخة المدينة يشغل خطة برغادي حسب تعبير الروزنامة التونسيّة سنة 1904، وآخر من اشتغل معه من شيوخ المدينة هو محمّد الصّادق غيلب سنة 1907 وحدّثني صهر الفقيد الدكتور محمود الماطري النائب بمجلس الأمّة المحترم أنّ والد الفقيد كان مكلفا مع السيّد أحمد بن عبد الله الكاتب بالإدارة المذكورة بتوزيع وقف المؤدّبين عليهم في شهر المولد النبوي ربيع الأوّل، وكان الدكتور من تلامذة كتاب الحدّادين وناله من الوقف المذكور ما ينال كلّ تلميذ بالكتاب أي نصف ريال (30 صانتيما) في السنة أمّا المؤدّب فكان منابه السنوي يتراوح بين ريالين وثلاث ريالات تونسيّة.

بين الكتاب والمدرسة

بدأ الفقيد تعليمه بالكتاب أوّلا ثم أدخله أبوه إلى المدرسة العلويّة وفيها أحرز على الشهادة الابتدائيّة في قسم الصنائع سنة 1897 حسبما اطلعنا على ذلك بالعدد 457 من جريدة الحاضرة الصادرة في 20 جويلية سنة 1897. في شهر أكتوبر من تلك السنة التحق بالمدرسة الصادقيّة حيث تابع تعليمه الثانوي الذي أنهاه بالتحصيل على شهادة البروفي العربيّة في شهر جويلية سنة 1901.

العمل الإداري

لم تكن للفقيد رغبة في العمل الإداري ولكن إزاء إلحاح والده عليه في قبول خطة إداريّة رضي بالانخراط في سلك موظفي

العدليّة التونسيّة حيث سمّي حاكما نائبا بالمحكمة الابتدائيّة بمدينة قابس ابتداء من شهر أكتوبر سنة 1901 وبعد عامين انتقل إلى المحكمة الابتدائيّة بمدينة قفصة وكانت هذه النقلة ترقية له حيث سمّي حاكما رسميّا بعد أن كان نائبا حسبما ترشدنا إلى ذلك الروزنامة التونسيّة.

انفصال

اشتهر الفقيد منذ شبابه بالمسالمة والخلق الرضي، كان العمل الإداري وعلى الأخصّ خطة حاكم في ذلك العهد عملا شاقا ومضنيا لا يقدر عليه إلا من توافقه نشأته وطباعه على تحمّل المكاره، وكان القضاة بالمحاكم التونسيّة على اختلاف درجاتها يعاملون من طرف كبار موظفي السلطة الفرنسيّين أسوأ معاملة، وكان قياصرة الآفاق وهم المراقبون المدنيّون (الذين يمثلون المقيم العام وهو سفير فرنسا بتونس الذي بيده الحلّ والعقد في الدولة التونسيّة) لا رادّ لحكمهم ولا معقب لأعمالهم خصوصا في منطقة الجنوب، يتداخلون في كليات القضايا العدليّة وجزئيّاتها، وهذا ما حدث للفقيد إبّان قيامه بخطة حاكم بالمحكمة الابتدائيّة بقفصة حيث وجد نفسه غير قادر على القضاء إلا طبقا لرغبة المراقب المدني فاضطرّ سنة 1906 إلى تقديم استقالته من عمله السامي رغم إرادة والده وذلك إرضاء لضميره.

الصحافة

عاد الفقيد من قفصة إلى مسقط رأسه مدينة تونس وسعى للحصول على رخصة لإصدار جريدة "المنير" فصدر العدد الأوّل منها يوم الأحد 29 ربيع الأوّل سنة 1325هـ الموافق 12 ماي 1907م وكتب تحت اسمها ما يلي:"صحيفة عامّة إسلاميّة تصدر كلّ يوم أحد لمديرها ومحرّرها الأوّل محمّد الشاذلي المورالي".

كانت في عهدها الأوّل متنوّعة المواضيع فبعد المقال الأوّل الذي يمضيه صاحب الجريدة باسمه الصريح يطالع القارئ الأنباء الخارجيّة وأكثرها يهمّ تركيا أو دار الخلافة الإسلاميّة كما كانوا يسمّونها في جميع الصحافة الإسلاميّة العربيّة ثمّ الأخبار المحليّة، وفي جريدة المنير فتح صاحبها باب القسم الأدبي كما نجد ذلك في أكثر صحف ذلك العهد ونشر في هذا القسم بالعدد الأوّل والذي يليه قصيدة بشر بن عوانة مع تصديرها وتشيطرها وتذييلها لشاعر تونس الأوّل محمود قابادو:

أفاطِمُ لوشهدتِ ببَطن خبْتٍ
وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذا لرأيت ليثا أمّ ليثا
هزبُرا أغلبا لاقى هزبْرا

ويظهر أنّ الفقيد كان يحرّر أكثر ما ينشره بجريدته وقد يعمد إلى إمضاء بعض فصوله بكلمة (أبو الحسن) تورية منه للشيخ أبي الحسن الشاذلي المشهور بتونس ومن يدرك أنه كان يتبرّك بهذه التورية، يعمد إلى ذلك في الفصول التي تهمّ السياسة التونسيّة مباشرة كالمقال الذي تحدّث فيه بالعدد الأوّل عن صاحب جريدة "المعمّر" دي كارنيير الذي لعب دورا هامّا في سياسة العسف والاضطهاد ضدّ التونسيّين.

خيبة أمل

عندما فارق المرحوم محمّد الشاذلي المورالي عمله الإداري بقفصة وعاد إلى تونس، فكر في العمل الحرّ وهو خدمة الصحافة العربيّة وكان يعتقد أنّ هذا العمل سهل، وذلك من حسن نيّته وأنّ الجريدة تستطيع أن تعيش إذا اتجهت اتجاها إسلاميّا لا مراوغة فيه ولا مخاتلة، لكن تبيّن له خطؤه بعد أن نفد ما كان بيده من المال الذي ادّخره من عمله الإداري في الانفاق على الأعداد الثمانية الأولى التي أصدرها متوالية من

المنير، فلمّا حان موعد إصدار العدد التاسع لم يجد سبيلا لإصداره فاضطرّ بعد مدّة إلى إصدار عدد مزدوج 9 و10 بتاريخ 27 جويلية 1907 وقال إنه عوّض عن القرّاء بهذا العدد الذي بلغت صفحاته 16 ما ضاع عنهم في الإبّان من أخبار وأنباء وأفكار وآراء حول ما كان يجري داخل تونس وخارجها.

وما كاد القرّاء يفرغون من قراءة العدد الموالي 11 الذي صدر في 28 جويلية 1907 حتى فوجئوا بعدم صدور الجريدة كامل صائفة ذلك العام، فلمّا انتهت العطلة الصيفيّة صدر العدد 12 من المنير يوم 5 سبتمر 1907 في ورقتين صغيرتين وكأنه شعر بتساؤل القرّاء عن أسباب هذا التأخير وهذا التقهقر فكتب في افتتاحيّة تحت عنوان "شكر وإبداء عذر" ما يأتي: "قد احتجب المنير عن قرّائه بضع أسابيع اعترى مديره انحراف مزاجي خلالها من أثر أيّام القيظ الجارية على ما عرّفنا به النطاسي، فلزمه التروّح بضواحي الحاضرة وعدم مباشرة الجريدة حتى منّ الله عليه بالعافية، وبما أنّ هذا العبد كتب على نفسه خدمة المصلحة العامّة وربّما يظنّ أنه قصر في إتمام الواجب نحو السادة المشتركين لعدم إبراز أربعة أعداد متوالية فقد فكر في أن يقسم الجريدة فجعلها في أربع صفحات من حجمها المعتاد تصدر مرّتين في الأسبوع بدون أن يزيد عليهم في قيمة (التامبر)، وبهاته الطريقة يكون إن شاء الله تعالى قام بعملين وهما أداء الواجب ثم اتحاف كافة القرّاء الكرام بنشر الأخبار بصفة أسرع من ذي قبل كما أنه سهّل اقتناءها من جهة الثمن".

احتجاب أوّل

يظهر أنّ الفقيد لأسباب ماديّة بحتة لم يستطع الوفاء بوعده فخيّر ارتكاب أخفّ الضررين وهو الاحتجاب المؤقت إلى أن تساعده الظروف من جديد على إصدار منيره، فقد شعر بأنّ

الأعذار التي ينتحلها من حين لآخر عن عدم إصدار جريدته في الإبّان أصبحت غير مقبولة لدى القرّاء، وكبر عليه أن يقوم بقضايا عدليّة ضدّ من تولوا بيع جريدته ولم يسدّدوا ما تخلد بذمّتهم من الأموال الراجعة إليها، كما أنه لم يفعل ذلك مع المشتركين وغاية ما قام به هو أنه حرّضهم مرّة أخرى على دفع اشتراكاتهم لتتمكن الجريدة من مجابهة بعض مصاريفها.

البحث عن عمل

كانت تصدر بتونس جريدة أسبوعيّة اسمها التقدّم أعلنت جريدة المنير بعددها 11 الصادر في 28 جويلية 1907 عن عزم صاحبها على إصدارها، فلمّا احتجبت المنير في سبتمبر من تلك السنة وصدرت التقدّم بالفعل في شهر جويلية من العام المذكور اتصل صاحب المنير بصاحب التقدّم وكان هذا الأخير في حاجة إلى من يساعده على ترجمة ما يحتاج إلى نشره ممّا تكتبه الصحافة الفرنسيّة هنا وبباريس.

انخرط المورالي في أسرة جريدة التقدّم وبدأ يعمل عملا تغلب عليه الهواية لا الاحتراف فلمّا جاء يوم غرّة جويلية سنة 1908 وصدرت التقدّم يوميّة أسندت رئاسة تحريرها إلى الفقيد ففتح بابا جديدا بالتقدّم اليومي عنوانه "حديث اليوم" تولى تحريره المورالي بالتناوب مع المرحوم محمّد الجعايبي مدير الصواب الأسبوعيّة.

التجربة الثانية

كانت هذه التجربة التي قام بها الفورتي عند إصداره جريدة التقدّم الأسبوعيّة يوميّة هي التجربة الثانية في تاريخ الصحافة العربيّة، أمّا التجربة الأولى فهي التي قام بها المرحوم حسين بن عثمان عند إصداره جريدة "الرشديّة" اليوميّة ابتداء من يوم 25 فيفري 1904[1]، كان بعض الناس يعتقدون أن هذه التجارب ستكلل بالنجاح خصوصا بعد نجاح التجربة الأولى وكان

الفورتي نفسه يعلق أملا كبيرا على مشروعه الجديد خصوصا وقد التفّ حوله صحفيّون شبّان مثقفون لهم تجربة صحفيّة ولكنّ الصحافة الاستعماريّة كانت بالمرصاد لهذه النهضة الصحفيّة.

وكانت الكتل الاستعماريّة لا فرق بين السياسيّة منها والاقتصاديّة تناصب التونسيّين العداء وتطالب بالقضاء على كلّ مشروع جديد لذلك لم تكد تمرّ بضعة أشهر على صدور التقدّم يوميّة حتى بدأت تظهر في الأفق بوادر الخيبة وشعر المورالي أنه في وضعه الجديد لا يستطيع البقاء على تلك الحالة ولذلك بدأ يبحث عن العمل الصحفي مع غير الفورتي وفي جريدة أخرى غير جريدة التقدّم.

التجربة الثالثة

كانت في تونس صحيفة قديمة نشأت في القرن الماضي هي جريدة الزهرة الأسبوعيّة التي صدرت سنة 1889 وكان صاحبها المرحوم عبد الرحمان الصنادلي يستعدّ للقيام بالتجربة الثالثة وجريدته تتمتع برضا الحكومة حيث تنشر فيها بعض الإعلانات الشرعيّة والعدليّة وخصوماتها مع الصحافة الاستعماريّة كانت قليلة ونادرة، وكانت إلى جانب ذلك جريدة الطبقة البورجوازيّة فالعمّال والقضاة والعدول من مشتركيها ولو جهلوا القراءة والكتابة بالعربيّة، وتنفيذ هذا المشروع يتطلب البحث عن صحفي بورجوازي ينضمّ إلى أسرة الزهرة ويكون من أبرز العناصر العاملة فيها عندما تصبح يوميّة، وكان الصنادلي يرى في المورالي المقدرة والنزاهة والقناعة فخاطبه في الانضمام إليه. ولأسباب ليس هنا محلّ شرحها. فارق المورالي أسرة التقدم اليوميّة وانضمّ إلى أسرة الزهرة اليوميّة وذلك بداية من غرّة نوفمبر سنة 1908.

استمرّ الفقيد في العمل مع المرحوم عبد الرحمان الصنادلي مدّة وجيزة حيث إنّ الزهرة اليوميّة لم يطل أمدها وعادت

أسبوعيّة فانقطع عنها ثم عاد إليها من جديد سنة 1911 عندما عطلت الحكومة جميع الصحف العربيّة إثر حوادث الزلاج.

تعطيل الصحافة

لأوّل مرّة في تاريخ الصحافة العربيّة التونسيّة تعطل الصحافة جميعها إثر قرار صدر يوم 7 نوفمبر 1911 اعتمادا على ما ادّعته حكومة الحماية بالدفاع عن الأمن وحفظ الأرواح، فقد كانت حوادث الزلاج بداية لسلسلة من الأحداث الكبرى في تاريخ المغرب العربي الكبير إذ احتلت القوات الإيطاليّة القطر الليبي، واحتلت القوات الفرنسيّة القطر المغربي ثم أعلنت الحرب العالميّة الأولى (1914 . 1918) وأدخلت تونس ضمن المتحاربين رغم أنفها وبذلك أصبحت أنفاس التونسيّين محسوبة عليهم لا يقدر أي تونسي على الجهر بأيّ شيء يهمّ السياسة أو يطالب بأيّ إصلاح اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي بل كان عليهم أن يدفعوا بخيرة أبنائهم لأتون الحرب دفاعا عن فرنسا وأن يقدّموا كلّ ما تنتجه تونس في ميادين الزراعة والصناعة والمناجم لفرنسا ولمن تحزّب معها في الحرب، وزاد التنكيل بالتونسيّين عندما انضمّت تركيا إلى ألمانيا حيث اتهموا بموالاة الأتراك ضد المتحزّبين.

اضطرّ الفقيد وزملاؤه إزاء هذا الوضع إلى الابتعاد قدر الإمكان عن ميدان الصحافة اللهم إلا مساعدات يسديها إلى زميله الشيخ عبد الرحمان الصنادلي الذي بقيت جريدته الوحيدة تعيش بتونس من سنة 1912 إلى سنة 1920.

بعد الحرب

أعلنت بعد الحرب مبادئ الرئيس ويلسون في تقرير مصير الشعوب وجاء إلى تونس مقيم جديد هو (فلاندان) وأعلن ميثاقه المشهور إثر المقابلة التي أجراها مع الوفد المنتخب

التونسي لإعطاء تونس مقابلا عمّا قامت به لفائدة فرنسا ومن معها أثناء الحرب.

يقـود مظاهـرة

كان التونسيّون يتشوّفون إلى ما عسى أن تحصل عليه الشعوب التي خاضت غمار الحرب، وكانوا في شوق إلى معرفة مصير السلطنة العثمانيّة والأقطار التابعة لها وقد انتهت الحرب بانكسار ألمانيا واندحار من انضمّ إليها وفي الطليعة تركيا.

وعندما كان التونسيّون يترقبون الأخبار المسرّة عن دار الخلافة العثمانيّة إذ أسلاك البرق تحمل إليهم ما أزعجهم، ذلك أنّ المتحزّبين احتلوا الآستانة عاصمة الدولة التركيّة وأنّ القائد فرنشي دسبيري الفرنسي هو الذي قاد تلك الحملة، فتولاهم الجزع الأكبر وظهرت آثار هذا الجزع في المظاهرة السلميّة الكبرى التي قادها الفقيد حيث توجّه مع المتظاهرين إلى سفارة فرنسا بتونس لإبلاغ استيائهم من احتلال الآستانة وعند الوصول إلى السفارة تقدّم صاحب المنير إلى السفير وسلمه نصّ عريضة الاستياء حسبما أعلمت به جريدة المنير بعددها 40 الصادر في 15 مارس سنة 1920.

مع نـقابـة الصحـفيّين

أسّس الصحفيّون الفرنسيّون بتونس نقابة صناعيّة تضمّ ممثلي الجرائد ونوّاب شركات الأخبار، ولم يكن ضمن هيئة النقابة المذكورة من يمثل الصحافة العربيّة التونسيّة، وآخر اجتماع عقدته تلك النقابة كان في شهر ماي 1914.

ولمّا ارتفع الحجز عن الصحافة إثر انتهاء الحرب العالميّة الأولى (1914 . 1918) رأى الصحفيّون بزعامة كاربانتيي مدير ومؤسّس لادبيش تونزيان أن يستأنفوا نشاطهم النقابي وأن يفتحوا الباب أمام زملائهم رجال الصحافة العربيّة فعقدوا جلسة عامّة بقاعة نزل الماجستيك بشارع باريس بتونس عشيّة

يوم الخميس 22 أفريل سنة 1920 دعوا إليها بعض الصحفيّين التونسيّين وحضر منهم المرحومون محمّد الجعايبي صاحب جريدة الصواب وعزّوز الخياري صاحب جريدة ترويح النفوس والشاذلي المورالي صاحب جريدة المنير والسيّد الطيّب بن عيسى شيخ الصحفيّين الأحياء حفظه الله، وفي هذه الجلسة انتخب الفقيد المورالي ممثلا رسميّا للصحافة العربيّة بتلك النقابة ونشرت صورته مع زملائه الصحفيّين بمجلة تونس المصوّرة الصادرة يوم 25 أفريل سنة 1920.

كان هذا الوضع الجديد للصحفيّين التونسيّين حاملا لهم على التفكير في طرق الأبواب الموصدة أمامهم عن طريق النقابة المذكورة وغيرها، إذ تكوّن جوّ جديد من شأنه أن يحمل التونسيّين على التفاؤل في مستقبل أفضل وشجّعهم على ذلك الشعور العام الذي ساد كلّ الأوساط وهو التحفز للمطالبة بإعطاء حريّات للشعب التونسي، ذلك الشعور الذي تلته إنجازات أهمّها إيفاد مبعوث عن الشعب التونسي إلى باريس ليقوم بالدفاع عن الرغائب التونسيّة ويمهّد طرق التفاهم مع النوّاب الفرنسيّين والرأي العام الفرنسي.

هذا المبعوث هو المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي سافر من تونس إلى باريس يوم 10 جويلية سنة 1919 وهناك بدأ عمله بنشر كتابه تونس الشهيدة الذي كان لنشره الصدى البعيد في مختلف الأوساط السياسيّة العالميّة والفرنسيّة.

تأسيس الحزب

عندما تأسّس الحزب الحرّ الدستوري التونسي في 14 مارس سنة 1920 انخرط فيه قدماء الصحفيّين سواء كانوا من أصحاب الجرائد كالصواب ومرشد الأمّة والمشير والمنير أو محرّرين بعدّة صحف كالسيّد حسين الجزيري وغيره، وكان القصد من هذا الانخراط تدعيم الحركة السياسيّة أوّلا وإيجاد

سند قويّ لهم يعتمدون عليه في القيام بعملهم الصحفي وهو الحزب الذي أسّس حديثا ثانيا، وكان العمل الصحفي مشوبا بعدّة أخطار والجوّ السياسي بتونس غير قارّ ولم تكن هناك أيّة ضمانات للعمل الصحفي.

تقرير عن الصحافة العربيّة

اغتنم الصحفيّون التونسيّون فرصة ذهاب الشيخ الثعالبي إلى باريس فاجتمع ثلاثة منهم وهم المرحومان محمّد الجعايبي صاحب الصواب والشاذلي المورالي صاحب المنير والسيّد البشير الخنقي صاحب لسان الشعب حفظه الله بمحلّ مدرسة السلام القرآنيّة التي أسّسها صاحب المنير بالمكان المعروف بدريبة ابن الزّاي الكائن بنهج المنستيري بتونس، وهناك حرّر ثلاثتهم تقريرا عن الصحافة العربيّة التونسيّة وما تلاقيه من طرف الحكومة والجالية الفرنسيّة من صعوبات وطالبوا بوضع حدّ لتلك التصرّفات وإعطائها على الأقل نفس الضمانات التي تتمتع بها الصحافة الفرنسيّة بتونس.

وترجم الفقيد المورالي هذا التقرير إلى الفرنسيّة ووجّهه إلى مندوب الشعب التونسي وممثله بباريس المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي تولى توزيعه ونشره لدى مختلف الدوائر وعلى وفود الأمم التي جاءت لحضور الاجتماع العالمي الذي سينعقد تلبية لنداء الرئيس الأمريكي ويلسون الذي نادى بمبدإ حريّة تقريرمصير الشعوب.

عـودة المنيـر

فكر الفقيد في إعادة نشر جريدته المنير من جديد إثر إعلان حريّة إصدار الصحف، واعترضته صعوبة أولى وهي عدم وجود مطبعة تتكفل بطبع جريدته لأنّ المطبعة التونسيّة التي كانت تطبع المنير قبل الحرب أصبحت منشغلة بطبع جريدة الزهرة اليوميّة وحدها.

حاول صديقه وزميله السيّد البشير الخنقي أن يسهّل له مأموريّة الطبع بمطبعة فينزي الكائنة إلى الآن بنهج روسيا عدد 4 حيث تطبع جريدة غصن البان لصاحبها السيّد علي النجّار ولكنه لم يرض بالطبع فيها واستنكف أن تطبع المنير مع غصن البان في مطبعة واحدة.

لكن من حسن حظ الصحفيّين التونسيّين أنّ السيّد محمّد بلحسن ومن معه قد أسّسوا المطبعة الأهليّة الكائنة بنهج الديوان عدد 5 وهذه المطبعة تعهّدت بطبع المنير الذي صدر عدده 13 يوم 22 شوال سنة 1338هـ الموافق 8 جويلية 1920م واختار المورالي أن يتابع أعداده ولم يشأ أن يبدأ سلسلة جديدة كما فعل فيما بعد ولكنّ جريدته في هذه المرّة كانت ذات ورقة واحدة.

في هذا العهد الجديد ظهرت وجوه جديدة وأقلام جديدة تحرّر المنير فمن هؤلاء الشيخ الشافعي بن محمّد الشريف المدرّس بنفطة الذي نشر سلسلة من المقالات تحت عنوان"رقيّ الأمم وانحطاطها في نظر القرآن" ومنهم الكاتب الصحفي المشهور الشيخ إبراهيم ابن الحاج عيسى (أبو اليقظان)[2] الذي نشرت له قصيدته عن الصحافة ومقاله الذي عنوانه"حياة الأمم بحياة لغتها".

الاتجاه السياسي

ما كاد الشيخ الثعالبي يشرع في اتصالاته مع النوّاب الفرنسيّين وغيرهم وينير أمامهم الطريق حتى ألصقت به تهمة التآمر ضدّ أمن الدولة وأعيد إلى تونس عن طريق الحراسة المشدّدة ووضع بسجن القصبة العسكري على ذمّة التحقيق بدعوى التآمر ضدّ أمن الدولة، في تلك الآونة قرّر الحزب إرسال مندوب آخر ليقوم مقامه في الدعاية وهو السيّد فرحات بن عيّاد وذلك سنة 1921، وبينما هو قائم بعمله هناك حدث انقسام داخلي في الحزب وظهر في الأفق السياسي حزب

جديد تزعّمه الأستاذ حسن قلاتي وعرف بالحزب الإصلاحي لأنه أيّد الإصلاحات التي جاء بها مقيم فرنسا بتونس لوسيان سان وعرضها على الباي محمّد الحبيب وأمضاها يوم 13 جويلية 1922، وسافر الأستاذ قلاتي إلى باريس وحاول أن ينشر دعاية مؤدّاها أنّ الأمّة التونسيّة راضية بالإصلاحات المذكورة الأمر الذي اضطرّ معه الحزب بتونس إلى تحرير عدّة عرائض وجّهها إلى نائبه فرحات بن عيّاد لتفنيد مزاعم قلاتي وجماعته، وفعل مثل ذلك الصحفيّون التونسيّون حيث وجّهوا له العريضة التالية: "إلى السيّد فرحات بن عيّاد نائب الأمّة التونسيّة (قراند أوتيل بولفار دي كابوسين عدد 12 باريس) إنّ الأمّة التونسيّة وفي مقدّمتها نخبة من أبنائها تجدّد لكم الاعتراف بالنيابة عنها مع الشكر الجزيل وتتبرّأ تبرّؤا تامّا من كلّ ما يجريه حسن قلاتي من المسائل السياسيّة بدعوى النيابة عن الأمّة التونسيّة".

الطيّب بن عيسى (الوزير) محمّد الحبيب (مجلة البدر) سليمان الجادوي (مرشد الأمّة) محمّد الشاذلي المورالي (المنير) علي كاهية (مجلة الفجر) الصادق الرزقي (إفريقيا)، في 2 أكتوبر 1922.

الحزب الدستوري المستقلّ

بعد الانقسام في الحزب حدث انفصال جديد ذلك أنّ السيّد فرحات بن عيّاد رغما عن كونه سار سيرة مرضيّة في أوّل الأمر إلا أنه أخذ يتثاقل عن مكاتبة الحزب ومكاشفته بجليّة الأمور، فكان يرسل مكاتيب موجزة مهملة الإمضاء والتاريخ تتضمّن طلب المال مع كلمات مبتورة لا تفيد الحزب شيئا، ولم يظهر لما بها من أثر، الأمر الذي حمل كثيرا من الأعضاء على طلب استقدامه في ديسمبر 1921 ولم يقع ذلك بعد إنذاره، وبالجلسة الخارقة للعادة التي عقدها الحزب في جوان 1922 تقرّر استقدامه أيضا مع

إشعاره بأنه إذا امتنع عن القدوم تسلب منه صفة النيابة ويقطع عنه المدد، وحضر هذه الجلسة صاحب المنير وعلى إثر ذلك أرسل له الحزب حوّالة بريديّة بها لوازم العودة إلى تونس، ورغم ذلك لم يعد إلا يوم 19 نوفمبر 1922 أي بعد أن قرّر الحزب بجلسته التي عقدها يوم 11 نوفمبر المذكور سلب صفة النيابة عنه بالإجماع ورفته من الحزب.

بعد هذه العودة التفت حوله جماعة من بينهم صاحب المنير وقرّروا تأسيس حزب سمّوه الحزب الحرّ الدستوري التونسي المستقلّ ومن مبادئه:"لا رئيس ولا مرؤوس ولا مال".

كانت جريدة المنير هي إحدى الصحف الناطقة بلسان هذا الحزب وشرعت في بث الدعاية له، من ذلك المقال الذي نشرته بعددها 68 الصادر في 16 مارس 1923 الذي نوّهت فيه بالأعمال التي قام بها فرحات بن عيّاد لفائدة الشعب التونسي بباريس وتسبّب هذا الموقف في صدور قرار عن الحزب يقضي بإبعاد صاحب المنير عن الحزب وكلّ من انضمّوا إلى الحزب المستقلّ، لكن صدر هذا القرار بعد فوات الوقت لأنّ صاحب المنير كان أعلن بالعدد 63 من جريدته الصادر في 27 أكتوبر 1922 انسلاخه عن الحزب القديم وانضمامه إلى حركة ابن عيّاد.

عمل ثقافي

قبل أن يندفع الفقيد في مغامراته السياسيّة أنشأ مدرسة قرآنيّة حرّة سمّاها مدرسة السلام سنة 1919 واختار لها أوّلا محلا يعرف بدريبة ابن الزّاي بنهج المنستيري ثمّ انتقل منه إلى المحلّ الكائن بنهج باش حانبه زنقة باش حانبه عدد 1 بتونس، والذي شجّعه على ذلك هو الإرسالية الثقافيّة الميزابيّة التي كان يرأسها الشيخ إبراهيم اطفيش حيث كان جلّ تلاميذ مدرسته من تلك الإرساليّة، فلمّا حدث خلاف بينه وبين الشيخ اطفيش وسحب هذا الأخير أفراد البعثة الراجعة له بالنظر من مدرسة

السلام فشل مشروعه، وعند نفي الشيخ اطفيّش وإبعاده إلى مصر اتهمت جريدة العصر الجديد الفقيد بأنّ هذا النفي يعزى لصاحب المنير لخلاف حزبي حسبما هو مبسوط بالعدد 128 من جريدة العصر الجديد الصادر يوم 10 مارس 1923.

لم تقدر مدرسة السلام على البقاء بمقرّها الجديد لانقطاع المدد عنها فاضطرّ صاحبها إلى إدارة جمعيّة الأوقاف التي سلمت له كتابا بنهج المرّ من حيّ باب منارة أدخل عليه بعض التحسينات وجلب معه أحد أقربائه واقتصر فيه على تعليم مبادئ القراءة والكتابة باللغتين العربيّة والفرنسيّة في مقابل المنحة التي كانت تسلمها إدارة التعليم العمومي للمدارس القرآنيّة الحرّة، وقد انتفع الفقيد بهذا الوضع إلى أن أحيل على الراحة من التعليم في صائفة عام 1954 وقرّر له صندوق المدارس القرآنيّة منحة سنويّة مبلغها مائة دينار كانت له ذخرا في أخريات أيّام حياته.

العمـل الصحـفي

لم يشغله العمل الثقافي وهو الإدارة والتعليم بالمدرسة القرآنيّة الحرّة التي أسّسها منذ عام 1919 وفارقها في عام 1954 عن الاشتغال بالصحافة فالمنير لم يعطلها تماما وإنما أبقاها تصدر من حين لآخر ولو مرّة في كلّ ثلاثة أشهر وحاول أن يجعلها مجلة شهريّة فكانت ولكن على غاية من الهزال، واستعان على هذا النشر بعمله الذي أسند إليه بإدارة جريدة النهضة اليوميّة حيث باشر فيها تعريب الأخبار اليوميّة وبعض المقالات وذلك من سنة 1924 إلى سنة 1934، وفي مطبعة النهضة يطبع المنير بداية من عدده 29 الصادر في 25 فيفري 1921 وانتقلت إدارته إلى إدارة ومطبعة النهضة عند انتقالها إلى نهج باب سعدون عدد 19 بتونس وذلك من تاريخ 7 جوان 1930.

محاولة فاشلة

حاول الفقيد أن يكون عضوا نائبا بالمجلس الكبير في دورة سنة 1934 وترشح للنيابة ونشر برنامجه بالعدد 32 من جريدته المنير الصادر في 17 مارس 1934 ولكنه لم ينجح وكان ذلك آخر عدد صدر من المنير.

أدبه

لم نطلع بالمنير الجريدة أو المجلة على أدب الفقيد اللهم إلا أبياتا رثى بها أستاذه الشيخ صالح الشريف عندما جلب جثمانه من ألمانيا ودفن بالزلاج نشرها بالعدد 15 من المنير الصادر في 5 أوت 1920 وهي من الشعر المهلهل[3].

كما نشرت له مجلة الشبّان المسلمين بعددها الثالث الصادر في شهر ماي 1947 قصيدة في الوعظ والإرشاد عنوانها "في سرّ الخليقة" مطلعها:

انظر هديت لعالم الإنسان
متقربا للخالق الديّان

أمّا أبحاثه النثريّة فلم نطلع منها إلا على الخطاب الذي ألقاه بضريح الفقيد عبد الله ابن أبي زيد بالقيروان ونشره بالمنير في 16 أفريل 1932 وذلك بمناسبة الحفل التذكاري الذي أقامته الجمعيّة الخلدونيّة لتأسيس القيروان.

---

* "الصباح" بتاريخ 9 و16 ماي 1963.

1) ذكر محمد حمدان في دليل الدوريات أن أوّل عدد صدر من الرشديّة كان بتاريخ 13 سبتمبر 1904 نقلا عن دي طرازي.

2) عنه انظر: "من روّاد الإصلاح بالمغرب الكبير، الشيخ أبو اليقظان" للصّادق بن مرزوق، جريدة الصباح بتاريخ 21 أفريل 1973 و"لمحة تاريخية عن شيخ الصحافة المرحوم أبو اليقظان إبراهيم" ليوسف الباروني، جريدة الصباح بتاريخ 15 أوت 1974 و"الشيخ أبو اليقظان ونضال الكلمة" لمحمّد ناصر، مجلة الثقافة الصادرة عن وزارة الإعلام

والثقافة بالجزائر، السنة الرابعة العدد 21، سنة 1974، و"الشيخ إبراهيم أبو اليقظان (1888 . 1973) المصلح الصحفي" لعبد القادر بومعزة، جريدة البصائر ع140 بتاريخ 21 . 28 أفريل 2003 و"الشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن عيسى" لعيسى بن محمّد الشيخ بالحاج، جريدة البصائر ع234 بتاريخ 4 . 11 أفريل 2005 و"أعلام الصحافة في الوطن العربي" نشر الألكسو، تونس 1997، الجزء السادس المجلد الأوّل ص 80.

3) للمورالي قصائد منشورة في جرائد الصواب بتاريخ 1 مارس 1907 والزهرة بتاريخ 1 نوفمبر 1915 والنهضة بتاريخ 22 نوفمبر 1933.

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



أبـو الحسن ابن شعبان*

(1897 ـ 1963)

في اليوم الحادي عشر من شهر ماي الحالي فقدت تونس أحد أعلام التربية وهو المغفور أبو الحسن ابن شعبان.

ملأ اسمه مجلات معاهد التعليم والتربية بين ابتدائيّة وثانويّة وتخرّج على يديه عدد كبير من المعلمين والمعلمات ونشرت الصحافة العربيّة الكثير من شعره ونثره منذ نصف قرن فكان في أكثر ما نشر له مجيدا فيما طرق من موضوعات. عرفته الجمعيّات والنوادي الأدبيّة والفنية باحثا ومفكرا وناقدا، فكان ليّن العريكة نافذ البصيرة رضيّ الخلق حلو الحديث حسن المحاضرة، واستمع الناس إلى أحاديثه المذاعة في تفسير القرآن والتاريخ التونسي بلغة تفهمها مختلف طبقات الشعب نساء ورجالا.

عائلته ومـيـلاده

ينسب الفقيد إلى عائلة (بلديّة) من مدينة تونس كان أوائلها من الزهّاد ومشائخ الزوايا (القادريّة) فهو أبو الحسن بن صالح بن محمّد (بالفتح) ابن شعبان ولد بمدينة تونس بالدار الكائنة بنهج السيّدة عجولة خلف الزاوية القادريّة بنهج الديوان سنة 1897 كان جدّه إماما لجامع باردو أمّا أبوه فكان صاحب (نيشان) بسوق الشواشيّة.

تعليمـه

حفظ القرآن وزاول تعليمه بجامع الزيتونة ومن شيوخه محمّد النخلي ومحمّد بن يوسف ومحمّد النجّار ومحمد بن الصّادق بن القاضي، فعلى الأوّل درس اللغة والتفسير وعلى الثاني الفقه والتوحيد وعلى الثالث أصول الفقه وعلى الأخير النحو والمنطق والبلاغة.

تخرّج في الزيتونة بشهادة التطويع في العلوم سنة 1914 وكان من الضروري أن يتابع تعليمه هناك علّه يصبح مدرّسا. ابدأ يقرئ الدروس مجانا بجامع الزيتونة من سنة 1915 إلى سنة 1921 فأقرأ في النحو كتب المرتبة الأولى إلى أن ختم المكودي على الألفيّة، وفي البلاغة ختم كتاب الجوهر المكنون وفي المنطق ختم كتاب السلم بشرح الملوي.

البحث عن العمل

كان الإقراء بالزيتونة مجانا وقد طال أمده وكان على الفقيد أن يسعى للتحصيل على كسب يتولى منه الانفاق على الزائد الضروري الذي لم يكن يجده في دار أبيه.

وحدث أن شغرت خطة شيخ مدرسة العنقيّة التي كان يشغلها الشيخ الطيّب سيالة سنة 1918 وكانت جرايتها الشهريّة 25 فرنكا فقدّم فيها طلبا لإدارة التعليم عن طريق جدّه ولوحظ على هذا الطلب من طرف الكتابة العامّة بما يقتضي تحتم إجابته ولكن م.شارليتي مدير التعليم العمومي قد سبق منه وعد بإعطاء المشيخة لغيره قبل اتصاله بطلب الفقيد وهنا وجد المرحوم الأستاذ الصّادق التلاتلي الحلّ المناسب بوصفه متفقدا للتعليم الابتدائي ذلك أنه كلفه بالتعليم بمدرسة نهج سيدي الصوردو الابتدائيّة ساعة بعد الزوال في كلّ يوم حتى يتفرّغ لعمله بالزيتونة بين تعلم وتعليم في الصباح، وكان المقابل المعيّن له عن هذه الساعة هو نفس جراية مشيخة المدرسة التي

حرم منها، وفي السنة الموالية وهي سنة 1919 أضيفت إليه ساعة ثانية وأصبحت جرايته تساوي جراية مؤدّب بالمدارس الابتدائيّة.

ومن تلاميذه الذين تخرّجوا عليه بهذه المدرسة السادة الشريف ميدون وبلحسن الأخوة وعلي بن مراد وكلهم قد نال التدريس بالزيتونة فيما بعد.

تعرّفه بالأستاذ التلاتلي

كان لتعرّف الفقيد بالأستاذ الصّادق التلاتلي أثر لا يعرفه من الناس إلا القليل وقد حدثني عنه المرحوم ابن شعبان يوم كنا نجتمع بنادي الأربعاء بمقهى النصر التي كانت بشارع الحبيب بورقيبة خارج باب البحر من مدينة تونس، فقد قال لي يوم أربعاء في جانفي سنة 1951 على الساعة السابعة مساء بأنّ الأستاذ التلاتلي قرّر أن يضع كتبا للقراءة يتابع بها التعليم المعلمون والمؤدّبون بالمدارس الابتدائيّة مثل كتب إبراهيم ريدان بمصر الذي ألف الطريقة المبتكرة.

ففاتح في الموضوع المرحوم محمّد مناشو وقدّم له تصميما يحتوي على ثلاث مراحل صاغها الشيخ مناشو في ثلاثة أجزاء سمّيت بالطريقة العصريّة ووضع عليها اسم الأستاذ التلاتلي، وكلف الراحل ابن شعبان بالوقوف على طبعها وتصحيحها وذلك مكافأة منه لجميل الأستاذ التلاتلي.

مدرسة ترشيح المعلمين

لمّا فكرت الحكومة في تعويض المدرسة العصفوريّة التي يتخرّج فيها المؤدّبون بمدرسة أوسع نطاقا منها في سنة 1920، أسّست فرعا لمدرسة ترشيح المعلمين دعته الفرع الإسلامي وأسندت إدارته إلى الأستاذ التلاتلي وكلف بانتخاب من يراه صالحا للتعليم بهذا الفرع فوقع اختياره أوّلا على الأستاذ الشيخ محمّد البشير النيفر، ولمّا عرض على الفقيد ابن

شعبان التعليم هناك لاحظ له بأنه يوجد من هو أولى منه بهذه الخطة وهو الشيخ بلحسن النجّار فوقعت هذه الملاحظة الوقع الحسن من الأستاذ التلاتلي وزاده ذلك إكبارا للشاب الظريف كما يقول شيخنا المرحوم الأستاذ محمّد العربي الكبادي عن الشيخ ابن شعبان.

ولم يمض على هذا الحادث إلا عامان فقط تقرّر أثناءهما إحداث خطة أخرى بمدرسة الترشيح في سنة 1922 وهنا كان المرشح لها بلا منازع الفقيد ابن شعبان.

الرعيل المدرسي

لقد استطاع الفقيد وهو بابتدائيّة سيدي الصوردو أن يتخرّج على يديه رعيل من الزيتونيّين، كما تمكن وهو بالفرع الإسلامي لمدرسة الترشيح أن ينشئ شبابا مثقفا ومحبّا للعربيّة وعاملا لإحياء مجدها ملمّا بالشعر ومحبّا له.

ولا نستطيع حصر الأسماء فقد تخرّجت على يديه طبقات، إنما نشير هنا إلى أسماء بارزة منها من لاقى ربّه ومنها من يعمل في الميدان الثقافي حتى اليوم ومن هؤلاء وأولئك محمّد البشروش ومحمّد الحليوي وعمر الجمالي ومحمّد زيد وأحمد اللغماني وعلي بن هادية وفرج الشاذلي الخ... ولا شكّ أنّ الأحياء من هؤلاء سيؤبّنونه يوم يدعون لأربعينيّته.

مدارس أخرى

لم تأخذ مدرسة المعلمين من الفقيد كامل جهده الثقافي بل كان إلى جانب عمله هناك يقوم بتعليم الإنشاء والأدب العربي في بعض المدارس الأخرى من ذلك انتدابه لتعليم العربيّة سنة 1927 بالمدرسة الخلدونيّة فكان يعلم فيها العربيّة لأبناء مدرستي ليسي كارنو والعلويّة والإنشاء للزيتونيّين كلّ ذلك بعد الساعة الخامسة مساء.

وانتدب سنة 1929 لتعليم العربيّة بالمدرسة الفنيّة الثانويّة الواقعة خارج باب العلوج بمدينة تونس، يباشر التعليم فيها لتلاميذها المقيمين (البيّاتة) صباح يوم الأحد وصباح ومساء يوم الجمعة. واستمرّ في التعليم بها طيلة 15 سنة إلى جانب تعليمه العربيّة في المدارس والمعاهد المارّ ذكرها.

سنة 1928 ترشح للقيام بدروس في الديانة الإسلاميّة تتناول الفقه وأصول العقيدة والدين وذلك بمدرسة ليسي كارنو الثانويّة بتونس، فباشرها عن جدارة فائقة، وهذه الخطة أنشئت بطلب من أحد أعضاء المجلس الكبير وهو الأستاذ مصطفى الكعّاك بناء على وجود راهب يدرّس أصول الديانة المسيحيّة بتلك المدرسة لأبناء النصارى والمسيحيّين واليهود المتجنسين بالجنسيّة الفرنسيّة.

وأعطى المثل الحسن في خطته هاته، فكان إقبال التونسيّين على دروسه لا يعادله إقبال المسيحيّين على دروس الراهب رغم وجود الفارق بين هؤلاء وأولئك في الكثرة والقلة وهذا طبيعيّ بالنسبة للفقيد لما امتاز به من الظرف والمجاملة حتى لتلاميذه الصغار فكان يعطف عليهم وكانوا يحبّونه حبّا جمّا.

في مدرسة ترشيح المعلمات

كانت مطالبة التونسيّين بتعليم المرأة إلى جانب الرجل قد تضاعفت سنة 1944 إثر انتهاء الحرب العالميّة الثانية والبنت التونسيّة كانت تتلقى تعليما ابتدائيّا منقوصا أمّا التعليم الثانوي فكان بابه مغلقا دونها إلا في بعض المدارس الفرنسيّة الحكوميّة أو الحرّة وبنات الذوات من يلجأن إلى مدارس الراهبات كنّ يلجأن إلى مدارس الراهبات الحرّة لتلقي تعليمهنّ بها.

أما التعليم الثانوي بالعربيّة فلم يتجرّأ على إبرازه للوجود إلا الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور شيخ الجامعة الزيتونيّة حفظه

الله حيث أسّس فروعا لجامع الزيتونة بمدينة تونس أوّلا ثم بغيرها من أمّهات المدن كسوسة وصفاقس للبنات المسلمات.

وكان هذا العمل حافزا لإدارة التعليم العمومي على تطوير مدرسة البنات المسلمات التي أنشأها أبو النهضة التونسيّة المرحوم محمّد البشير صفر سنة 1904 وهي التي منحها بوصفه رئيسا للأوقاف دار الوزير مصطفى بن إسماعيل الكائنة بنهج الباشا فأصبحت مدرسة ثانويّة عصريّة تتابع فيها البنات المسلمات تعليمهنّ الثانوي.

من هنا جاءت فكرة إنشاء مدرسة لترشيح المعلمات وذلك سنة 1945 على غرار مدرسة ترشيح المعلمين وكان من حسن حظ البنات المسلمات أن يختار لتعليمهنّ بهذه المدرسة أستاذ ماهر هو فقيدنا العزيز العلامة كما يقول عنه الأستاذ عثمان الكعّاك.

توديـع واستقبـال

وهكذا التأم جمع كبير من زملائه وكبار تلاميذه يوم 26 أكتوبر 1945 بإحدى القاعات الكبرى ليلتحق بالمعهد الجديد الخاصّ بترشيح المعلمات انضمّت إليهم نخبة من مقدّري نبوغه وعارفي فضله، فتحدّث الأستاذ أحمد المختار الوزير عن فلسفة الفقيد التعليميّة واستمعنا إلى قصيد الأستاذ الهادي المدني وآخر لأمير شعراء تونس محمّد الشاذلي خزندار.

أمّا تلاميذه فسمعنا من السادة فرج الشاذلي والحبيب صفر وعبد المجيد عطيّة وعلي بن هادية وأحمد اللغماني البديع من الشعر والنثر كما ألقى الفقيد المحتفل به قصيدا والمقام لا يسمح بنقل ما دار في هذا الحفل ممّا أشارت إليه الصحافة اليوميّة في ذلك اليوم وأكتفي ببيت واحد من قصيد الفقيد هو قوله:

للدين للعمل للأخلاق تجمعنا
ذي الدّار لا لاكتساب الجاه والمال

الفقيد والمرأة

اشتهر الفقيد بأنه من دعاة الحجاب عندما قال في قصيده المشهور:

صوني محيّاك صوني
عن خائنات العيون
واسدليه ستارا
يقيك شرّ الظنون
إنّ التحجّب زين
لِلُّؤلؤ المكنون

هذا القصيد الذي قاله منذ قرابة نصف قرن والذي قاله في ظروف كانت تملي عليه أن يقول ذلك لم يكن فيما بعد شرعته ومنهاجه بل أخذ يعمل ليزيل عن المرأة حجب الجهل والغباوة عندما سمحت له ظروفه بذلك أيضا.

فقد باشر تعليم البنات المعلمات من سنة 1945 إلى أن أحيل على المعاش في سنة 1959، وعلى يديه تخرّج جيل من البنات يحمل اليوم مشعل الثقافة ويتبوأ درجة ممتازة في المعاهد والمدارس والإدارات وكتابات الدولة.

ولم يقتصر نشاطه على تثقيف المرأة في ميدان التعليم الرسمي فقد فضّل عند انتدابه ليقوم بدروس في تفسير القرآن الكريم باللغة العربيّة المبسّطة أن يوجّه تلك الدروس إلى المرأة التونسيّة عن طريق الأثير وفعل مثل ذلك بالنسبة لدروس التاريخ الإسلامي الإذاعيّة.

وإذا تقدّم إليه أحد محرّري الصحافة الأدبيّة التونسيّة راغبا منه نشر شيء من شعره تراه يبادر بتقديم ما يهمّ المرأة، استمع إليه عندما يقول تحت عنوان جهود الأمّهات:

ألا مجد جهود الأمّهات
وما أسدينه من مكرمات

ذلك النشيد المدرسي الذي قدّمه إلى محرّر الزهرة الأدبيّة ونشره بعددها الصادر يوم 10 ماي سنة 1950.

أغراضه الشعريّة

تكاد تكون أشعار الفقيد أبي الحسن ابن شعبان محصورة فيما اعتاده الشعراء القدامى من الأغراض كالمديح والرثاء والوصف والغزل والحماس والوطنيّات، أمّا غير ذلك فشعره فيه قليل فيما نشر له من الشعر في الجرائد والمجلات التونسيّة.

مصادر الشعر

والمصدر الأساسي لشعر الفقيد هو ديوانه الذي قصّة فقده تدمي القلوب، فقد حدّثني الفقيد عليه الرحمة أنّه لمّا أصيب بعارض المرض الذي ألمّ به وأفضى إلى موته نصحه الأطبّاء بالانتقال بالسّكنى إلى مدينة حمّام الأنف طلبا للاستشفاء، وتلبية للنصيحة نقل معه ما هفّ وخفّ من الأثاث ومتاع البيت أمّا الكتب والتراث الأدبي فقد تركه بمحلّ سكناه بنهج سيدي خميس من درب بن عسّال بتونس. طالت إقامته هناك ولكن ذلك لم يقطع رجاءه في الحصول على الشفاء التام والعودة إلى تونس لذا لم ينقل كل ما تركه في داره، اكتفى بجلب بعض ما يحتاجه إلى حمّام الأنف من لوازم الحياة بواسطة خادم كان يستأجره لهذه الغاية، كان الخادم هو الواسطة في نقل لوزام البيت، وقد لاحظ عليه الفقيد أنه أصبح في حالة يسر غير عادي فتطرّقِ إليه الشكّ في أمانته، وقبل أن يفاتحه في الأمر انتقل من حمام الأنف إلى تونس ليتفقد محلّ سكناه بها.

وعند حلوله بالدار وجد خزانة كتبه أصبحت قاب قوسين أو أدنى من نفاذ ما بها من الكتب وكان من بين محتويات الخزانة الديوان الذي كان يعدّه للطبع منسوخا في دفتر ضخم ظنه الخادم كتابا فسرقه مع الكتب وفرّط فيه بالبيع.

عندها وعندها فقد أدرك الفقيد أنّ حسن الظنّ بالخدم لا يليق في كلّ زمان ومكان، فندم على ما فرط منه ولكن لا ينفع الندم، بحث عن المسروق ولكن بدون جدوى وكان ذلك سببا آخر من أسباب تحطيم بنيته وهدّ كيانه، وهكذا فقد الشيخ ديوانه ولم يبق لنا بعد وفاته إلا ما وجد من شعره في الأعوام الأخيرة. إذن فالمصدر الذي يمكن الاعتماد عليه الآن هو المنشور بالجرائد والمجلات التونسيّة من عام 1916 إلى عام 1961.

المديـح

تهاني الفقيد تستوجبها مناسبات عاديّة من إسناد خطة جديدة أو ترقية لا فرق فيها بين أمير ووزير أو صديق وحبيب أو عظيم وزعيم ولكنه مع المدح يتخلص إلى إسداء النصح فيما يدور من الأحداث في آونة المدح.

في شهر مارس سنة 1932 عندما هنأ الوزير الأكبر بالوزارة لفت نظره إلى القضيّة الزيتونيّـة:

مولاي إنك قد غدوت مؤمّلا
بعد الأمير لدرء كـل فـساد
فالدين والأخلاق كل منهما
يدعوك للإسعاف والإنـجاد
فأعِرهما سمعا وكن للكائد
ين إليهما ـ يا شهم ـ بالمرصاد
والمعهد المعمور قد ألقى إلى
عليك مـا بين الـورى بقـياد
فاطرح عليه عناية ورعاية
وأقم دعائـم صرحه المـناد
فهو الفخار المستديم لتونس
وهو المـنار وكـعبة القـصّاد

هو معقل الدين الذي قد صانه
صـون الأمـين قلائـد الأجـياد
وكذاك لم ينفك ينشر في الورى
جيلا يـلي جـيلا لـسان الضّاد
إلى أن يقـول:
قد كان أسبق في الوجود وقد تقا
صر عن نوال السّبق في الإيجاد
ومن العجائب أن يقال بأنّ في الإ
صلاح ما يفضي إلى الإفـساد
ويقال فيمن يرتجيه بأنه
يسعى لبـثّ الزّيـغ والإلـحاد
حاشا لدين النصح أن يرضى لنا
عـيشا نـكابده بلا استعـداد
ولكلّ عصر ما يليق به وكم
قـد جـدّ ما لـم يبـد للأجـداد
هذي هي الأحوال فلتقدّم لها
من صائب التفكير خـير زناد

وقد يكون مديحه غير متجه لشخص واحد ولكن لجماعة تعمل على صعيد واحد وفي ميدان من ميادين الإصلاح خذ لذلك مثلا لمّا اجتمع مؤتمر الآداب العربيّة بتونس سنة 1931 نظم الشاعر قصيدا يحيّي به رجال المؤتمر ونشره يوم 25 ديسمبر من تلك السنة ضمّنه الدفاع عن اللغة العربيّة فقال:

إن اللسان الذي جاء الكتاب به
وبثّ بين البرايا تلكمو النظـما
ولم يضق ذرعه عمّا أحيل له
من العلوم التي عمّت به الأمما

لم يعدم اليوم في التعبير مقدرة
ولا يـقـصر عـن إيـجـاد ما لـزما
لكنه لم يجد في الناطقين به
مـجامعا حـيّة تسـتـنـزل العـصـما
هبّوا بني يعرب من كلّ ناحية
هـبّوا وسـدّوا بـجدّ هاتـه الثـلـمـا
أيقدر الغرب عن إيجاد مخترع
ويـعـجز الشـرق عن إيجاد الكـلـمـا
عسى بمؤتمر الخضراء نبلغ ما
نرجو ونسدي إلى الفصحى به خدما
قد آن يا قوم أن نرقى بمنطقنا
قد آن يا قوم أن نستصرخ الـنوّمـا

الرثـاء

وإذا نظرنا إلى المنشور من المراثي التي صاغها الفقيد في عظماء الرجال وعلى الأخصّ من كانت له بهم صلة الأبوّة الروحيّة كالشيوخ الذين استفاد من علمهم أو الزعماء الذين كان لهم فضل السّبق في التبشير بالقضيّة التونسيّة نجده يستعرض في شعره مراحل الكفاح الثقافي أو الوطني في بناء القصيد ليكون جامعا شاملا سواء كان ذلك في ميدان الوطنيّة المحليّة أو في ميدان خير الإنسانيّة.

خذ لك أمثلة من مراثيه التي قالها في المرحوم محمّد البشير صفر سنة 1917 بمناسبة وفاته أو بمناسبة ذكراه العشرينيّة سنة 1937، وكذا التي قالها في شيخه سعد السطيفي[1] سنة 1916 أو في الرئيس الأمريكي ولسن سنة 1924.

ففي الأوّل يقـول :

حياة المصلحين لها الخلود
وإن ضمّت هياكلهم لحود

وهم في هذه الدنيا نجوم
لوامع يستنير بها الوجود
إذا لاحوا بناحية أضاؤوا
دياجيها وغادرها الخمود
هداة للأنام بناة مجد
ذوو جدّ تـقارنـه جـدود
مواطنهم بهم تشتدّ أزرا
ويعلو شأنها وبهم تسود
هم الأبنا الذين بهم نلاقي
من العيش المرفه ما نريد
وتونسنا ـ حماها الله ـ أمّ
لما تبغي من النبغا ولود
بنى المجد الأثيل لها بنوها
وما منهم لها إلا الودود
رجال أخلصوا فيما أتوه
وذي آثارهم لهمو شهود
وخيرهم (البشير) ومن تولت
له في كل صالحة جهود
أتى (صفر) من الأعمال قدما
بما لا يستطاع له جحود
أتى (صفر) بما أرسى المعالي
وكان له على الدهر الخلود
همام هـمّه إسداء نفع
وسعي في مصالحنا حميد
فكم أسدى إلى الخضراء فضلا
وأبصره الورى عنها يذود
فلا عجب إذا ما كان منا
له الإجلال والشكر المزيد

ولا عجب إذا ما نال ذكرا
يردّده له الأبد الأبيد

يتجاوب مع الأحداث

لم يجلس الفقيد في برجه العاجي كما يقولون ينظر إلى الأحداث وهي تمرّ من حوله ولا يعير لها التفاتا بل كان يتجاوب معها فتهزّ منه المشاعر ويتأثر بها أيّما تأثر وتصدر عنها انطباعاته الشعرية في أبهى الحلل وأجلاها.

استمع إليه وهو ينشد على رؤوس الملأ قصيده بمناسبة الطوفان الذي أصاب تونس في شهر ديسمبر سنة 1931:

أولى الأنام برأفة وحنان
من قد دهته طوارق الحدثـــان
وأحقّ إنسان بموفور الثنا
من بـادر المـنكوب بالإحـسان
وأجلّ ما يسدي الكريم من العطا
ما كان يـوم البـؤس والحـرمان
أين المغيث فقد ألمّ بتونس
ما لم يكن من قبل في الحسبان
أين المناصر للذين استهدفوا
لـنوائـب الإعـصار والطـوفان
فلقد دهاهم ما دها وأصابهم
ما قد أشاب نواصي الولدان

إلى أن يقول:

يا أهل تونس بادروا بالاكتتا
ب وكفكفوا من مدمع الحيران
حنوا على الغرقى فما الإنسان إن
سان إذا لم يتـصف بـحـنان

وتذكروا ما تفعل الإخوان في اليو
م العصيب لصالح الإخـــوان
من نام في دفء ولم يرحم أخا
فرش الثرى فاعدده في الحيوان
وأرى الكرامة تشمئز من الذي
لم يـلبّ يـوم الـرّوع بـالمعـوان
إذًا حلّ خطب بالبلاد فلا تكن
عن واجب الإسعاف بالمتواني
فاسعف بمال أو بجاه أوبغ
لّ طـيّب أو بانـعـطاف جنان
إن لم تعن في رزء غيرك كنت إن
حـلت بـك الأرزاء غير مـعان
والدّهر موفور الكوارث لم يفز
فـــيه امرؤ مهما اعتلى بأمان
إنّ التعاون في الشدائد خير ما
دفع الشدائد عن بني الإنسان

وتمرّ ثلاثون عاما على هذا الحادث الطبيعي الذي زعزع تونس وتأتي أحداث السياسة الاستعماريّة الغاشمة، تأتي معركة الجلاء التي ختمت في شهر أوت سنة 1961 بانتصار الشعب التونسي الذي لم يستعمل من أسلحته إلا سلاح قوّة الإيمان والدفاع عن الوطن ودفع جيش غاشم مسلح بأحدث الأسلحة الحربيّة من طيران ومصفحات ومدرّعات حربيّة.

هذا النصر المبين قد عبّر عنه الراحل الكريم بقصيد بليغ من نفس ميزان وقافية القصيد السالف، يقول في طالعه:

حدّث بإسهاب وحسن بيان
عمّا أتته عزائم الشجعان

واستوح شعرك من مشاهد خلدت
حسن بلا لحماية الأوطان
حدّث عن الحدث الذي قد أدهش الدّنـ
ـيا ودكّ معاقل الطغيان
حدّث بفخر عن حوادث ليلة
ليلاء كانت عبرة الأزمان
حدّث بما قد كان في بنزرت من
أبطالها يوم التقى الجمعان
جمع الطغاة المعتدين الصّائلي
ن حيالها بالإثم والعدوان
الغاصبين الدّار من أبنائها
والعابثين بحرمة الإنسان
جمع الشذاذ يجمع بينهم
غدر وتدفعهم يد الشيطان
راموا سفاها منعنا في أرضنا
من أن نمرّ بذلك الميدان
منعوا سفاها أن تسير جموعنا
نحو الولاية حرّة بأمان
واستنسروا وتطاولوا وتوعّدوا
من قد دنا بالويل والخسران
ظنّوا بأنّا مكبرون وعيدهم
أو نتقي منهم جناية جان
لكنهم قد أبصروا من جمعنا
ما لم يكن من قبل في الحسبان
قد أبصروا فيه الجموع جموعنا
متماسكين تماسك البنيان
مستبسلين يفضّلون الموت عن
ذلّ يراد بهم وهدم كيان

سل عنهم بنزرت يوم تظاهروا
ومضوا تباركهم يد الرحمان
هبّوا جميعا للّقا وسلاحهم
صدق اللقاء وقوّة الإيمان
جمع تآلف من جموع جمّة
بنسائهم والشّيب والشبّان
جمع يضمّ رعاتهم وسراتهم
والعاملين ونخبة الأعيان
لأنّ الحديد لباسهم فتقحّموا الـ
أسلاك أسلاك العدوّ الدّاني
قد حطموا الأسلاك بالأيدي الرّقا
ق وأنجزوا التحطيم دون توان
قد حطموا الأسلاك واحتملوا لظى
ماء العدا يلقى على الأبدان
يا ليلة طالت وأسفر فجرها
عن فوز آمال ونيل أمان
كنا ونحن العزّل في أثنائها
مستهدفين لألسن النيران
في كل ثانية تمرّ سليمة
نتوقّع الإيقاع بعد ثوان
سبحان من قد شدّ إزر كفاحنا
بالصّبر والأعداء في غليان
إنّ الشجاعة أن تكون لدى الشّدا
ئد رابط الأعصاب ثبت جنان
قالوا نريد الأمن لكن أمننا
في شرعهم ما كان في الإمكان
أين التمدّن والحفاظ وأين ما
فعلت بذور العلم في الأذهان

فمتى يساس بنو الزمان كما أرا
د إلاهنا بالعدل والإحـــسان
ويعيش هذا الكون في كنف الكرا
مة والصّفا والأمن والعمران

---

* "الصباح" بتاريخ 23 و30 ماي 1963.
نماذج من شعره منشورة في جريدة الزهرة بتاريخ 9 أوت و25 سبتمبر و7 نوفمبر 1916 و11 مارس 1917 و23 جانفي و15 أكتوبر 1918 وفي جريدة الزمان بتاريخ 28 نوفمبر 1932 وفي مجلة التعليم العربي.
عنه انظر: "أبو الحسن ابن شعبان كما يراه الدكتور الحبيب بلخوجة" عرض وتعليق عبد الرحمان الكبلوطي، جريدة العمل، ملحق أدب وثقافة بتاريخ 31 أكتوبر 1969.
** هو سعد بن قطوش السطيفي الجزائري، يقول عنه الشيخ محمّد العربي القروي في الإهداء الذي خصّه به في كتابه "أفضل الرسل وخيرة الصحب" بأنه "أوّل من أبدى رأيه في الإصلاح الزيتوني قبل أن تخلق فيه الآراء..."، ترجمت له جريدة الزهرة إثر وفاته في عددها المؤرخ في 4 سبتمبر 1916 ورثاه الشيخان أبو الحسن ابن شعبان في الزهرة بتاريخ 25 سبتمبر 1916 ومحمّد ابن القاضي بتاريخ 15 سبتمبر.



محمد فهمي عثمـــان*

(1896 ـ 1964)

ملاحظات حول ترجمته

سيّدي محرّر مرآة الساحل المحترم، وبعد فقد اطلعت بعددكم الثاني الصادر في شهر جويلية من العام الجاري ترجمة لفقيد الصحافة المرحوم محمّد فهمي عثمان كتبها الصديق الأستاذ إبراهيم بورقعة، وقد رأيت أن أضيف إليها بعض المعلومات أمكنني الحصول عليها من خلال الوثائق المخطوطة بخط يد الفقيد والتي حصلت على أكثرها حال حياته للصداقة التي كانت بيني وبينه.

نشاطه ببرلين إبّان الحرب العالميّة الأولى وبعدها لم يقتصر على العمل بسفارة الأفغان فقد كانت له نشاطات أخرى منها عضويّته بالنادي الشرقي الذي كان يضمّ زعماء العالم الإسلامي أمثال شكيب أرسلان والخضر حسين وصالح الشريف وإحسان الجابري وإسماعيل الصفايحي وغيرهم، وعضويّته تلك مكنته من إحاطة رجال النادي بكل ما يطلع عليه من الأحداث والأخبار الخاصة بتونس وعلى الأخصّ نشاط الوفد الدستوري الأوّل وما علقت به جريدة الطان الباريسيّة عن تصريح الكاتب العام لذلك الوفد وهو المرحوم الأستاذ حسّونة العيّاشي.

ففي رسالة من الفقيد وجهها من برلين بتاريخ 4 أفريل 1921 بسط رأيه في موقف التونسيّين بعد رفع حالة الحصار

وعمّا جاء بالفصل الثاني من الأمر الصادر بذلك، ونقل في هذه الرسالة النصّ الحرفي باللغة الفرنسيّة لتعليق جريدة الطان الباريسيّة الصادرة في غرّة أفريل 1921 وإليكم فقرة منها قال رحمه الله: "نعم لم يبال الشعب التونسي بالقنابل الجهنميّة أثناء الحرب الكبرى دفاعا عن حقوق غيره فكيف يولي الأدبار عندما يجب عليه المناضلة نحو حقوقه المقدّسة".

لم يقتصر نشاطه ببرلين على التبشير بالقضيّة التونسيّة بل كان يترجم ما تنشره الصحف الألمانيّة من الأصداء عن قضيّة تونس ثم يجمعها ويرسلها إلى رئيس الحزب الحرّ الدستوري عن طريق الصحفيّين.

وإليكم ما جاء في رسالته الصادرة عنه من برلين بتاريخ 7 نوفمبر 1922: "... بعد مصافحة يدكم الكريمة وإرسال عبارات التحيّة ترتيلا، أطلب منكم تقديم المقتطفات الملفوفة طيّ هذا بعد اطلاعكم عليها إلى جناب رئيس الحزب الحرّ الدستوري... أملي وطيد أنكم تغضّون الطرف عن هذه الكلفة، لأنني أتحقق أنكم تقبلون كلّ كلفة فيها فائدة للوطن...".

بالإضافة إلى ذلك كان الفقيد يقوم بمهمّة أخرى ذات فعاليّة في التبشير بما تقوم به تونس في محيط مجريات السياسة العالميّة نحو العالم الإسلامي. ومعرفة الفقيد لعدّة لغات مكنته من الاطلاع على كلّ الصحف التي تصدر بتلك اللغات بوصفه كاتبا ومترجما في سفارة الدولة الأفغانيّة ببرلين فكان يقوم بتعريب ما تنشره الصحف الأجنبيّة وإرساله إلى الصحافة العربيّة التونسيّة من أصداء العالم الإسلامي.

ومن الأمثلة التي يمكن ضربها في هذا الشأن المقال الذي كتبته جريدة الوزير عن الانتصارات الكماليّة ضدّ الجيوش المحتلة للبلاد العثمانيّة، فقد ترجم ذلك الفصل إلى اللغة الألمانيّة ونشره في إحدى الصحف ووجّه قصاصته إلى صاحب جريدة الوزير ضمن رسالته المؤرّخة في 22 فيفري 1923، وتحتفظ

المكتبة المهيديّة بهذه القصاصة كاحتفاظها بالرسائل المنقول عنها ما سطر في هذا المقال.

ننتقل بعد هذا إلى بعض نشاطاته الأخرى في الميدان القومي، منها أنه كان يتأسّف شديد الأسف لإهمال قبر فقيد الوطن العزيز المرحوم محمّد باش حامبه ببرلين فقد كان يتمنى أن توضع عليه رخامة منقوش عليها قصيد من أحد الشعراء التونسيّين، نجد ذلك واضحا جليّا في الرسالة الصادرة عنه بتاريخ 17 فيفري 1921 من برلين وإليكم بعض ما جاء فيها حول هذا الموضوع: "... لي اقتراح أظنّ أنكم لا تبخلون عن إنجازه وهو رغبتي من شعراء وطننا النبغاء مثل طائر الصيت بلبل تونس السيّد الشاذلي خزندار نظم بعض أبيات كي أنقشها على قبر من يبكيه القطر التونسي بأسره غريب الديار سيّدي محمّد باش حامبه ويعز عليّ والله أن يكون مرقد أخينا الأخير في ديار الغربة على حالة من البساطة والفقر وهو ذلك البطل الهمام الذي دافع عن الوطن بل العالم الإسلامي بأسره بأعزّ شيء وهو الحياة... هذا هو اقتراحي يا صديقي الحميم وأتمنى على الله إعانتي في أداء هذا الواجب نحو المرحوم والوطن، كما أنّ لي بشرى أزفها لكم هو أنني توفقت بإضرام يعني إحراق جميع المكاتيب (السر...) الواردة له من... ولم تقع بيد السفارة العثمانيّة التي هي الآن تحت مراقبة سفارة سويسرة...".

نقلنا هذه الفقرات من رسالة الفقيد وقد تناولت عدّة أغراض أخرى منها قضيّة تزويد الصحافة العربيّة بتونس بما تحتاجه من الورق الذي يصنع بأهمّ المصانع الألمانيّة المنتجة للورق والرسالة كما ترى أيّها القارئ تزيل الغطاء عن مآل تراث الفقيد العزيز محمّد باش حامبه بعد وفاته كما تعطي صورة صادقة عن استعداد المترجم له بدفع نفقات حفر ما ينظمه شعراء تونس ليوضع فوق قبره.

ومن نشاطات الفقيد أيضا ما كان يسعى في جلبه إلى البلاد التونسيّة من ألمانيا مدّة إقامته بعاصمتها برلين (المشطورة الآن

بين شرقيّة وغربيّة) وهو شراء مطبعة عصريّة وتجهيزها بأحرف عربيّة وأخرى تركيّة وذلك سعيا منه في نشر الثقافة عن طريق الطباعة وإليك أيّها القارئ ما جاء في رسالته المؤرّخة في 4 أفريل 1921 من برلين تحت عنوان الأحرف العربيّة:" كنت قبل هذا وجّهت لكم عيّنات أحرف عربيّة فهل راقت لكم؟ لا أقدر اليوم أن أعلمكم بثمنها حيث كانت في السنة الماضية 50 مارك للكيلو وهي المشكول والمسطرة باللغة العربيّة، 80 مارك الكيلو للمسطرة باللسان التركي، والمعمل مستعدّ لصنعها حسب ما يرد عليه الطلب من كلا النوعين، وكنت آنذاك عازما أنا والمرحوم فقيد الوطن (يعني محمّد باش حامبه) على شراء كميّة منها مع مطبعة ولكن مرضي حال بيني وبينها وأظنّ أنّ أسعارها اليوم نزلت".

وكانت للفقيد الكريم رغبة شديدة في ربط علاقات اقتصاديّة بين تونس وبعض الدول الأجنبيّة ذات العملة الصعبة مثل أنقلترا، فقد طلب من أحد أصدقائه برسالة مؤرّخة في 20 مارس 1921 صادرة عن برلين توجيه عدّة نماذج من المنتوجات التونسيّة مثل الزبيب المسكي والصابون التونسي والتمر والزيت والمحافظ النابليّة المصنوعة من السمار وغيرها. كما كان يرغب في توريد ما تحتاجه البلاد التونسيّة من تلك الدول من مصنوعات الحديد والأقمشة والأغطية وغيرها مما شرحه برسالته المؤرّخة في 11 أفريل 1921.

لتسمح لي أيها القارئ أن أقف عند هذا من البيان لبعض ما قام به الراحل خارج البلاد التونسيّة من النشاطات في مختلف الأغراض أمّا نشاطه داخل البلاد التونسيّة من تاريخ عودته إليها في شهر مارس سنة 1924 إلى أن توفاه الله فذلك ما لا يتسع المجال لنشره.

مراجعة

وقع الزميل الصديق الأخ إبراهيم بورقعة فيما كتبه عن الفقيد وعائلته في بعض الأخطاء التاريخيّة وله عذره لأنه لا

يملك المراجع التاريخيّة الكافية لتحرير ترجمة كاملة للراحل الكريم. فمن ذلك قوله وقد انتقل الأستاذ محمّد فهمي إلى رحمة الله خلال عام 1965 والصواب أنّ وفاته كانت يوم الأحد 5 أفريل 1964م الموافق يوم 22 ذي القعدة سنة 1383هـ.

وقال الأستاذ إنّ جريدة الرشديّة كانت تصدر بالحاضرة خلال عام 1307هـ والصواب أنها بدأت تصدر بانتظام يوميّة ابتداء من 25 فيفري 1904م الموافق 10 ذي الحجّة سنة 1321هـ.

وقال عن مطبعة هذه الجريدة إنها كانت تطبع بشارع باب سويقة عدد 189 بلدي والصواب أنّ المطبعة كانت بنهج الكاتبيّة عدد 20 وأنّ إدارة الجريدة هي التي كانت بنهج لا شارع باب سويقة.

وقال الأستاذ إنّ الذي دعاه إلى الحديث عن هذا الرجل الفذ هو إهمال ذكر وفاته بكلّ الصحف ومراسليها والحقيقة أنّ جريدة الصّباح نشرت بعددها الصادر يوم 8 أفريل 1964 خبر وفاته.

وهناك ملاحظات أخرى حول طبع تاريخ مقديش لا يتسع المجال الآن لشرحها وسنفصّل ذلك عند نشر كتابنا عن تاريخ الصحافة العربيّة بتونس عند الكلام عن أسرة جريدة الرشديّة إن شاء الله تعالى.

أملي أن يستفيد أبناء وطني من هذه الملاحظات العابرة وفوق كل ذي علم عليم، وأعتقد جازما بأنه سيأتي اليوم الذي تجد فيه الوثائق الهامّة التفاتة سامية من حكومتنا لجمعها في متحف يكون تابعا لمعهد المخطوطات الذي هو الآن بصدد التكوين، وتونس تملك من الوثائق ما يسدّد رغبة الباحثين والدارسين في المغرب والمشرق وحتى من أبناء الخافقين.

---

* "مرآة الساحل" السنة الأولى العدد الرابع في جانفي 1967.
انظر نماذج من كتابات المترجم له في الوزير بتاريخ 24 ماي 1928 و25 نوفمبر 1954 وفي الزهرة بتاريخ 25 مارس و5 و6 و7 و8 أفريل 1938.

الشيخ عثمان بن منصور*

(1890 ـ 1964)

تعرّفت بالشيخ عثمان بن منصور في مجالس الشيخ محمّد العربي الكبادي حيث كان يلازمه في أوقات فراغه من التعليم فعلمت أنه من أبناء تونس وأنه من مواليدها في حدود سنة 1890 تقريبا.

زاول الفقيد تعليمه بجامع الزيتونة فدرس العلوم اللسانيّة وبرز فيها. وحفظ الكثير من أشعار العرب وكان من رفاقه أيّام الدراسة جماعة من محبّي الأدب أمثال الشيخ محمود موسى والشيخ البشير محفوظ رحم الله جميعهم.

بعد تخرّجه في الزيتونة حاملا لشهادة التطويع اختار التعليم مهنة له فباشره في المدارس الابتدائيّة الرسميّة، وفي تلك الأثناء ألف كتابه "الإقناع في رسم اليراع" وهو كتاب يحتوي على قواعد الرسم العربي أوسع دائرة من كتاب "عنوان النجابة"، وهذا ما حمل النظارة العلميّة بجامع الزيتونة منذ أكثر من أربعين عاما على الإذن بتدريس كتابه في جامع الزيتونة لأنه أغزر مادّة في الرسم وقواعد العربيّة.

يقول الفقيد إنه باشر التعليم في مدينة تونس أكثر من ثلاثين عاما بين مدارس نهج الكنز ونهج سيدي علي عزوز وبطحاء الحلفاوين وبطحاء الغنم سابقا ـ معقل الزعيم الآن ـ وقد حفظ ذكريات حسنة، ويثني الثناء الأوفر على السيّد محمّد القرطبي مدير مدرسة نهج الكنز.

وقد كانت له عقدة نفسيّة تكوّنت له من عهد الشباب وهي أن معلمي الفرنسيّة من التونسيّين بالمدارس الابتدائيّة كان جلهم إذا لم يكن كلهم لا يعترفون بزمالة معلم العربيّة وربّما احتقره

بعضهم لأنّ إدارة التعليم العمومي نفسها كانت تسمّي هذا الصنف من المعلمين بالمؤدّبين تحقيرا لمهنتهم، وهو لا يستثنى من هذا الصنف إلا المرحوم السيّد عبد العزيز صاحب الطابع الذي اشتهر بالإخلاص والفضل والعفة ومكارم الأخلاق.

عاش الفقيد أمّة برأسه دأبه القيام بعمله الرسمي لا يشغله عنه شاغل عائلي أو غيره لأنه لم يتزوّج طيلة حياته.

فلمّا أحيل على الراحة قبل الاستقلال انكبّ على المراجعة والتأليف، وطبع من مؤلفاته كتاب "البشر في نقد المقدّمات العشر" وهي رسالة علق بها على الرسالة التي نشرها العلامة الجليل الشيخ محمّد الطاهر ابن عاشور المتضمّنة مقدّمات تفسيره للقرآن الكريم.

أنفق على هذه الرسالة ما استردّه من صندوق الإحالة على الراحة، وكان عليه رحمة الله ينوي طبع بعض الكتب الأخرى في فنون الأدب[1].

كان الفقيد يقول الشعر في المناسبات كالمديح والرثاء ومن هذا الصنف الأخير المرثيّة التي قالها بمناسبة وفاة الممثلة والمطربة التونسيّة المعروفة حبيبة مسيكة في سنة 1930 ولم يتمكن من نشرها في ذلك التاريخ لأسباب قاهرة[2].

من هواياته لعب الشطرنج وكان لا يغيب عن مجالس لاعبيه من مقهى المرابط في سنة 1934 إلى مقهى حشاد في سنة 1964. ولاعبو الشطرنج يحنون إلى لقائه والاجتماع به ولا يلحّون عليه في المبارزة لأنه كان ضيّق الصدر وللصديق مصطفى خريّف نوادر عن (أطراح) الشيخ عثمان بن منصور الشطرنجيّة.

لازمه مرض الأرق في السنوات الأخيرة، وفي يوم الجمعة السادس من نوفمبر الجاري كان على عادته جالسا مع قيدوم الصحفيّين الشيخ البشير الخنقي في مقهى الأهرام بحي باب سويقة يتحدّث كعادته في شؤون الأدب والثقافة، وفي يوم

السبت الموالي وافاه الأجل المحتوم بمحل سكناه بنهج حمام الرميمي، عليه رحمة الله.

---

* "الصباح" بتاريخ 10 نوفمبر 1964.

1) نشر المترجم له رسالة سمّاها:"قمع الإسراف في تحريف تفسير الكشاف" تتبّع فيها الأخطاء المطبعيّة التي وقعت في التفسير المذكور، وطبعت الرسالة في مطبعة المنار على نفقة المؤلف دون ذكر تاريخ الطبع في 19 صفحة.

2) حفظ لنا أرشيف المهيدي بيتا واحدا منها رواه مصطفى خريّف هو التالي:

أسفا على ذا العندليب أسفا على الغصن الرّطيب

انظر نماذج من شعره في الزهرة بتاريخ 7 جويلية 1931 و28 ماي 1936 و25 جانفي 1942 و1 ماي 1942، والنهضة بتاريخ 17 مارس 1932، ومجلة الفكر العدد الخاصّ إثر وفاة الشيخ محمّد العربي الكبادي ومجلة التعليم العربي، السنة الأولى، المجلد الأوّل، العدد الأوّل، جمادي الثانية 1338هـ وفيفري 1920م.

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



زين العابدين السنوسي*

(1901 ـ 1965)

- 1 -

نشأته وشبابه

العائلة السنوسيّة التونسيّة من العائلات العريقة في "البلديّة" فقد هاجر جدّها الأوّل من البلاد الطرابلسيّة إلى القطر التونسي في حدود القرن 12هـ، وباشر أفراد هذه العائلة سيّدة الصناعات التونسيّة أي صناعة الشاشيّة.

نبت في حقل هذه العائلة أعلام يشار إليهم بالبنان في عالم التحبير والتحرير وأفذاذ درسوا العلم بجامع الزيتونة ودارسوه وتخرّج منهم فحول في القضاء والفتوى نذكر منهم جدّه الأعلى الشيخ محمّد المتوفى سنة 1255هـ الموافق 1839م مؤلف كتاب "لقط الدرر فيما به العمل من مذهب مالك" وجدّه عثمان قاضي جبل المنار المولود سنة 1267هـ والمتوفى ليلة يوم الأحد 25 رجب سنة 1319هـ و18 نوفمبر 1900م، أمّا والده الشيخ محمّد فهو من أعلام التونسيّين في القرن الماضي فمؤلفاته متعدّدة كما أنّه تقلب في مختلف الوظائف العدليّة والإداريّة في هذا القطر وما تركه من السمعة والأثر الطيّب يتحدّث بهما ويذكرهما له الخاصّ والعامّ في المشرق والمغرب، لذلك فلا بدع إذا رأينا هذا العبقري العصامي الذي تركه والده في بطن أمّه يرث المجد العلمي والأدبي عن آبائه وأجداده الأكرمين.

ولد الزّين أو زين العابدين على أصحّ تعبير في حدود سنة 1319هـ الموافق 1901م بالحضرة التونسيّة وزاول تعليمه الأوّلي بالمدرسة الصادقيّة فلمّا يفع ألحق بجامع الزيتونة وفي هذا

المعهد رضع لبان العربيّة وحبّ الأدب العربي، وكانت تلوح عليه أمارات النشاط الذهني من شبابه فكانت المجادلات الأدبيّة يحمى وطيسها من حين إلى آخر بينه وبين أقرانه كالسّادة محيى الدين القليبي ومحمّد الحبيب والهادي المدني ومحمّد الصّالح النيفر والشاذلي والهادي ابني ابن القاضي.

ولمّا وضعت الحرب العالميّة الأولى أوزارها كان زين العابدين قد استكمل دروسه بالزيتونة وأخذ يتصل بشباب الصادقيّة وهم الذين كان يزاملهم في الدراسة الأوليّة واستمرّوا بذلك المعهد إلى أن تخرّجوا منه، فكان يغدو ويروح بين الحضرة التونسيّة ومرسى الجراح مع أصدقاء شبابه عثمان الكعّاك وأحمد بن ميلاد وعثمان صفر والطاهر صفر ومحمد بلحسين وغيرهم.

مصـــاهرة

شاءت والدة الزّين أن تتبع الأصول المرعيّة عند كبريات العائلات التونسيّة وهي الاتصال النسبي بذوي المكانة والجاه، تدبّرت والدته الأمر وفكرت فيه مليّا ورأت أنّ خير مصاهرة وأمتنها هي التي تعقد أصولها وتمتدّ فروعها بين الجيرَانْ، ويزداد نموّ كرامة أعراقها متى كان أولئك الجيران من ذوي الحسب الرفيع والمقام المنيف. خرج التفكير من الخيال إلى العمل وتحوّل الخطاب إلى مهاداة، وتردّدت الأم على الجيران وما هؤلاء إلا الحمى الأسمى لهذا القطر والكهف الأمنع للبلاد والعباد، هم العائلة المالكة بل إنّ رئيس العائلة المجاورة هو وليّ عهد الإيالة التونسيّة، وهكذا أصبح الزّين صهرا لوليّ العهد ثم لوليّ الأمر وملك القطر المقدّس المبرور سيّدي أحمد باشا باي الثاني، ومع ما كان منتظرا لهذا النسب من شريف الرتب الإداريّة والوظائف التونسيّة كما جرى به العمل مع بقيّة الأنسباء فإنّ صاحب الترجمة رفض أوّلا إلحاقه بمشيخة المدينة كمتوظف له مقامه الرفيع، كما رفض ثانيا الالتحاق بمنصب القيادة الذي عيّن فيه

لأنه كان يرى أنّ الوظائف الإداريّة وسيلة لحياة طبقة خاصّة من الأمّة التونسيّة لا تطمح في العيش إلا في ذلك الإطار وتحت ظلّ تلك الشجرة وهو يرى أنّ الوظائف التي تسند إلى أصحابها إسنادا لا شرعيّة فيه لا تلبث أن تخلع عنهم وأنّ من لا رغبة لهم في عمل ويكرهون عليه ثمّ يطمحون في الاستئناس بهذا الإكراه إنما يرتكبون جرائم نحو أنفسهم ونحو المجتمع الذي يسوسونه أو توكل إليهم أمور قيادته وسياسته، وقد كان للتربية العلميّة التي تربّاها والوسط العائلي الذي شبّ فيه أثرهما الفعّال في هذا الإباء ورفض الوظائف وكراهيتها.

المطبعـــة

وبينما كانت والدته تترقب اليوم الذي سيدخل عليها الزّين حاملا رتبة لواء أو أمير لواء أو حتى آلايا كان لا يقدم على عروسه في منتصف النهار بالمرسى بل كان يقضي كامل النهار من فجره إلى مغيب شفقه بالحضرة التونسيّة يعدّ المعدّات ويهيّئ الأسباب لزفاف هاته العروس الجديدة التي يترقب قدومها من يوم إلى آخر من أوروبا، وتلك العروس هي المطبعة التي أنشأها وأنشأ لها دارا بنهج السيّدة عجولة عدد 12 بتونس التي يقول فيها صديقه الشاعر التونسي المشهور محمّد الشاذلي خزندار ما يأتي عندما أتمّت طبع ديوانـــه:

لله مطبعة العـــرب
شكري لصاحبها وجب
ذاك السنوسي الـذي
جمـع اللطافة والأدب
ربّ النبوغ من الصّبا
ربّ النجابة منـذ شـب
يحكي أباه ولا غـرا
بة أن يحاكي الإبـن أب

ديوان شعري شاهـد

عـدل وحسبك ما كتب

وزين العابدين من الأدباء التونسيّين الذين آمنوا بأنه لا يمكنهم أن يقوموا بعمل أدبي من تأليف أو نشر أو صحافة دون أن ينشئوا لهم مطبعتهم الخاصّة حتى يكون عملهم مطابقا للذوق الفني العصري ومماشيا للنهضة الفكريّة في الشرق والغرب.

أنشأ المطبعة وفي إحدى غرف دار الطباعة كان الزّين يجتمع بإخوانه وخلانه ورجال الأدب والعلم، فكان هذا المنتدى هو الخميرة الأولى لجمعيّة الكتاب والمؤلفين التونسيّين، وكان كذلك أوّل وكر لجمعيّة الرابطة القلميّة التي أنشأها الزّين وصحبه، ثمّ كان كذلك الحقل الذي نبتت فيه فكرة المجمع العلمي التونسي الذي أنشأه أساطين البيان والتفكير بالشمال الإفريقي.

"مجلة العرب"

كانت حريّة إصدار الصحف والجرائد التونسيّة محدودة إلى درجة أنه لا يؤذن فيها إلا لمن كان جاهلا بهاته الصناعة ولم يمتهنها طول حياته، ومع ذلك حاول الزّين الحصول على امتياز لإصدار مجلة باسم "العرب" لخدمة الأدب والعلم والأخلاق بتونس فلم ينجح في هذا المسعى، والزّين من أضحاب العزائم التي لا تفلّ ولا تكلّ، فقد اغتنم الخلاف الذي حدث بين صاحب امتياز مجلة "البدر" ومؤسّسي الجامعة الزيتونيّة الذين أصدروا منها إثنتي عشر عددا فاتفق معه على إحالة الامتياز إليه نظير مبلغ مالي معيّن في كلّ شهر، وفي محرّم 1342هـ وأوت 1923م أصدر مجلة البدر معنونة بهاته الكلمات: "تصدر مجلة البدر مؤقتا ريثما نحصل على امتياز مجلتنا العرب" وكانت كلمة العرب بارزة إلى حدّ أنّ الرائي يخيّل إليه أنّ المجلة اسمها العرب، واستمرّ في إصدارها مدّة أربعة أشهر، وقد رأت إدارة المطبوعات أنّ في ذلك تحديا لها من الزّين وأنّ

متابعته لعمله مخالف لقانون الصحافة العربيّة في تونس وبالتالي فهو موجب للعقاب.

تعطيل العرب

بينما كان عملة المطبعة مقبلين على عملهم ومنهمكين في إعداد العدد الخامس من العرب للطبع إذ بأعوان المحافظة يبلغونهم قرار التعطيل واستدعاء مدير المجلة إلى قلم المطبوعات للتفاهم معه في ذلك، ويقول الزّين إنّ هذا التعطيل كان بإيعاز من صاحب الامتياز لخلاف مالي حيث طلب ترفيع المنحة الشهريّة ولم يوافقه على ذلك.

نشـــريّات العرب

إثر تعطيل مجلة البدر التي كانت تصدر باسم العرب وذلك في شهر جمادى الأولى 1342هـ وديسمبر 1923م استمرّ في إصدار نشرات شهريّة كلّ واحدة تحمل اسما خاصّا وهي "كتاب حديقة العرب" و"كتاب لطائف العرب" و"كتاب مقالات العرب" وكان صدور هذه النشريّات في مواقيت معيّنة وكانت بعض الأبحاث متسلسلة فيها والعدد الرتبي لصفحات العرب متسلسلا مع الأعداد التي صدرت منها ونفس الأبواب التي كانت مفتوحة بالمجلة بقيت كذلك في النشريّات المذكورة.

المحاكمـة

لم يثن تعطيل البدر عزيمة الزّين فاستمرّ في إصدارها بعناوين مختلفة، لذا أحالته الحكومة على محكمة الدريبة لمحاكمته بتهمة الاستمرار في إصدار مجلة بدون رخصة، وفي شهر شوال 1343هـ وأفريل 1925م صدر الحكم بتخطئته بخمسين فرنكا.

الجنـــاة

وعند إعلامه بالحكم المشار إليه عدّ نفسه من الجناة السياسيّين المغضوب عليهم من طرف الحكومة وجمع لديه

فصولا ومفكرات محرّرة بأقلام أولئك الجناة أمثال الشيخ الثعالبي وعبد الرحمان اليعلاوي وأحمد توفيق المدني ومحيي الدين القليبي وأحمد الدرعي وحسين الجزيري وغير هؤلاء من الذين أصيبوا في إحساسهم الوطني وتشرّفوا بالمثول أمام المحاكم العسكريّة أو المدنيّة أو صدرت ضدّهم عقوبات إداريّة سلطتها عليهم الحكومة في ظروف خاصّة كجماعة المطويّة.

إنّ كتابا من هذا النوع من شأنه أن يثير حفيظة الحكومة ضدّ الزّين إلى أبعد حدّ ولكن كيف العمل والرجل صهر للحضرة العليّة ولا يمكن أن يعامل بما يعامل به غيره من ضروب الإهانات والتعذيب لذا وجب قبل كلّ شيء مصادرة الكتاب وحجز ما وزّع منه عند الباعة وجمعه حتى لا تتسرّب عدواه إلى عقول العامّة فتسمّمها ضدّ الحكومة.

"التقويم الاجتماعي"

صودر كتاب الجناة وجمع ما أمكن جمعه من نسخه الموزّعة هنا وهناك وبقي عملة المطبعة يترقبون عملا يؤدّونه للزّين الذي صاروا منه بمنزلة الإخوة أو الأبناء فرأى أن يشغلهم من جهة ومن أخرى أن يستمرّ في عمله الأدبي وجهاده الفكري فخطرت له فكرة إصدار تقويم اجتماعي لا يكون على غرار التقاويم التونسيّة المعاصرة له كالتقويم التونسي وتقويم المنصور ولكنه يكون متمّما للحلقة الأخيرة من مجلة العرب، فأصدر هذا التقويم وكان كما أراد الزّين وأبرزه في شهر محرّم 1344هـ وجويلية 1925م وفاتحة صحفه لها أرقام مستقلة أمّا بقيّة الصحف فقد كانت أرقامها تابعة ومتممة لمجلد مجلة العرب وختمه بفهرست توّجه بهاتين الكلمتين"الله وإرادتي". حقا إنه لعمل جبّار بذل الزّين ما في وسعه من حول وطول ولاقى جرّاء إتمامه كلّ صعوبة طيلة سنتين متواليتين، ونعمت المصاهرة التي كانت تحميه من كلّ كيد وإلا لرمي به في ظلمات السجون.

"الأدب التونسي في القرن الرابع عشر"

ألف والد المترجم له كتابا دعاه "مجمع الدواوين التونسيّة" ترجم فيه لمئات من أدباء وأعيان القرنين الثاني عشر والثالث عشر ومن عاصرهم من أهل القرن الرابع عشر، وهو عبارة عن دائرة معارف أدبيّة تتضمّن حياة الأدباء التونسيّين ونماذج من نظمهم ونثرهم مع تاريخ الوسط الذي عاشوا فيه وقد تمكن والد المترجم له من نشر جانب من هذا الكتاب بدائرة المعارف التي ألفها المعلم بطرس البستاني وابنه سليم وأخوه سليمان فقد تعرّف بهم في بيروت عند زيارته لها وكان من رأي الزّين أنّ العمل الذي شرع فيه والده يجب التمادي فيه إلى أبعد حدّ وبقدر ما يسمح به العمر، فأراد أن يترجم لمعاصريه وبذلك يضع ذيلا لمؤلف والده، فاختار رفيقا له من أدباء الحضرة التونسيّة وهو أمير شعرائها محمّد الشاذلي خزندار ليكون رفيقا له في رحلة يقوم بها داخل القطر التونسي يتعرّف أثناءها إلى الأدباء ويبحث عن الناشئة الجديدة في الأدب.

الرحلة إلى الأدب

قام بهذه الرحلة الميمونة مع رفيقه وجاب الآفاق من شمال القطر إلى جنوبه ورجع مملوء الوطاب مزوّدا بكثير من الشعر والنثر لأدباء كانوا على اتصال بالشعب وآخرين مازالوا في طور التكوين مع أخذ معلومات عن حياتهم العامّة والخاصّة، وهي معلومات استقاها من مصادرها الأصليّة أو ممّن لهم اتصال وثيق بأولئك الأدباء، وشرع بمجرّد رجوعه إلى تونس في ترتيب ما جمعه فقسمه إلى قسمين أساسيّين شعراء وكتاب، وألف من مجموع ذلك كتابا دعاه "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر أو صحف مختارة من الأدب العصري في تونس" وهو كتاب يقع في ثمانية أجزاء طبع منها القسم

الشعري سنة 1345هـ الموافق 1926م وهو في أربعة أجزاء، أمّا القسم النثري فما زال مخطوطا.

"النهضة الأدبيّة"

تشبّع المترجم له بالروح الصحفيّة التي يرجع الكثير منها إلى الوراثة، فوالده أوّل صحفي صناعي بتونس باشر الصحافة بالرائد التونسي نحو العشرة أعوام وشارك في تحرير عدّة صحف شرقيّة مثل جريدتي الجنان والجنة ببيروت.

رغم الصعوبات والعقبات التي أوجدتها القوانين التونسيّة للحصول على امتياز جديد لإصدار صحيفة جديدة لم يبق زين العابدين مكتوف اليدين إزاء هذا العصر الاستثنائي الذي لا يريد إلا أن يكون فيه صحفيّا وصحفيّا فقط، إنّ عبقريّا وصاحب إرادة حديديّة مثل الزّين لا تستطيع أيّة قوّة أن تصدّه عن عمله الصحفي.

في تونس صحف أسبوعيّة وأخرى يوميّة فالأسبوعيّة ولأسباب متعدّدة لا تتسع للمجالات الرحبة لعمل الزّين، وليس هناك سوى باب واحد يجب الولوج منه إلى ميدان صاحبة الجلالة، هذا الباب هو الصحافة اليوميّة العربيّة، وفي البلاد صحفيتان إحداهما قد قاربت الأربعين والأخرى لم تخط عقدها الأوّل، فجريدة الزهرة التي يسيطر عليها صاحبها عبد الرحمان الصنادلي يشرف عليها بنفسه من أوّلها إلى آخرها في جميع شؤونها لا سبيل للزّين في إبدال طبيعة من تجاوز الستين من العمر وأشرف على السبعين، أمّا جريدة النهضة فهي الوحيدة التي يمكن العمل بها وفيها، هكذا كان يستعرض الفكرة ويقلب وجوه الرأي لعمله الصحفي الجديد وما هي إلا أيّام حتى أنجز الفكرة وتقدّم إلى النهضة فقبلت عمله بشروط وأصدر في عام 1927 العدد الأسبوعي من جريدته النهضة وهي عبارة عن صحيفة كان يحرّرها تحت مسؤوليّته الخاصّة وينشر فيها نتفا ممّا جمعه من

مختارات لأدباء تونس وبالأخصّ من كان منهم مجهولا تماما مثل الشابّي والأمين الحامي وغيرهما فكان عمله هذا فتحا جديدا في عالم الصحافة التونسيّة، هذا العمل الذي قام به الزّين اقتدت به جريدة الزهرة بعد وفاة مؤسّسها.

"مجلة العالم"

بينما كان الزّين مستمرّا في عمله الأدبي يباشر طبع كتابه وينشر صحيفته الأدبيّة في جريدة النهضة اليوميّة مرّة في الأسبوع ظهر في الجوّ بارق أمل للزّين في خوض غمار الصحافة بمجهود أوفر من مجهوده الحالي وفي نطاق أوسع من النطاق الذي يحيى فيه، هذا البارق هو صدور مجلة عربيّة تونسيّة تحمل اسم الصادرات والواردات لصاحب امتيازها السيّد محمّد فخري وقد كانت عبارة عن نشرة فلاحيّة اقتصاديّة مملوءة بالإعلانات لا تعود على الأمّة منها أدنى فائدة، برز عددها الأوّل ثمّ الثاني فسئم صاحبها هذا العمل الذي لا عهد له به فجاءه الزّين وهو بالمرصاد لكلّ نشرة أو كتاب وطلب منه أن يفعل معه ما فعل مع مدير مجلة البدر بشرط أن يبدل اسم المجلة بكلمة "العالم" وتمّ الاتفاق بينهما وأمضي العقد القانوني وأخذ الزّين على عاتقه هذه المأموريّة بما عهد فيه من قوّة إرادة وثبات عزيمة وفي شهر جانفي من عام 1930 صدر العدد الأوّل من مجلة "العالم" وفي الشهر الموالي أصدر العدد الثاني منها.

"العالم الأدبي"

ثمّ حدث خلاف بين فخري والزّين أفضى إلى قطع العلاقات بينهما وسحب فخري امتيازه وتحصّل الزّين على امتياز مجلة العالم الأدبي وصدر عددها الأوّل في شهر مارس 1930 ونبّه بطالعته على أنّه مجلد في عشرة أعداد تبحث في العلم والأدب، واستمرّ الزّين في عمله الصحفي عام 1349هـ الموافق 1930م يصدر مجلة العالم ثم العالم الأدبي الشهري.

مجلة أسبوعيّة

لأوّل مرّة في تاريخ الصحافة العربيّة التونسيّة يستطيع صحفي تونسي إصدار مجلة أدبيّة أسبوعيّة أمّا الصحفي فهو زين العابدين السنوسي وأمّا المجلة فهي العالم الأدبي.

في 30 من شهر شوّال 1350هـ الموافق 7 مارس 1932م كان باعة الصحف التونسيّة ينادون ملء أفواههم العالم الأدبي الأسبوعي، لكن هذه التجربة لم تدم كثيرا وذلك لعدّة أسباب مادية، فقد كان عملة المطبعة يفرّون أحيانا من مطبعة العرب بإغراء من أصحاب المطابع الأخرى، وقد يحدث أحيانا خلل بالمطبعة نفسها فيتأخّر صدور العالم الأدبي عن موعده، لذا كان غير منتظم الصدور ورغم ذلك فقد كان يصدر من حين إلى آخر أعدادا خاصّة بحادث أدبي أو تاريخي له أهميّة، وعلى سبيل المثال نذكر الأعداد الممتازة والخاصّة التي أصدرها عن ذكرى مدينة القيروان وذكرى فقيد الأدب العربي الخالد أبي القاسم الشابّي وحياة الشباب وذكرى فقيد العراق وفيلسوف الشعراء جميل صدقي الزهاوي وهذا العدد صدر في 20 أفريل 1936 وهو آخر عدد خاص من هاته المجلة.

الواجهة الشعبيّة

إنّ ضيق أو اتساع الحريّات الصحفيّة بتونس يتبع في أكثر الأحيان توجّهات الحكومة الفرنسيّة فإذا كانت الحكومة محافظة ضاقت الحريّات، أمّا إذا تولت مقاليد الدولة طائفة من أحرار فرنسا كالاشتراكيّين أفسح المجال لحريّة القول والكتابة نسبيّا في تونس. وقد حدث في عام 1936 أن تكوّنت في فرنسا جبهة شعبيّة مكنت الشعوب المرتبطة بفرنسا سواء كان هذا الارتباط عن طريق الحماية أو الوصاية أو الانتداب من حريّة واسعة النطاق، فصدر الأمر العليّ المؤرّخ في 6 أوت 1936 ناصّا على الاكتفاء عند الرغبة في إصدار صحيفة بمجرّد

إرسال إخطار إلى إدارة الأمن العام يتضمّن اسم الجريدة أو المجلة وبيانا باسم مديرها ومقرّه والمطبعة التي ستطبع فيها.

"جريـدة تونـس اليوميّة"

في هذا العهد الجديد الذي سادت فيه موجة من الانطلاق الفكري والتحرّر هبّ المفكرون وحملة الأقلام إلى الميدان الصحفي معلنين للحكومة والرأي العام عن العزم على إصدار جريدة أو مجلة. ولأنّ الزّين من أصحاب العزائم الذين حرموا من هذا الحقّ ومن الذين جادلوا الحكومة ونالوا منها ما نالهم من القهر والعنت فقد كان من جملة المعلنين، ولكن ما هي الخطة التي يجب أن تسلكها جريدته؟ وما هو اسم هاته الجريدة؟ وأيّ المناهج السياسيّة تسلك؟ وهل تكون صحيفة حزبيّة تدافع عن حزب معيّن وتنتمي إلى طائفة خاصّة تستمدّ منها وحي السياسة وتتناول من صندوقها الأموال التي تسدّد منها مصاريف الطبع وتغدق عليها الرزق متى وقعت في أزمة ماليّة أو أصابها قحط اقتصادي وفي تونس آنذاك جريدتان حزبيّتان هما الإرادة لسان حال اللجنة التنفيذية للحزب الحرّ الدستوري التونسي وجريدة العمل وهي الناطقة بلسان الديوان السياسي للحزب المذكور.

هل تكون جريدة إخباريّة تسلك مسلك صحف الأخبار اليوميّة التونسيّة تبلغ الشعب رغبات الحكومة وإعلاماتها وتعبّر أحيانا عن آمال الشعب أو آلامه بلهجة خاصّة لا شطط فيها ولا غلوّ وهي الطريقة التي تسلكها صحيفتا النهضة والزهرة أحيانا؟

هاته وتلك من طرائق الصحف التونسيّة درسها الزّين وقلب أوجه الرأي فيها مع أودّائه وأصدقائه وتابع الجلسات لتحرير البرنامج النهائي الذي تسير الجريدة بمقتضى بنوده وبعد البتّ في هذا الشأن وإعداد المعدّات اللازمة قدّم إعلاما للحكومة بعزمه على إصدار جريدة يوميّة تحمل اسم "تونس".

في ميـدان العمـل

وهكذا أصدر العدد الأوّل من هاته الجريدة في 20 جمادى الأوّل 1355هـ و9 أوت 1936م وهي جريدة أسبوعيّة ثمّ نصف أسبوعيّة إلى أن أصبحت يوميّة وقد سلكت وسطا بين التطرّف والاعتدال ملتزمة الحياد بين الأحزاب السياسيّة لا تعمل إلا للمصلحة العامّة ومصلحة تونس فوق كلّ شيء.

ورغم ما حدث للمجلة وصاحبها من صعوبات في أزمة أفريل 1938 فإنها كانت تخرج ظافرة في كلّ معركة تخوض غمارها، وقد ساعد الزّين على نجاح عمله الحيادي هذا رجال كانوا على غراره من شيوخ الصحافة أمثال الفورتي ونعمان والتجاني بن سالم وبودربالة أو من الشباب الوطني المثقف ثقافة عامّة أمثال مالك وبوغدير وابن عبّا، وقد كتبنا تراجم خاصة بكلّ مجلة أو جريدة أسّسها أو أدارها زين العابدين تراجع في غير هذا المكان.

قضيّة التبـني

كانت الأميرة آسيا زوجة الزّين ترغب وتتمنى أن يرزقها اللّه ذريّة صالحة وأبناء بررة، وقد أرادت أن تبرز هذه الرغبة من حيّز العلم إلى عالم الوجود فجيء لها بولد وضعته أمّه حديثا بعد أن تظاهرت هي بالحمل وفي 12 ماي 1936 ذهب الزّين إلى قسم الأحباس الخاصّة في إدارة جمعيّة الأوقاف بتونس وادّعى أنه ازداد له مولود من الأميرة آسيا بنت أحمد القريتلي في عام 1935 وطلب أن يسلم إليه منابه من وقف المرحوم حسين خوجة الراجع لوقف الدار الكريمة الذي يستحقه جميع أفراد العائلة المالكة وذلك زيادة على مناب زوجته آسيا المذكورة فسلم إليه وكيل الوقف المذكور جملة المنابين مقابل وصل تسلمه منه.

قضيّة شرعيّة

لم يكد نبأ التبني يبلغ أسماع أمير البلاد الصهر العتيد لصاحب الترجمة حتى كلف عبد الرحمان بن زاكور الوكيل الشرعي بالحاضرة وأحد المقرّبين منه بنشر نازلة لدى المحكمة الشرعيّة بالديوان في طلب نفي نسب الصبي نور الدين من الأميرة آسيا فنشرت تحت عدد 10422 مالكي، وبناء على الحجج التي أدلى بها الوكيل بن زاكور صدر الحكم طبق المقال الشرعي، وفي أقلّ من أسبوع كانت نسخة هذا الحكم تامّة الموجبات القانونيّة والشرعيّة ورفعت توّا إلى محكمة الدريبة وذلك في شهر ربيع الثاني سنة 1358هـ وماي 1939م ونشرت نازلة جديدة تحت عدد 3/6311 جناحي في طلب محاكمة الزّين عملا بما جاء بالفصل 291 من القانون الجنائي التونسي (تحيّل) وعيّن نشر النازلة للجلسة العموميّة الواقعة في 3 رمضان 1358هـ و17 أكتوبر 1939م وفيها صدر الحكم غيابيّا على الزّين بالسجن مدّة ستة أشهر وبتخطئته بمائة فرنك فاعترض الزّين على الحكم غير أنه تأيّد في 26 شعبان 1359هـ و29 سبتمبر 1940م.

وفاة الأميرة

وكان لهذا الحادث أثره في حياة الأميرة فقد كانت تحبّ الزّين حبّا جمّا، وكانت تعتقد أنه مظلوم في هذا الحادث وأنّ التبني صادر منها لا من الزّين الذي لم يكن ينظر للمال والثروة بالعين التي ينظر بها إليهما صهره العتيد، فاشتدّ كربها وتزايد ألمها إلى أن توفيت إلى رحمة الله في أكتوبر 1939، فأصدر والدها أمرا يقضي بحجز ونقل جميع ما كان بمحلّ الزّين من أثاث وأدباش منقول وملبوس حتى كتبه وكتب والده وما تركته له أمّه من حليّ ومصوغ فكان هذا العمل الجائر من أكبر الأسباب التي جعلت الزّين ينقم على القصر.

استرجاع الحقوق

لم يمض على هذا الحادث سوى عام واحد لاقى فيه الزّين صنوفا من العذاب وألوانا من العنت ومن مضايقات القصر، وأخيرا توفي الأمير في 16 جوان 1942م فقام الزّين مطالبا وريث العرش الحسيني بإرجاع حقوقه وردّ ما أخذ منه عنوة فكان له ما أراد.

الحـرب التونسيّـة

بينما كانت الأحداث الجسام تتوالى عليه وهو يتقبّلها تارة بوجه عبوس ومرّة بثغر باسم إذ بجائحة الحرب تنزل بتونس ويكتسح جنود المحور هذا القطر الآمن لتجعل منه جسرا تمرّ من خلاله إلى الشرق الأدنى لمحاربة الدول الحليفة في الممالك التي تحميها أو تحت وصايتها، فنشبت الحرب في تونس وتعطلت جميع الصحف التونسيّة وصدر أمر بإغلاق جميع إداراتها فكانت دار العرب وجريدة تونس مشمولة بهذا الإغلاق وهي حالة إستثنائيّة لم يركن إليها الزّين فالتجأ إلى عمل علمي أقبل عليه بكلّ نشاط وهو إتمام كتابه.

ديوان ابن حمديس الصقلي

بينما كان الزّين يبحث عن الشعراء التونسيّين القدامى وقعت عينه على ديوان الشاعر الصقلي ابن حمديس يحمله السيّد محمود القرجي بيمينه فاستعاره منه وبحث عن النسخة المطبوعة في ميلانو فأعارها له أمير الأمراء الوزير العالم السيّد حسن حسني عبد الوهاب ليقابلها بالنسخة الخطيّة ويراجع ما في النسختين من تحريف أو غلط فانكبّ على هذا العمل العظيم وتوالت الأيّام والشهور والأعوام على الزّين وهو منكبّ على هذا العمل إلى أن أتمّه، ويقال إنّ تحت يده الآن نسخة من ديوان ابن حمديس جاهزة للطبع تامّة التقويم والمراجعة عليها تعاليق ضافية شاملة لمراجعات لغويّة وتحقيقات علميّة وتعليقات

تاريخيّة وجغرافيّة وإحالات على كتب أدبيّة أخرى لا غنى للمطالع عن الرجوع إليها.

أنموذج الزمان في شعـراء القيروان

هذا عنوان لكتاب ألفه الأديب التونسي المشهور أبو الحسن علي بن رشيق القيرواني في أوائل القرن الخامس للهجرة، وقد كان هذا الكتاب مفقودا تماما اللهم إلا بعض النتف التي نقلها عنه رجال التراجم في كتبهم ومؤرّخو الآداب العربيّة في القرون التي تلت وفاة المؤلف، وقد اهتمّ الزّين بهذا الكتاب وبحث عنه وإليك بعض ما قال في مقدّمته لدراسته الضافية: "... فلمّا تفرّغنا سنة 1939 لتدوين تأليفنا بلاغة العرب في إفريقيا كانت نصوص الأنموذج تتجمّع من نفسها بفضل أسلوب المذكرات الذي سلكناه، ثمّ أمكننا أخيرا أن نظفر في رحلتنا عبر البحر بما ينقصنا من المخطوطات العربيّة بأمّهات المكتبات الأوروبيّة مثل مكتبة باريز ولندرة وفيينا وهكذا اجتمع لنا 27 مصدرا تنقل رأسا من كتاب الأنموذج على تشتت أصولها في أطراف المعمورة، وإذا نحن وبين أيدينا 84 ترجمة من مختاراتها بقلم ناقدنا الكبير في هذا الأنموذج. وأغلب الظنّ أنه لم يشذ عليها الكثير ممّن ترجم لهم هذا الكتاب ممّا ملأ قرابة 300 صفحة بالنقد البارع والنادرة الأدبيّة الغضّة والمدارك السامية المتسعة ممّا يغذي المطالع بالسموّ والمجد ويبسطه للتشبّع من معين تلك الحضارة الخ...".

الزّين مؤلـف روائـــي

لمّا نشرت جمعيّة الاتحاد المسرحي بصحيفة 30 من العدد الثاني من مجلتها المسرح الصادر في ربيع الأوّل 1356هـ وفي جوان 1937م بلاغا أذاعت فيه أنها خصّصت جوائر ماديّة لمن يؤلف رواية تونسيّة في مواضيع عيّنتها، كان الزّين مع جملة من شاركوا في ذلك السباق وممن تباروا في ذلك الميدان، فقدّم رواية تاريخيّة تحمل اسم "فتح إفريقيا أو ابن الزبير وابنته جرجير"

تشتمل على ثلاثة فصول، واجتمعت اللجنة المخصّصة لفحص الروايات التاريخيّة البالغ عدد أعضائها العشرة تحت رئاسة الشاعر السيّد مصطفى آغا في اليوم الثاني من أكتوبر 1937، وبعد أن تداولت في الموضوع كانت رواية الزّين هي الرواية الثانية التي نالت جائزة الألف فرنك وقد وقع إخراجها على المسرح في موسم 1937 ـ 1938.

قصّاص

عالج الزّين القصّة وابتدأ ذلك بالترجمة فنشر في مجلة العالم الأدبي على التتابع قصّة "مدينة الذهب والبرص" ورواية "نزع الروافد" ثم وضع هو قصصا أخرى نشرها في جريدة تونس والعالم الأدبي.

مترجم

ترجم للأخوين جان طارو كتابهما الذي وضعاه عن حضارة العرب في الأندلس ونشره في العالم الأدبي ثمّ نشره مستقلا بعد أن قدّم له بمقدّمة بليغة.

الزّين بأوروبا

ليست لنا معلومات تفصيليّة أو مدققة عن رحلة الزّين إلى أوروبا وكلّ ما نعلمه عنه أنه في شهر جانفي 1943 وقع اختطافه قسرا من داره ونقل إلى البلاد الإيطالية بقصد استخدامه في مصلحة الإذاعة المحوريّة بمدينة باري، ويقول من كانت لهم أجهزة تلتقط أخبار تلك الإذاعة أيّام الاحتلال المحوري لتونس أنهم لم يستمعوا إلى الزّين ولو مرّة واحدة يحدّث الناس عن شأن من شؤون السياسة في أيّة إذاعة محوريّة.

وقد بلغني من جهة أخرى أنه لمّا أبدى ممانعة ممّا نقل من أجله وضع في مركز من مراكز الاحتشاد وهي المراكز التي يوضع فيها أعداء الفاشيزم، ولمّا حرّر الحلفاء البلاد الإيطاليّة وقع العثور عليه مع الصبيّ الذي تبناه ونقلوه معه هناك ووقعت

نقلته من مركز إلى آخر عن طريق البحر إلى أن وصل إلى مدينة بَنزرت في شهر جوان 1945 ثمّ نقل إلى الحضرة التونسيّة، حيث أودع السجن العسكري بباب المنارة على ذمّة المحكمة الحربيّة لتتبّعه بتهمة التعاون مع العدوّ.

مرض

وقد أصابه مرض نقل إثره إلى المستشفى العسكري بالبلفدير حيث يقيم الآن للاستشفاء.

في 8 شوال 1364هـ و14 سبتمبر 1945م

---

* من أرشيف المهيدي في المكتبة الوطنية وعنوان المقال هو "مدير ومحرّر مجلات العرب والعالم والعالم الأدبي وجريدة تونس اليومية".

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



زين العابدين السنوسي*

- 2 -

مولده

ولد زين العابدين بن محمّد ـ بالفتح ـ بن عثمان السنوسي ببلدة سيدي أبي سعيد يوم 16 نوفمبر 1901 حيث تركه أبوه علقة في بطن أمّه حلومة بنت إسماعيل بن عبد الله.

تعليمه

زاول تعليمه الابتدائي بالكتاب ثم بفرع المدرسة الصادقيّة إلى أن أحرز على الشهادة الابتدائيّة في اللغتين سنة 1915 ثُم زاول التعليم سنة كاملة بالمدرسة الصادقيّة، وانتقل إلى جامع الزيتونة سنة 1917 وفارقه سنة 1920 مع جملة من فارقه من زملائه الذين استهوتهم الحركة السياسيّة عند تأسيس الحزب الحرّ الدستوري التونسي.

الجامعة الزيتونيّة

هذه منظمة طالبيّة ثقافيّة أنشأها أولئك الطلبة وأسّسوا لها ناديا بسوق الكتبيّة وكان عمدتهم المنعّم الشيخ محمّد مناشو، ساهم الفقيد في هذه المنظمة التي أصدرت مجلة البدر باسمها مدة سنة كاملة عام 1921.

ترشـيده

بعد وفاة والده وولادته قُدّمت عليه أمّه إلى أن تمّ ترشيده بحكم مؤرّخ في 30 مارس 1922 من الشيخ محمود بن محمود.

مطبعة العرب

كان الفقيد يرى لزاما عليه أن يخلف والده فيما كان يضطلع به من أعباء التأليف والنشر وما يحرّره في الصحافة التونسيّة وغيرها من الفصول الممتعة سواء عندما كان رئيس تحرير جريدة الرائد التونسي من سنة 1876 إلى سنة 1882 حيث أخرج منها بقوّة عسكريّة بموجب قرار من قائد جيش الاحتلال الفرنسي بالبلاد التونسيّة، أو ما كتبه في الجرائد التونسيّة كالحاضرة والزهرة أو ما راسل به صحف الشرق كثمرات الفنون وغيرها من صحف البلاد الشاميّة والتركيّة وغيرها.

هذا الاعتقاد هو الذي حمله على إنشاء مطبعة العرب سنة 1922 حيث أقامها في عقّار من مخلفات والده كائن بنهج السيّدة عجولة عدد 12 تونس. ودار العرب لعبت دورا هامّا في تاريخ الطباعة التونسيّة وسنت سنة لم تسبق إليها، فالفقيد كان يطبع مؤلفات أصدقائه بالمجان وقد لا يقع خلاصها وتسديد ثمن كلفتها إلى أن تباع تلك المطبوعات إن قدّر لها الرواج، وقد تكون عرضة للحجز الإداري كما حدث لكتاب العمّال التونسيّون أو تاريخ الحركة النقابيّة بتونس الذي ألفه صديقه الطاهر الحدّاد بمساعدة المرحوم أحمد الدرعي.

ودار العرب كانت إلى جانب ذلك مدرسة لتخريج الطبّاعين من الشبّان التونسيّين، وهي المنتدى الأدبي الذي لا ينقطع عنه الأدباء كامل أيّام السنة حيث يمسون ويصبحون، ومن هناك تخرّج العريبي والدوعاجي ومنوّر صمادح والعيد الجبّاري وعبد الرزّاق كرباكة وغيرهم وساعدته مطبعته على إبراز مشاريعه الصحفيّة للوجود، وسنتحدّث عنها وعن طبع مؤلفاته المتنوّعة.

الميدان الصحفي

طالب الفقيد الحكومة في سنة 1922 بالإذن له في إصدار مجلة باسم العرب ولكنها امتنعت عن ذلك فاضطرّ إلى تسويغ امتياز مجلة البدر من صاحبه، وأصدرها تحت عنوان العرب ابتداء من 1 سبتمر 1923 واستمرّ على إصدارها في كلّ شهر رغم أنّ الحكومة قامت ضدّه بقضيّة جناحيّة لمخالفته قانون المطبوعات بمجرّد إصدار العدد الأوّل منها، ثمّ تتابعت القضايا العدليّة إثر كل عدد يصدر من المجلة على رأس كلّ سنة وتنتهي كلّ قضية بالحكم على الفقيد بالتغريم المالي وهو يدفع ما يتضمّنه كلّ حكم عن طيب نفس ما دامت الأحكام لا تتضمّن منعه من إصدار مجلته، وبعد الحكم الرابع حجّر عليه إصدارها وذلك إثر مشادّة عنيفة بين رئيس المحكمة المنعّم محمّد الفضيلي ووكيل النيابة العموميّة الذي كان يرى أنه لا بدّ من صدور حكم بالعقاب البدني حتى يتعطل المشروع.

نشريّات

إثر هذا العمل الجدّي الذي ثابر عليه الفقيد دبّرت له الحكومة مكيدة إذ أوعزت إلى صاحب امتياز مجلة البدر بسحب امتيازه وبموجب ذلك يغلق الباب أمام الفقيد، لكنه كان أشجع منها فاستمرّ في إصدار نشريّات أخرى تشمل كلمة العرب متتابعة الصفحات مع ما سبق نشره من أعداد المجلة، وهكذا أصدر حديقة العرب، لطائف العرب، مقالات العرب الخ، وكان الصدور في أوقات مضبوطة على رأس كل شهر كأنّ المجلة لم تنقطع.

ثم أصدر تقويما سمّاه التقويم الاجتماعي وهو يوازي عددا من المجلة على نحو ما سبقه من نشريّات وأخيرا أصدر نشريّة الجناة ترجم فيها لبعض التونسيّين من رجال الفكر الذين شرّفتهم العدالة الفرنسيّة بأحكام زجريّة لمخالفتهم قوانينها.

وبذلك تمّ المجلد الأوّل من المجلة وبرئت ذمته من المال الذي تسلمه من المشتركين وتسبّب له هذا العمل في عدّة نكبات ماليّة ومع ذلك لم يحجم عن عمله.

اتجاه جديد

حوّل الفقيد وجهة عمله الأدبي إلى جمع ما أنتجه الأدباء المعاصرون من نظم ونثر ليضاف إلى العمل الذي شرع فيه والده وأتمه في حياته بالنسبة لعصره وسمّاه مجمع الدواوين التونسيّة الذي اشتمل على عشر مجلدات. وليستطيع القيام بعمله هذا على أكمل وجه وجب أن يقوم بعملين لا مفرّ له منهما أحدهما الاتصال بالأدباء مباشرة داخل البلاد التونسيّة وثانيهما أن يقوم معه بهذا العمل أديب شاعر له روح فيّاضة.

وعلى هذا الأساس ضمّ إليه فقيد الشعر المرحوم محمّد الشاذلي حزندار وبدأت الرحلة من يوم 27 ماي 1927 وانتهت يوم 13 جوان 1927 تجوّلا أثناءها في الجنوب والوسط حيث ذهبا إلى أهمّ مدن الجريد وصفاقس والقيروان وسوسة والمنستير. وقد طاردهما البوليس في كثير من الأمكنة ووقع إيقافهما بالسجن في قفصة وحجزت أوراقهما بدعوى قيامهما بدعاية سياسيّة ضد حكومة الحماية وامتنعت السلط المحليّة عن إرجاع تلك الأوراق إلى الفقيد إلى أن اضطرّ لطلب مقابلة سفير فرنسا بتونس لوسيان سان ليصدر إذنه بذلك.

نتائج الجولة

هذه الرحلة الأدبيّة ظهرت لها نتيجتان هامّتان إحداهما صدور أربعة أجزاء متتالية من كتاب الفقيد الذي سمّاه "الأدب التونسي في القرن الرابع عشر الهجري" وهو كتاب معروف متداول أضاف إليه الفقيد زيادات أخرى في عدّة مجلدات لم تطبع والثانية تمكنه من المساهمة في تحرير الصحيفة الأدبيّة من جريدة النهضة اليوميّة وذلك بداية من العدد الصادر في 19

جوان 1927 إلى أن أصبح فيما بعد هو المسؤول عن تحرير تلك الصحيفة التي استمرّت مدّة طويلة بعد أن طوّرها وأضاف إليها بحوثا اجتماعيّة وفلسفيّة يقوم بتحريرها نخبة من زملائه أو الأدباء الشبّان.

العـودة إلى الصحافة

من القرارات التي اتخذتها الحكومة سنة 1922 حرمان التونسيّين من أخذ امتيازات جديدة لإصدار صحف عربيّة ثم لمّا يقع تعطيل الموجود منها لا يسمح لها بالعودة إلى البروز لأنّ التعطيل لا يعتمد على أحكام قضائيّة بل على قرار يصدره الوزير الأكبر بطلب من الكاتب العام الفرنسي للحكومة التونسيّة.

وعلى هذا الأساس بقيت تونس محرومة من صحف جديدة طيلة سبعة أعوام بالإضافة إلى ما وقع تعطيله ممّا كان موجودا، لكن حدث أن منحت الحكومة سنة 1929 امتيازين أحدهما لجريدة الزمان وثانيهما لمجلة الصادرات والواردات وقد اشترطت على صاحبي الجريدة والمجلة أن لا ينشر أحدهما بصحيفته أخبارا سياسيّة أو اجتماعيّة إلا ما يبرّر نشر الإعلانات من أخبار اقتصاديّة أو فنيّة.

مجـال جـديد

وقد اغتنم الفقيد هذه الفرصة فتسوّغ امتياز مجلة الصادرات والواردات من صاحبه بعد أن أبدله باسم العالم التي أصدر منها عددين فقط في شهري جانفي وفيفري سنة 1930 ثم سحبه منه صاحبه وسوّغه لغيره.

ومجلة العالم هذه كانت من أحسن المجلات العربيّة في ذلك العهد محرّرة بأقلام عدّة أدباء مشهورين تناولت الأدب والعلوم والفنون والتاريخ والاقتصاد ممّا جعلها تحتلّ مكانة مرموقة بين صحف ذلك العهد.

العالم الأدبي

وعلى عادة الفقيد لم يقف سيره رغم الحواجز القانونيّة فقد قدّم طلبا لإصدار مجلة تحمل اسم العالم الأدبي على غرار العددين اللذين أصدرهما من مجلة العالم وشرع يعمل قبل أن يحصل على الإذن الرّسمي، وهكذا صدر العدد الأوّل من مجلة العالم الأدبي الشهريّة ابتداء من شهر مارس 1930، بعد مضيّ عام كامل مكنته الحكومة بعد اطلاعها على تجربته من امتياز مجلته الرسمي وذلك في شهر مارس 1931.

مجلة أسبوعيّة

ولم يكتف الفقيد بإصدارها شهريّة بل صيّرها مجلة أسبوعيّة تتناول مختلف البحوث الأدبيّة، اشترك في تحريرها مع الفقيد ثلة من أدباء الشباب ومن معاصريه سواء في ذلك المدرسيّون والزيتونيّون.

وأخذت من حين إلى آخر تصدر الأعداد الخاصّة كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فأصدرت من هذا النوع عددا عن مدينة القيروان بمناسبة مرور 13 قرنا على تأسيسها، وعددا خاصا عن فقيد الأدب جميل صدقي الزهاوي بمناسبة وفاته، ومثل ذلك العدد الخاص عن فقيد الشعر المرحوم أبي القاسم الشابّي بمناسبة مضي أربعين يوما على وفاته حيث لخصت فيه ما قيل في حفلة التأبين وعلقت على أسباب تخلف بعض الأدباء عن ذلك الحفل التذكاري. ومجلة العالم الأدبي هي المجلة التونسيّة الوحيدة التي انفردت في ذلك العهد بنشر الوثائق السياسيّة عن علاقة تونس بفرنسا وغيرها ممّا تكونت منه مجموعة هامّة تساعد المؤرّخين على دراسة تلك العلاقات وقد نشر فيها الفقيد قصصا متسلسلة قام هو بتعريبها أو قصصا مستقلة عرّبها هو أو أنشأها غيره من أدباء القصّة في ذلك العهد وفي طليعتهم المرحوم محمّد البشروش ومن

ابتكاراتها فتح مسابقة بين قرّاء العربيّة لاختيار ثلاثة من شعراء الشباب وقد أثارت المسابقة نقاشا بين الأدباء كانت عاقبته محمودة.

جريدة تونس

إنّ التعسّف والضغط اللذين قام بهما نائب فرنسا وممثلها بتونس الطاغية بيروطون قد قابلهما الشعب بردّ فعل قويّ كان من أظهر مظاهره رضوخ فرنسا إلى إبدال ذلك النائب بغيره موصى بسلوك اللين والاعتدال، وهو السفير أرمان قيون.

وقد حدث في تلك الأثناء أعني سنة 1936 تسلم الأحزاب الديمقراطيّة المتكوّنة منها الواجهة الشعبيّة بفرنسا زمام الحكم وكان من الطبيعي أن تسلك الحكومة الجديدة في فرنسا نفس السلوك الذي يجب أن يتبع في المستعمرات وبلاد الحماية.

وهذا ما حدث في تونس حيث صدرت أوامر 6 أوت 1936 التي أعطت حريّة الاجتماع والقول والصحافة وتأسيس الجمعيّات وإعادة الأحزاب المنحلة.

كان التونسيّون في الميدان السياسي منقسمين إلى طائفتين إحداهما اللجنة التنفيذيّة وتعتمد على ماضيها وما لها من جهاز قائم بما في ذلك الشعب والصحافة التي تساندها والثانية هي الديوان السياسي الذي لم يمض على تأسيسه إلا عامان وخمسة أشهر فقط، يعتمد نشاط مؤسّسيه وحيويّتهم، ومنهجه السياسي قائم على الاتصال المباشر بالشعب وعلى ما له من صحف تسانده وإن كانت قليلة وحديثة عهد بالتأسيس.

في هذا الجوّ الانقسامي أسّس الفقيد جريدته تونس وأصدر عددها الأوّل يوم 9 أوت 1936 وكانت تنشر مقالها الرئيسي تحت عنوان دائم هو "تونس قبل كلّ شيء" وسلكت سبيل الحياد في المعمعة وبدأت تتابع نشر أخبار الفريقين وتترجم أهمّ الأنباء حول الخلاف وحول ما يحدث في تونس عن

الصحافة الفرنسيّة والإيطاليّة بتونس إلى جانب الفصول التي تهمّ سياسة تونس العليا كقضايا التعليم والاستقلال القضائي ووجوب افتكاك النفوذ الإداري من أيدي الفرنسيّين، واسترجاع الأراضي الزراعيّة ووجوب وضع إدارة الأمن بيد التونسيّين إلى غير ذلك وعندما اشتدّ الخلاف بين طرفي الحزب وقيام كلّ شق بالدعاية لفائدته داخل البلاد التونسيّة كان مبعوث جريدة تونس يوافيها بما يحدث أثناء تلك الرحلات وما يجري داخل الاجتماعات التي يعقدها كل فريق، ورغم أنّ هذا السلوك كان لا يرضي الطرفين فإنّ جريدة تونس قد استمرّت على اتباعه في عهدها الأوّل إلى أن جاءت حوادث 9 أفريل 1938 ثم استأنفت الصدور ولكنها في طورها هذا بدأت تناصر الديوان السياسي خصوصا إثر تأدية المرحوم عبد العزيز الثعالبي شهادته أمام قاضي التحقيق الفرنسي لدى المحكمة الزجريّة العسكريّة التي انتصبت لمحاكمة رجال الديوان السياسي بتهمة التآمر ضد أمن الدولة واتضحت المناصرة جليّة عند نشر كامل الاستنطاق الذي أجراه الحاكم المذكور للشيخ الثعالبي في خصوص موقف الحبيب بورقيبة، ومع ذلك كله فقد استمرّت جريدة تونس تعلن حيادها إلى أن عطلت بقرار إداري مؤرّخ في 21 أوت 1939.

عـودتهـا

عادت جريدة تونس ابتداء من يوم 18 جوان 1948 ولكنها هذه المرّة أخذت تساهم في الحركة الوطنيّة مساهمة لها لون واحد وهو وجوب القضاء على الاستعمار والحصول على استقلال تونس مهما ارتفع الثمن.

أعاد الفقيد تجهيز مطبعته من جديد بعد أن نقلناها وهو متغيّب بإيطاليا إلى مقرّها الحالي في نهج الديوان عدد 5 واشترى لها آلات جديدة للطباعة رغم قلة ذات اليد والفضل في

هذا التجديد يعود إلى الأسرة التي التفت حولها من الشبّان وخصوصا منهم المتجوّلون بالمغرب العربي الكبير الذين فتحوا لها باب الاشتراكات الشرفيّة وأخذت تنشر أسماء أولئك المشتركين الممتازين الأمر الذي حفز كثيرا من أهل الثراء والوجاهة للتبرّع بما زاد على ثمن الاشتراك والثنائي الذي قام بهذا العمل هما السيّدان عبد الدائم والطيّب المرزوقي كما فعلا ذلك مع بعض الصحف الأخرى، ثم لمّا اشتدّت وطأة القمع السياسي وعطلت تونس يوم 13 فيفري 1952 عمد الفقيد إلى نشاطه الأدبي القديم فأخذ يصدر المؤلفات فطبع على التوالي بعض تراجم أدباء وعلماء تونس نذكر منها تراجم محمود قابادو، محمّد بيرم الخامس، عبد الرحمان بن خلدون، الوطنيّة في شعر ابن حمديس إلخ... ممّا بلغ عدده 12 كتابا كان يرسلها إلى المشتركين في جريدته تعويضا لِما دفعوه من معين اشتراكهم فيها على عادته في الوفاء بما تعهّد به.

مساومة

في آخر شهر ديسمبر سنة 1942 استدعته القيادة الألمانيّة مع جملة من دعتهم من الصحفيّين التونسيّين وعرضت عليهم فكرة إصدار جريدة يوميّة تونسيّة بدل جريدة اليوم المحوريّة وسلمت لهم مفاتيح مطبعة وجريدة البتي ملتان التي وضع عليها الألمان يدهم باعتبار أنها ملك لليهود اعتمادا على قوانين فيشي الخاصّة باضطهاد اليهود، وقد لاحظ الفقيد أن نشر جريدة عربيّة تونسيّة وحده لا يكفي إذا لم يكن مسبوقا بتصريح من دول المحور يقتضي ضمان استقلال تونس وتخليصها من ربقة الاستعمار الفرنسي، وبما أنه لم يجب لمطلبه فقد انسلّ من ذلك الاجتماع وفضّل البقاء على الحياد، ولم تمض بضعة أيّام حتى دعي من جديد من طرف الوزير الألماني راهن إلى مقرّ القيادة يوم 1 جانفي 1943 مع رفيقه المرحوم البشير الفورتي للحضور أمامه بمقرّ

القيادة بتونس في دار حسين (مقرّ معهد الآثار الإسلامية الآن) وفي هذه المقابلة عرض عليه القائد الألماني السفر إلى إيطاليا للعمل هناك.

في إيطاليا

على الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم 3 جانفي 1943 امتطى الفقيد الطائرة من تونس وبصحبته كاتبه الخاص المرحوم عمر الفاروق الدقاشي صاحب جريدة الإصلاح وابنه الصبيّ نورالدين. وفي مدينة روما شعر بأن سوء نيّة إيطاليا الفاشستيّة وطمعها في افتكاك تونس من فرنسا لضمّها إلى ليبيا قد تغلب على ما كان يخامر الألمانيّين من حسن نيّة نحو مصير بعض المستعمرات الفرنسيّة والأنقليزيّة، وهذا ماجعله يعتكف هناك على التأليف والترجمة وتحقيق التراث العربي وفي المقدمة ديوان ابن حمديس الصقلي.

الشعور بالنهاية

أطلق الألمانيّون سراح الزعماء التونسيّين من المعتقلات الفرنسيّة وجاؤوا بهم إلى روما وكان بها من زعماء الشرق السيّد رشيد عالي الكيلاني والشيخ أمين الحسيني وكان ذلك في شهر مارس.

إثر مخابرة هاتفيّة بين الفقيد والحبيب بورقيبة اجتمعا معا بمحضر المرحوم علي البلهوان في النزل الذي كان به الفقيد وهناك قال له بورقيبة إني حدّدت النقط الرئيسيّة التي لا صلة لها بتأييد أحد المتحاربين على حدة ليكون التصريح المطلوب منّى قاصرا على تخليص المعتقلين من سجنهم فقط، وكان هذا اللقاء يوم 25 مارس 1943.

لقـاء جديـد

وعلى الساعة العاشرة من صباح 27 مارس 1943 تقابل الحبيب بورقيبة مع الفقيد وأشعره بأنه اتفق مع الإيطاليّين على

إذاعة ذلك النصّ الذي سيرجع بعده إلى تونس وقد تمّ ذلك التصريح ونشرته مجلة العالم العربي مع صورة بورقيبة وقد كانت تصدرها حكومة إيطاليا بروما، كما نشرته جريدة إفريقيا الفتاة بتونس.

الفقيد في السجن

على الساعة الأولى بعد زوال يوم 27 مارس 1943 جاءه إلى النزل رئيس مركز شرطة في زيّ مدني ونقله مع كاتبه الخاص وابنه نورالدين إلى وزارة الداخليّة الإيطاليّة وهناك سجّل عليه تصريح تضمّن أنّ الألمانيّين هم الذين سخّروه وجلبوه إلى إيطاليا، وحيث امتنع عن العمل في الإذاعة لفائدتهم فقد سلموه إلى الإيطاليّين، وأنه لم يحصل له أدنى ضرر بدني ومن هناك نقل جميعهم إلى حصن روفيسانو الواقع في ضواحي فلورنسا طيلة ثلاثة أشهر ومنها نقل إلى محتشد بلدة (فوشيكيو) التي بقي بها إلى أن خلصه الحلفاء عند تحريرهم لها ونقلوه إلى مركز الاستقبال حول مدينة روما.

الحكم عليه بالإعدام

رغب الفقيد في العودة إلى تونس في تلك السنة ولكنه استفاد من القيادة الإنقليزيّة أنه محكوم عليه من طرف المحكمة العسكريّة الفرنسيّة بتونس بالإعدام بتهمة الفرار مع العدوّ، وعندها خيّر البقاء هناك إلى أن تزول حدّة الغضب الاستعماري الفرنسي بتونس التي عصفت بكلّ شيء حتى بأميرها الجالس على عرشها. مكث بإيطاليا ينتظر الفرصة السانحة له بالرجوع إلى الوطن إلى شهر جويلية 1945 حيث امتطى باخرة متجهة إلى تونس التي وصلها يوم 7 منه وعند نزوله من الباخرة برصيف مدينة بنزرت ألقي عليه القبض من طرف سلط الاحتلال الفرنسي رغم احتجاجه بالوثائق والمستندات التي سلمتها له سلط الحلفاء

بإيطاليا بأنه كان في محتشد وأنه حرّر بواسطتهم عند تحرير المدينة التي كان معتقلا فيها.

في السجن العسكري

أودع الفقيد السجن العسكري من يوم 7 جويلية 1945 بتهمة التعاون مع دول المحور وبقي هناك رغم ما كانت عليه صحّته من علل واختلال، الأمر الذي اضطرّت معه القيادة العسكريّة إلى نقله إلى المستشفى العسكري ليكون تحت الرقابة المشدّدة حتى لا يتصل به إلا أهله فقط بعد تفتيشهم مع تحديد مدّة اللقاء بمهلة وجيزة، ثم وقع التدرّج إلى التخفيف عنه من العذاب فنقل إلى المستشفى المدني بالرابطة، وهكذا إلى أن أطلق سراحه يوم 26 فيفري 1947، كلّ هذا العقاب كان من أجل إخلاصه لوطنه ومحبّته للشعب التونسي وتفانيه في خدمته.

الاتحاد الاقتصادي التونسي

في شهر ديسمبر 1935 أسّس الراحل الكريم جمعيّة تحت الإسم أعلاه وأوكل أمرها إلى المرحوم سعيد بودربالة المتخرّج من الكليّة التجاريّة بمدينة ليون بفرنسا ذلك لأنه كان يؤمن كزميله بودربالة بأنّ العناية بالشؤون الاقتصاديّة ضرورة لا مفرّ منها لأيّ شعب يريد النهوض والرقيّ والتطلع إلى حياة أفضل.

وعلى هذا الأساس وضع كتابا مع زميله عنوانه "الحركة الاقتصاديّة الدّاء والدّواء" وطبعه سنة 1935 بمطبعة العالم الأدبي التي كانت تعرف سابقا بمطبعة العرب ثم عالج القضيّة الاقتصاديّة في سلسلة من المقالات نشرها في جريدته تونس وأخيرا أفسح المجال لزميله فنشر له في سنتي 1937 و1938 عدّة فصول تحت العناوين التالية، بين الحياد والاقتصاد في 28 ديسمبر 1937، ورجال السياسة والاقتصاد الوطني في 3 جانفي 1938، وتعاون... محادثة بين المقيم العام والماطري في

11 فيفري 1938، وبين هنري فرنيت وسعيد بودربالة في 28 فيفري 1938، والحلّ الوحيد في 16 جوان 1938 إلى غيره من الفصول.

وقد اتصلت هذه المؤسّسة إثر مساعيها الحميدة برسالة من رئيس لجنة البحوث والاستعلامات بباريس م.ماريوس دي بوي يطالبها فيها بتوجيه نسخة من التقرير الذي كانت رفعته إلى مقيم فرنسا بتونس. وهذا ما حمل رئيس المؤسّسة على مقابلة رئيس لجنة البحوث المذكورة يوم الجمعة 30 أفريل 1938 صباحا وهو على جناح السفر إلى الجزائر ومكنه رأسا من النسخة المطلوبة فوعده بالتأمّل فيها والدخول في التفاصيل عمّا نشأ عن هذا التدخّل وما حصل من نتائج لا يتسع له هذا المجال.

شركة دار الثقافة

هذا مشروع آخر سعى إلى تأسيسه الراحل الكريم وكان ذلك في جانفي 1952 وهو عبارة عن شركة تعاضديّة استهلاكيّة لاستجلاب الكتب الدراسيّة وكتب المطالعة وتسديد سائر حاجيّات طلاب الثقافة والمساهمين فيها من نشر وطبع وتوزيع وغير ذلك، وكان مقرّ هذا المشروع الاجتماعي والثقافي بنهج الديوان عدد 5 وفتح لها حسابا جاريا تحت عدد 13989، وقد أعلمتني هذه المؤسّسة برسالة مؤرّخة في 28 جانفي 1952 بأنها تحصّلت على رخصة صرف من ديوان التجارة الخارجيّة بتونس لجلب كمية كبرى ثانية من الكتب المختلفة من القاهرة لتسديد حاجيّات المساهمين فيها، وقد أوكلت أمانة صندوقها المالي ورئاسة لجنتها الاقتصاديّة إلى السيّد محمّد بن عبد القادر، ومن بين المساهمين في هذا المشروع المرحوم البشير الفورتي والحكيم أحمد بن ميلاد وفضيلة الشيخ محمّد الفاضل ابن عاشور وسعادة السيّد محمّد بدرة وغيرهم. إنّ

الأحداث السياسيّة التي جرت في ذلك العهد هي التي حالت دون نموّ ذلك المشروع حيث اتجهت كل الطاقات التونسيّة لمكافحة الاستعمار الغاشم وجها لوجه ومع ذلك فقد كانت بذرة صالحة في ميدان مقاومة التخلف الفكري اجتهد الفقيد في إيجادها وإن لم ينجح فله على الأقلّ أجر واحد.

العـودة إلى الأدب

لم تثن الأحداث السياسيّة عزيمته عن العودة إلى ميدان خدمة الأدب التونسي ومتابعة نشاطه فيما كان شرع فيه منذ شبابه لكنه في هذه الظروف العسيرة لم يتمكن من الاضطلاع بعمله الطباعي الذي لم تتوفر له أسبابه فراح يغذي مجلة أدبيّة جديدة صدرت في تونس وهي مجلة الندوة وذلك منذ شهر جانفي 1953.

رحبت الندوة بما كان يقدّمه لها من إنتاج أدبي تناول فيه فنونا كثيرة من الأدب، بدأ أوّل سلسلة فصوله الأدبيّة في العام الأوّل من مجلة الندوة بنشر تحقيقات عن أدباء الشباب وهم على التوالي باستثناء الأوّل منهم الذي صدّر به سلسلة فصوله وهو الشاعر تميم الفاطمي أمّا الباقون فهم محمّد العيد الجبّاري ـ محمّد العريبي ـ علي الدوعاجي ـ سعيد أبو بكر ـ عبد الرزّاق كرباكة ـ محمّد بوشربيّة، ومن الشيوخ مصطفى آغا ثم أبو القاسم الشابّي من الشباب، وعاد إلى أدباء الشيوخ فترجم لاثنين منهم هما المرحومان محمّد الشاذلي خزندار والبشير الفورتي وذلك في العدد الأوّل من السلسلة الجديدة لمجلة الندوة الصادر في شهر فيفري سنة 1954 ثم تناول فنونا أخرى في الندوة فنشر في عدد شهر فيفري 1956 بحثا عنوانه "مركز الأدب في حضارتنا". وفي شهر مارس تناول نوعا آخر من الأدب هو الأسطورة فكتب موضوعا جديدا عنوانه فاطمة وهي خرافة في كتب تاريخ إفريقيا.

وعاد إلى الندوة من جديد في شهر ديسمبر من تلك السنة حيث تناول لونا آخر من ألوان الأدب وهو القصّة، فكتب لها قصّة شاب مسلم مع باريسيّات حسان، ويختم نشاطه في مجلة الندوة بدراسة تاريخيّة عنوانها "سلاطين المغرب الذين دخلوا إلى تونس" نشرت بعددها الصادر في شهر فيفري 1957.

وهكذا نراه يتبرّع بفصوله الأدبيّة المتنوّعة على أصحاب المجلات والصحف التونسيّة خدمة للثقافة وللثقافة خاصة كلفه ذلك ما كلف من عناء وتعب ومع ذلك نراه يبتسم في السرّاء والضرّاء حامدا الله على ذلك.

النادي الأدبي

في يوم الإثنين الرابع من شهر جانفي سنة 1926 على الساعة السادسة بعد الزوال اتخذ النادي الأدبي لجمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصادقيّة في الجلسة التي عقدها تحت رئاسة السيّد محمّد بن الحسين نائب رئيس الجمعيّة المذكورة قرارا يقضي بتعيين الراحل الكريم كاتبا لمحاضر جلسات ذلك النادي ومن ذلك العهد استمرّ يقوم بمهمّة تدوين ما يدور داخل المجلس من مناقشات حول المواضيع المعروضة عليه خصوصا ما يسمّى بالمحادثات الاعتراضيّة.

تخلف ونيابة

لم تحل شواغل الفقيد الكثيرة بينه وبين القيام بمأموريّته في النادي الأدبي بل استمرّ يعمل بنشاط من التاريخ الذي أسندت فيه إليه إلى سنة 1931 عندما لم تترك له مجلته العالم الأدبي متسعا من الوقت يصرفه لعمله في النادي الذي كادت تعصف به أهواء الرجعيّة اللهم إلا في الفترة الواقعة بين يوم 25 مارس 1929 ونهاية تلك السنة حيث قمت أنا مقامه في تدوين محاضر ذلك النادي وما يهمّ أشغاله الأخرى كالإعلان في الصحافة اليوميّة عن مواعيد المحاضرات وتوجيه الدعوات إلى الأعضاء

لحضور محاضراته وعلى الأخصّ التي تلقى بقاعة الجمعيّة الخلدونيّة.

مشـادّة وزوابـع

ألقيت بالنادي الأدبي محاضرتان أثارت كل واحدة منهما زوابع قلميّة كادت تنتهي إلى فتنة:

الأولى هي المحاضرة التي ألقاها المراسل اليسوعي بتونس الأب يوسف سلام حول تطبيق الدكتور طه حسين لنظريّة ديكارت في بحث الشعر الجاهلي.

والثانية هي محاضرة المغفور له أبو القاسم الشابّي عن الخيال الشعري عند العرب، ذلك أن أنصار الرجعيّة في تونس وعلى رأسهم المرحوم علي كاهية قد اتهموا النادي الأدبي بأنه أصبح أداة هدم لكيان الأدب العربي بإفساح المجال لرجل راهب ليتحدّث عن نظريّة الشكّ في التراث الأدبي الذي دوّنه الأوائل في كتبهم على أنه مقطوع بصحّته، وبإفساح المجال لشابّ تونسيّ بأن يقول إنّ العرب ليس لهم خيال شعري البتة.

وقد كان السيّد علي كاهية من رجال اللجنة التنفيذيّة للحزب الحرّ الدستوري التونسي وكان اتصاله برجال الحزب الإصلاحي متينا أيضا، وهذا ما سهّل له مهمّة استعمال جريدة النهضة اليوميّة ليقول فيها ما شاء حتى أنه وصف الراحل الكريم باعتباره مدوّن محاضر جلسات النادي الأدبي بأنه مرزوء في وطنيّته ودينه، الأمر الذي حمل الفقيد على الردّ عليه والدفاع عن نفسه بمقال عنوانه "مشاء بالنميمة كاذب".

بعد الاستقـلال

انتظر الناس الذين يعرفون نشاط الراحل الكريم في الميدان السياسي فضلا عن كفاحه الثقافي أن يشاهدوه مديرا لمركز ثقافي أو اجتماعي أو موظفا بإحدى كتابات الدولة ولكنه بعد تجربته القصيرة في إدارة المطبعة الرسميّة للدولة التونسيّة

التي لم يجد فيها مجالا إذ اصطدم مع مديرها الفرنسي الذي لم يقع الحدّ من نفوذه، فضّل البقاء خارج الوظيف الإداري كما كان رفضه في مستهلّ شبابه عندما كان صهرا للباي الجالس على عرش تونس أحمد باي الثاني ولم ينعزل عن العمل بل بقي ينير بعض الدوائر العليا بما يجري بتونس من الأحداث وما يتحدّث به رجل الشارع عن مشاريع الحكومة وإنجازاتها، كلّ ذلك في صدق وإخلاص وأنفة وإباء، الأمر الذي زاده مكانة واحتراما لدى عارفي فضله إلى أن أدركته المنيّة يوم 27 أفريل 1965 ونحن نأمل أن تقع العناية بحمر الحواصل الذين تركهم الفقيد وأن يكونوا من محجوري الوطن إلى أن يبلغوا أشدّهم ثقافيّا وبذلك نؤدّي بعض الواجب نحو صديقنا العزيز تقبّله الله بعفوه وغفرانه.**

---

* "الصباح" بتاريخ 20 و27 ماي و3 جوان 1965. كما نشرت مجلة الإذاعة مداخلة للمهيدي عن السنوسي في العدد 148 السنة السابعة بتاريخ 17 ماي 1965.

** هذا النص يتكامل مع سابقه. لذلك رأينا من المفيد إثباته في هذا الكتاب.



فـرج بسبـاس*

(1892 ـ 1966)

كانت صناعة النسج الحريري بالبلاد التونسيّة في القرن التاسع عشر صناعة تقليديّة لا تقوم على أساس من الفنّ سواء في الجودة أو في تناسق الألوان أو في السرعة، فـ(النول) العتيق كان الآلة الوحيدة التي يجري بها العمل في صناعة المنسوجات الحريريّة وغيرها، يعمل على مهل محافظا على ما له من ميزات البطء وقلة الانتاج كما أن تنوّع الألوان يقوم على تقاليد موروثة هي تقاليد (التقرطية) و(الفوطة) وقليلا ما يتعدّاها إلى (المختم) الذي تصنع منه ملابس الرجال كـ(الفرملة) و(الصدريّة) و(المنتان).

كان هذا النظام المتوارث من عصور الانحطاط في أواخر العهد الحفصي إلى أواخر القرن التاسع عشر مشاهدا ومتبعا في جميع المدن التي اشتهرت بالمصنوعات الحريريّة كمدينة تونس ومنطقة الجريد وغيرها من المناطق ولم يتغيّر هذا الوضع إلا بعد تأسيس المدرسة الفنية بتونس في منتصف العقد الأوّل من هذا القرن.

المدرسـة الفنيـة

هذه المدرسة العصريّة للتعليم الصناعي أسّستها حكومة الحماية لأبناء الفرنسيّين والأجانب المستوطنين بالبلاد التونسيّة، والتعليم فيها كان نظريّا إلى أن يحرز فيها التلامذة على شهادة ختم دروسها التي تؤهّلهم لمتابعة تعليمهم العالي خارج البلاد التونسيّة من الأقطار الناطقة بالفرنسيّة. وكانت بها أقسام لمتابعة تعليم الصناعات التقليديّة كنسج الحرير ونقش النحاس وطرز

الجلود وتجليد الكتب وتهذيبها وغير ذلك من الفنون. وإلى جانب الدروس النظريّة هناك مركز داخل المدرسة للتطبيق خصوصا في الكهرباء والحديد والنجارة والدباغة والصياغة والصباغة.

وكانت شروط الالتحاق بهذه المدرسة خصوصا لمن يكون بها داخليّا (بيّاتا) كثيرة وقد وقع التضييق والمبالغة في تلك الشروط إلى حدّ اجتياز مناظرة عسيرة المواد إلا على من كان متفوّقا في تعليمه الابتدائي وهذا كان شأن التلميذ الشاب فرج بن محمّد ابن الحاج محمّد (بالفتح) بسباس المولود في غرة شهر أفريل سنة 1892 بمدينة المنستير.

المنستير مركز صناعي

كانت مدينة المنستير في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأوّل من القرن العشرين مدينة الصناعات التقليديّة مثل تصبير الأسماك وآثار (التنارة) يعرفها كلّ من زار تلك المدينة. وكان بها أكبر مصنع لعصر الزيتون وصناعة الصابون، وإلى جانبهما مصنع للملح المستخرج من سبخة خنيس. وبموجب هذا الوضع الصناعي كانت حركة ميناء المنستير الموجودة حتى اليوم في طريق المنستير خنيس ناشطة ومنها تصدّر في كلّ سنة آلاف بل مئات آلاف الأطنان من الزيتون ومصبّرات الأسماك والملح إلى أوروبا.

الإتـجاه الصناعـي

في هذا الجوّ الصناعي فتح الشاب فرج بسباس عينيه وتابع تعليمه إلى أن أحرز على شهادة التعليم الابتدائي سنة 1907. كان جلّ أبناء المنستير الذين ينهون تعليمهم الابتدائي ينتقلون إلى مدينة تونس العاصمة لمتابعة تعليمهم الثانوي، ويتجه أكثرهم إلى التعليم النظري في المعاهد الخاصّة لهذا النوع من أنواع التعليم، أمّا التعليم الفني والصناعي فإنّ الذين يتجهون إلى التحصيل عليه عددهم قليل جدّا ومن هذا العدد القليل صاحب الترجمة.

اختار المترجم له تعلم صناعة نسج الحرير لأنه رأى أنّ هذه الصناعة منتشرة انتشارا كبيرا في المدن الساحليّة وعلى الأخصّ في الوسط حيث توجد عدّة (أنوال) بمدينة قصر هلال وما جاورها كلمطة وصيّادة وبوحجر ومصنوعات هذه القرى كلها تقوم على أساس التقليد، لذلك فضّل الالتحاق بالمدرسة الفنية واختار مناظرة الدخول إليها فنجح بتفوّق ثم اختار صناعة الحرير لتأخّرها وضرورة الاسراع بإدخال تحوير جذري على أصولها بتونس حسب معطيات العهد الجديد.

الاختصاص

تابع تعليمه الثانوي بالمدرسة الفنية الكائنة خارج باب العلوج من مدينة تونس المعروفة قديما بمدرسة إيميل لوبي نسبة إلى رئيس جمهوريّة فرنسا الذي وضع حجرها الأساسي عند زيارته إلى تونس، ولمّا أنهى تعليمه بهذه المدرسة أرسله والده إلى المعهد البلدي للنسيج بمدينة ليون من فرنسا حيث زاول تعليمه بهذا المعهد عامي 1910 و1911.

العودة إلى الوطن

إثر عودته إلى الوطن عيّنته إدارة العلوم والمعارف والفنون المستظرفة التي قامت مقامها كتابة الدولة للتربية القوميّة مرشدا للنسيج بالمدرسة الفنية المشار إليها وذلك سنة 1912. باشر هذه المهمّة التي تسند لأوّل اختصاصي تونسي تخرّج فيها من معهد علمي في أشهر مدينة لصناعة المنسوجات الحريريّة بفرنسا وهي مدينة ليون، وقد اتخذ أثناء مباشرته للتعليم فرصة انتشار الحرب العالميّة الأولى لتحريض سكان مدن الساحل المشهورة بصنع الحرير على إدخال أبنائهم إلى المدرسة الفنية لتطوير تلك الصناعة بعد تخرّجهم، وأنا أعرف عددا من تلاميذ الفقيد الذين يشهدون له بالفضل ويشيدون بفضله على هذه الصناعة، قال لي أحدهم وقد حملني معه إلى محلّ صناعته وأطلعني على أنواع

(الأنوال) العصريّة التي جلبها من فرنسا إنّ سبب ما يتمتع به من مال وجاه الفضل فيه يعود إلى الفقيد الذي نفخ فيه من روحه.

مهمّة جديدة

حدثت في تونس بين سنتي 1930 و1938 أزمة صناعيّة واقتصاديّة عرفت بأزمة الحرايريّة وهم الذين يتعاطون صناعتهم اليدويّة حسب أساليب عتيقة حيث كسدت صناعتهم وقلّ دخلهم وتسرّب إليهم الفقر والخصاصة من جراء معمل الحرير الميكانيكي الذي أسّسه إسرائيلي تونسي بمدينة تونس يدعى بريتو بن موسى الذي كان يبيع منتوجه بثمن منخفض جدّا، وبموجب هذا الحط من الثمن وكثرة المنتوج عسرت حالة الحرايريّة الاقتصاديّة حتى اضطرّت الحكومة للتصدّق عليهم بالسميد والزيت ولكنهم امتنعوا عن قبول الصدقة وأسّسوا نقابة طالبت بإغلاق المعمل الميكانيكي وبتحديد الكمية المستوردة من فرنسا من المنسوجات الحريريّة، وبعد مدّة أجيبت طلباتهم بغلق المعمل وفرض ضريبة على الواردات الحريريّة.

في هذا الظرف العصيب سعى الفقيد لدى الحكومة مع بعض أصحاب الصناعات بتونس إلى تأسيس المركز الجهوي للفنون التقليديّة كصناعة الزربيّة وغيرها. وعند تأسيس هذا المركز واتخاذ مقرّ له عرف بدار المستيري أسندت إليه مهمّة الإشراف الفني عليه وذلك من يوم 1 فيفري 1938.

إدارة معهد فني

كان الفقيد بوصفه مشرفا على المركز الجهوي للفنون التقليديّة ينتقل بين مختلف الجهات التي تزدهر فيها تلك الصناعات كمدينة القيروان وجزيرة جربة وبنزرت وقفصة وقابس ووذرف لإرشاد معلميها ومعلماتها. ونظرا لما أظهر من التفوّق في مأموريّته الفنية وقعت تسميته في غرّة جانفي 1941 مديرا للمركز الجهوي للفنون التونسيّة بمدينة سوسة.

ومن المعلوم أنّ مدينة سوسة في ذلك العهد كانت عاصمة الساحل الصناعيّة فقد تحوّلت إليها الصناعة الثقيلة التي كانت بمدينة المسنتير منذ سنة 1920 كما قلنا وأصبحت مركزا لمختلف الصناعات وبحكم موقعها الجغرافي كانت سوسة مجمع نشاط المدن الساحليّة في الصناعات التقليديّة حيث أنشئ هذا المركز وأسندت إدارته إلى الراحل الكريم.

نجاح

باشر عمله طيلة حياته الإداريّة التي انتهت يوم 29 أفريل 1954 بإخلاص وبلا انقطاع لتخريج الفنيّين في الصناعات التقليديّة حتى أن المؤسّسات الصناعيّة على اختلافها كانت تستعين بخبرته وحسن ذوقه ومهارته على القيام بعملها فكان يستجيب لرغباتها وعلى يديه تخرّجت عدّة أجيال من مهرة أصحاب الصناعات فلما جاء دور إنشاء الديوان القومي للصناعات التقليديّة كان الفقيد من واضعي أسسه وبمقتضى ملاحظاته الفنية أحرز هذا الديوان على النجاح حيث وقع تركيز قواعده على أصول ثابتة وطالما استعان به مديرا الديوان الأوّل والثاني على حلّ ما حدث لهما من مشاكل فكان عند حسن ظنهما إذ يسرع بتلبية رغبتهما.

وسام الجمهوريّة

وهذا ما قدّره فيه فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة حيث قلده وسام الجمهوريّة في غرّة شهر جوان 1965 وذلك تقديرا لخدماته للوطن طيلة أيّام حياته التي انتهت يوم 18 جويلية 1966 حيث فارق الحياة مأسوفا عليه بعد أن أنهكه مرض عجز الأطباء عن معالجته رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه في أعلى عليّين.

---

* "مرآة الساحل" في أكتوبر 1966. انظر مقالا للمترجم له عن نسج الحرير بالفرنسية منشور في مجلة إبلا لسنة 1953 ص 401. 412.

محمد بورقعة*

(1906 ـ 1967)

كان لخبر وفاة النابغة العبقري العصامي محمّد بورقعة في اليوم العاشر من شهر جانفي المنصرم الأثر العميق في مختلف الأوساط الثقافيّة بالجمهوريّة التونسيّة وذلك لِما امتاز به من الدّأب على العمل لفائدة نشر الثقافة وتعميم المعرفة لا يرجو من وراء ذلك جزاء ولا شكورا. وقليلا هم الذين يعرفون كيف تكوّن هذا الأديب العصامي وأكثر منهم عددا الذين يدركون أنّ الفقيد العظيم هو الأديب الملتزم بحقّ الذي بذل نفسه وحياته وصحته وماله في سبيل الالتزام الأدبي.

وقد كانت اتصالاتي به متقطعة، وفي فترات معدودة لا ألتقي به وجها لوجه خصوصا بعد أن فارق مدينة تونس والتحق بمسقط رأسه توزر ثم استوطن مدينة صفاقس وبها توفي عليه رحمة الله. كان محلّ سكنانا بالمدرسة اليوسفيّة، بنهج الصبّاغين رقم 29 من مدينة تونس العاصمة، إذ كان في كفالة أخيه الأستاذ إبراهيم المحامي الآن بصفاقس.

وكان لقاؤنا يكاد يكون يوميّا بمكتبة الجمعيّة الخلدونيّة بسوق العطارين بتونس، حيث يطالع أكثر ما يطالع المجلة الآسيويّة التي تملك منها تلك المكتبة مجموعة فريدة بتونس باستثناء مجموعة المكتبة الوطنيّة، واستفادته من هذه المجلة لا يقتصر على ما كانت تنشره من الدراسات التاريخيّة الاستشراقيّة فقط، بل كان يستفيد منها (بطريقة غير مباشرة) من ترجمة ما تنشره من الأبحاث باللغتين العربيّة والفرنسيّة، وكثيرا ما كان يقيّد بعض المصطلحات في الكنش الذي كان يلازمه.

ومن هنا ننتقل إلى مرحلة أخرى مرّ بها الفقيد في شبابه وهي تردّده على مدرسة اللغة والآداب العربيّة التي كانت بسوق العطارين وعلى مكتبتها الموجودة بها إلى اليوم حيث دعيت في عهد الاستقلال بالمكتبة الوطنيّة. في تلك المدرسة كان يتابع دروس الترجمة والتعريب ويتلقى دروسا في الأدب العربي على شيخ الجماعة المرحوم الشيخ محمّد العربي الكبادي ودروسا أخرى في اللغة على كبير المستشرقين وليام مارسي.

وكانت الدروس كلها تبدأ من الساعة الرابعة بعد الزوال لذلك كان يقضي الصباح في المطالعة بالمكتبة، وفيها تعرّف بحافظها العالم اللغوي المشهور لويس باربو الذي انعقدت بينه وبين الفقيد صلات روحيّة جعلت المحافظ يزوّد الراحل بكلّ ما يطلبه منه من معلومات في مختلف الأبحاث التاريخيّة والاجتماعيّة واللغويّة، وكان إلى جانب إرشاده إيّاه يقدّم إليه قائمة الكتب التي تبحث الموضوعات التي يدرسها الأديب بورقعة ثمّ يزوّده بنفس الكتب ويعيرها له عندما كان مقيما بالجريد أو بصفاقس، في هذا الجو العلميّ الصرف سلك الفقيد مسلك الجدّ في أبحاثه والتعمّق في دراساته وأنت تدرك هذا في تعاليقه على ما ينشره بعض الباحثين الفرنسيّين في الصحافة الفرنسيّة سواء بتونس أو بباريس أو الجزائر حول المسائل التي لها تعلق بالتاريخ التونسي في مختلف عصوره، ولكي أدلّ القراء على نماذج من هذا النوع أشير عليهم بمطالعة البحث المتسلسل حول فكرة البحر الجوفيّ وتطوّرها الذي نشره على التتابع بجريدة النهضة اليوميّة بتونس بداية من عددها الصادر في 19 جويلية 1931 فذلك البحث مملوء بالمعلومات الصحيحة ومدعّم بالوثائق والمراجع التاريخيّة التي عالجت الموضوع في أزمنة متفاوتة.

وبعد مضيّ عام على نشر هذا البحث عهدت إليّ رئاسة تحرير جريدة الزمان فكان الفقيد يزوّدني بأبحاث من هذا النوع يكتبها تحت عنوان سانحة ويمضيها بابن الكردبوس، وأذكر من بينها

سانحة أحتفظ بنصّها بخط يده حول الشريط السينمائي الناطق بالفرنسيّة الذي أشرف عليه الفرنسي م.درجفال المكلف من طرف الحكومة التونسيّة بالدعاية لفائدة السياحة وجلب السوّاح إلى قطرنا العزيز، فقد علق على ذلك الشريط المخلّ بكرامة الشعب التونسي ـ لأنه يصوّره في دور الانحطاط والتأخّر ـ تعليقا ردّ به على جميع مفترياته وأشار على الحكومة بالعدول عن عرض ذلك الفيلم ثم أشار عليها بأن تكلف ذلك الموظف وتحوّل تلك الأموال المرصودة في حسابه لينصرف إلى القيام بعمل آخر مفيد لبلاد الجريد الذي شمل الفيلم بعض مناظره، ذلك العمل هو نشر المؤلفات التي كتبها العلماء الأجانب عن الجريد وكلها تحوم حول غراسة النخيل ومعالجة الأمراض التي تعتري النخيل ومقاومة الآفات التي تسلط على التمور والطرق الموصلة لنضج التمور قبل إبّانها وغير ذلك من الكتب التي عرض في السانحة قائمتها مصحوبة بأسماء مؤلفيها.

وعلى هذا الأساس راسلني ونشرت له بالزمان فصولا عن الأدب التونسي في القرنين الأوّل والثاني ميلاديين، بداية من العدد 242 بجريدة الزمان الصادرة في 21 أوت 1934 واستمرّ في مراسلة الزمان بعد انفصالي أنا عن رئاسة تحريرها فكتب فصلا فيها له أهميّة كبرى عن حامة الجريد أو البهاليل نشرته له الزمان بعددها 462 الصادر في 12 جانفي 1939 وهو بحث تاريخي متسلسل عنوانه "حامّة الجريد تنتقم".

ثمّ جاءت الحرب العالميّة الثانية ونكبت تونس بها النكبة المشهورة وألجمت فيها الصحافة، فكان الفقيد معتكفا أثناءها على التحرير والدراسة والتنقيب، وما كادت تنتهي تلك الغمرة وتعود الحياة الفكريّة إلى نشاطها حتى رأينا الفقيد يستأنف نشاط النشر لِما حرّر وحبّر، فيرسل إلى النهضة الأدبيّة التي كان يشرف عليها صديقنا الأستاذ الطيّب العنابي المحامي سلسلة من الفصول التاريخيّة القيّمة تحت عنوان "أعرف

بلادك" ابتداء من الفصل الذي كتبه عن مدينة نفطة بالعدد الصادر منها يوم 6 مارس 1944 وهكذا تحدّث عن فريانة والكاف وبنزرت وسبيطلة ومجاز الباب وغيرها من المدن التونسيّة على عادته في التحقيق العلمي يستعرض في تحريراته المراجع التاريخيّة التي استقى منها معلوماته حتى يتمكن غيره من الاطلاع عليها والاستفادة منها.

وليجعل القارئ مقبلا على أبحاثه التاريخيّة كان ينوّعها تنويعا متماشيا مع اتجاهه الثقافي، ففي نفس السنة 1944 نشر بنفس الجريدة فصولا أخرى عن الفنون الجميلة فهذا بحث عنوانه الموسيقى العربيّة في نظر المستشرقين (3 أفريل 1944) وهذا بحث آخر عنوانه المسرح من الناحية الآلية نشره بالنهضة الأدبيّة أيضا (24 جويلية 1944) واستمرّ في نشره متتابعا بها إلى العدد الصادر في 11 سبتمبر 1944.

وفي هذه السنة نفسها نرى الفقيد يخطو خطوة أخرى في سبيل المسرح التونسي الذي ألف فيه بعض المسرحيّات التي تعالج مواضيع تونسيّة أو عربيّة أو إسلاميّة، لا فرق بين التاريخي منها والاجتماعي، ثم ليجعل من عمله وإنتاجه المسرحي مادّة ملموسة حيّة تتغذى منها الجماهير التونسيّة عن طريق الجمعيّات المسرحيّة التي تتكفل بإخراجها على المسارح التونسيّة، توجّه بنداء إلى جريدة الزهرة وهذه علقت عليه تحت عنوان "مؤلف مسرحي" ونشرته بعددها الصادر في 5 جانفي 1944 جاء فيه ما يلي:"كتب إليّ أديب من أدباء داخل المملكة المعروفين بهوايتهم للفنون الجميلة وخاصّة فنّ المسرح يشعرني بأنه استطاع أن يضع في أوقات الفراغ مجموعة من المسرحيّات وهو يودّ بناء على ما شاهده من اهتمام الصحافة بالمسرح والنهضة المسرحيّة في هذا الموسم رغم ظروف الحرب لو أخرجت له إحدى الجمعيّتين التونسيّتين بعض هاتيك المسرحيّات، ويوكل إليّ في الختام التفاوض مع هيئات

الجمعيّتين في الحقوق الماديّة والأدبيّة"، وبعد أن أوضحت له الجريدة الحقوق الماديّة ختمت فصلها بقولها: "بادر بإرسال مسرحيّاتك إلى الجمعيّات التمثيليّة لتدرسها وتنظر فيها لتخرجها في الموسم المقبل لأنّ الموسم الحالي قارب النهاية".

هذا استعراض سريع لبعض نشاطات الفقيد يدلّ على إخلاصه والتزامه الأدبي، فقد كانت غايته أن ينشر أدبه ويستفيد منه أبناء هذا الوطن، وللتأكيد على هذا الاعتبار أشير إلى أننا لمّا أسسنا جريدة الأسبوع بادر الفقيد بإرسال ملفّ ضخم إلى رئاسة تحرير تلك الجريدة يحتوي على دراسة فائقة وعميقة عن مظاهر الأدب القومي تشمل نصوص الأمثال العاميّة في الفلاحة وغيرها في الشمال الإفريقي وقد نشرتها الأسبوع في عامها الأوّل.

ثم تابع ذلك بنشر دراسة مستفيضة بنفس الجريدة بداية من عددها الصادر في 2 مارس 1947 موضوعها قوانين لعبة كرة القدم صدّرها ببيان الأسباب التي حملته على اختيار هذا الموضوع والتحرير فيه. أكاد أجزم بأنه لم تصدر جريدة أو مجلة محترمة بالبلاد التونسيّة منذ سنة 1931 لم تنشر بعض إنتاج هذا العبقريّ الفذ.

وصفته في أوّل هذا المقال بالعصاميّ ذلك لأنه كان يعتمد في تحصيل المعلومات على كدّه واجتهاده فلم يتابع التعليم النظامي الرتيب كما فعل غيره وتلك سنة النبغاء أمثاله ممن تركوا إنتاجا أدبيّا وفيرا.

وكان يعتقد أنّ التربّع في حلقات الدروس مضيعة للعمر، وخير منه الاختلاء إلى الكتب واستجلاء ما فيها من معلومات ثمّ هضمها إن صحّ هذا التعبير وإعادة صقلها ثم تكييفها من جديد تحت عنوان بحث أو مسرحيّة أو قصّة أو دراسة لتكون في متناول كلّ القرّاء كلّ حسب هوايته.

وقد كان يتألم عندما يرى انكماشا في الأوساط الأدبيّة أو الاجتماعيّة وهذا ما حمله على المسارعة بالارتحال من الجريد والاستيطان

بصفاقس بعد العاصمة التونسيّة لما امتازت به من حيويّة في الميدان الثقافي منذ فجر النهضة التونسيّة قبل الحرب العالميّة الأولى.

وإذا وجد سوق الأدب غير نافعة هنا سارع إلى بثّ إنتاجه في ميدان المغرب العربي الكبير أو في الميدان العالمي عن طريق المذاييع، شأنه في ذلك شأن الأديب الأصيل الذي لا يركن إلى الجمود، وهذا ما فعله أدباء تونسيّون آخرون من بينهم الشابّي وكرّو والسنوسي والخميري والفورتي.

لقد حرم الفقيد شبابه من مباهج الحياة فلم يركن إلى زواج ولم ينجب أبناء ولم يكتنز مالا وكلّ ما كسب وأنتج وادّخر هو الأدب والثقافة والفنّ والمعرفة ترك من كلّ منها الشيء الكثير، وإذا قدّر لتونس أن تنال من إنتاجه الفائق جزيل النفع فعليها المبادرة بنشر بعض ما ترك قبل أن تسدل عليه عناكب النسيان ولعلّ في استطاعة أخيه القيام بهذا الواجب فدُورُ النشر هنا وفي غيرها على استعداد للاستفادة والإفادة.

كان آخر لقاء لي بالرّاحل الكريم في شهر سبتمبر المنصرم بنفطة جاءها لحضور مهرجان الأيّام الثقافيّة الذي أقيم هناك صحبة أخيه الأستاذ إبراهيم فقد تكبّد مشقة السفر من صفاقس رغم المرض الذي كان يلازمه، وكان حضورهما بها يوم موعد إلقائي أنا المحاضرة التي تحدّثت فيها عن تلك المدينة مسقط رأسي عبر التاريخ وكان من المقرّر أن أستعرض فيها جميع الأطوار التاريخيّة على الأخصّ في العهد الإسلامي، ولكنّ الحدث المفزغ الذي ألمّ بالمدينة وساكنيها وكلّ سكان الجريد ألا وهو انقلاب السيّارة التي كانت تقلّ السيّد رئيس البلديّة في طريقه من نفطة إلى توزر قد جعل البرنامج المقرّر لذلك اليوم لا يتمّ على الصورة المقرّرة فكان لزاما عليّ أن أختصر المراحل وأن أستعرض الأهمّ وأترك المهمّ.

وقد رأيت الراحل يتطلع إلى سماع ما كان منتظرا من الحديث الذي شمله العنوان وتبدو عليه علائم الاهتمام ولكنه

قد أسرّ ذلك في نفسه ولم يكاشفني به إلا ليلا عندما كنا أمام نزل (التورينق كليب) بنفطة إذ أنه لم يقو على كتمان ما كان يجيش بخاطره وأخذ يحدّثني مع الجالسين أمام النزل عن الأماكن التي أقيمت بها نفطة كدرجين وفرشانة وفطناسة وغيرها وانهال علينا كالسّيل الجارف يروي الأحداث والوقائع وكأنه كان يطالعها أمامه في كتاب إلى أن أتى على ما كان يريد إعلامنا به من الأحداث الكبرى وبذلك تنفس الصعداء، أو أنه كان يحمل وقرا فوضعه على الأرض.

وقد أمعنت النظر في وجهه مليّا في تلك الليلة المقمرة الزاهية الباسمة وإذا الشيب قد عمّ رأسه وإذا تجاعيد البشرة من أثر مرض السكر قد كانت أسطرا قمريّة تلوح من ورائها مهابة الشيوخ والعلماء، وكأنه قد شعر بالراحة بعد عناء المحاضرة التي تفضّل علينا بها فاستلقى على الكرسيّ الطويل الذي كان يجلس فوقه ولفّ رقبته ورأسه باللحاف الشفاف الذي يلبسه عادة سكان الجنوب وذلك خوفا من أن يكون لنسمات ليالي الخريف الرقيقة أثر على جسمه الذي تصبّب عرقا من الإجهاد.

وأخيرا فارقته مكرها بجانب أخيه والأخ أبو القاسم كرّو أمام النزل لأنني كنت على موعد لقاء مع الأدباء المؤتمرين في بستان آل خريّف الميامين وهناك قضّينا الهزيع الأخير من الليل مع الأخوة المطوي والجابري ومحيي الدين خريّف والميداني بن صالح وغيرهم. أمّا هو فقد عاد مع أخيه إلى توزر على سيارة الأخ كرّو لينام هناك في منزل أبيه ومسقط رأسه رحمه الله.

---

* "مرآة الساحل" في أفريل 1967. نشرت مجلة الهداية، السنة 26، العدد 5، ديسمبر 2001 وجانفي 2002 دراسة للمترجم له عنوانها "الأدب التوزري في أواخر القرن التاسع عشر" مصحوبة بمقدمة ترجمنا له فيها وشرحنا ما غمض في النص.



علـي الخماسـي*

(1875 ـ 1967)

اسمحوا لي أن أحدّثكم بإيجاز في هذا الموكب الخاشع، عن الراحل الكريم الذي يرجع عهد اتصالي به إلى سنة 1931 عندما دعاني للعمل معه على إعادة تنظيم برنامج التعليم بالمدرسة القرآنيّة التي أسّسها هنا في مدينة بنزرت، وتمّ تدشينها يوم الخميس 2 جانفي 1931 بمحضر العامل السيّد الهادي الجيلاني ونخبة من أعيان هذه المدينة.

يعدّ السيّد علي الخمّاسي من رجال النهضة التونسيّة في الربع الأوّل من هذا القرن. فقد عمل مع النخبة المفكرة بداية من فجر القرن العشرين وكان عمله شاملا لمختلف ميادين الحياة، لا فرق في ذلك بين ما كان منها أدبيّا أو ثقافيّا أو فنيّا أو اجتماعيّا، وهو في هاته الميادين يقوم بدور القيادة ذلك لأنه رأى أنّ اتجاه السياسة الفرنسيّة بالنسبة للوطن التونسي عموما وبنزرت بصفة خاصّة يرمي إلى سياسة الإلحاق والفرنسة، فقد بذلت فرنسا منذ دخول الحماية كلّ جهودها لتجعل مدينة بنزرت قطعة من فرنسا لأنها تعتقد أنها المركز الحربي الوحيد الذي يضمن لها لا سلامتها هي وحدها بل سلامة أوروبا الغربيّة باستثناء إيطاليا التي كانت تنازعها البقاء في حوض البحر الأبيض المتوسّط باعتبار أنها وارثة مجد روما الغابر، فقد صرفت الأموال الوفيرة لتجعل بنزرت موطن قيادتها البحريّة. وعلى هذا الأساس كان وزير البحريّة التونسيّة الذي هو في الآن نفسه قائدا للأسطول

البحري الفرنسي، مقيما هنا ليشرف بنفسه على القيادة التي كانت تساعد الصناعة الثقيلة الفرنسيّة والاستعمار الذي تسلط على أراضي المنطقة كلها.

وبُعْدُ نظر الفقيد جعله يدرك منذ أنهى تعليمه سنة 1892 أنه لا بدّ من العمل لمقاومة الاتجاه الفرنسي، وذلك بإيجاد مؤسّسات قوميّة تردّ الفعل على الأقلّ وتجابه ما كانت السياسة الفرنسيّة عازمة على تنفيذه بالقوّة في منطقة بنزرت استنادا إلى حقّ الدفاع عن التراب الفرنسي. وأولى هذه المؤسّسات هي المدرسة القرآنيّة التي أراد أن يجعل من حضور عامل المدينة وممثل السلطة الحاكمة في حفلة تدشينها دليلا على أنّ هذه السلطة تؤيّد مشروعه.

ولكي يزيد هذا التأييد وضوحا ورسوخا أقنع العامل المذكور بأنه في استطاعته أن يتبرّع بمصاريف تعليم بعض فقراء البلدة من ماله الخاصّ ليزداد محبّة لدى سكان العمل، وهكذا تمّت له رغبته حيث تبنى العامل تعليم خمسة من أبناء الفقراء من مدينة بنزرت من ماله الخاصّ وأدخلهم إلى المدرسة القرآنيّة ليتعلموا على نفقته. وقد حدّثكم صديقي الشيخ حسن قاره بيبان عن نشاط الفقيد في ميدان التعليم بالمدرسة القرآنيّة بما فيه الكفاية فلا فائدة في العودة إليه.

وكما قاد الراحل العزيز التعليم القرآني قاد الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة بهذه المدينة وذلك في سنة 1907 واستمرّ في العمل ضمن هيئتها عشرات السنين، لا فرق بين الرئاسة وأمانة المال وكتابة الجمعيّة وعضويّتها، وكانت أعماله خالصة لوجه الله الكريم يذكرها له كلّ مواطن بفخر واعتزاز.

ومن المشاريع الثقافيّة التي أنجزها إحداث مكتبة لمدرسته القرآنيّة خلال سنة 1926 وقدّم لها عدّة مؤلفات من مكتبته الخاصّة، ثم سعى في التحصيل على الكتب بطريق الهديّة من أهل الفضل والإحسان لا فرق بين سكان بنزرت وتونس

وغيرهما وحضر تدشينها عامل المكان السّيد محمّد ابن الخوجة والقاضي الشيخ محمّد النفطي.

وهنا أريد أن أؤكد من جديد أيّها السّادة أنّ الفقيد له مرونة مكنته من استمالة المسؤولين في الدولة ليشرفوا على مشاريعه القوميّة حتى يقطع جميع الإشاعات التي ربّما تحوم حولها من ذوي الغايات وليتمكن من جمع الإعانات علانيّة، وقد رأينا العامل نفسه يوم التدشين يتبرّع ببعض الكتب لهذه المكتبة.

ثم هناك ملاحظة أخرى وهي أنّ مكتبة المدرسة القرآنيّة ببنزرت حرّكت همّة المرحوم عبد الرحمان اللزّام لإنشاء مكتبة فتحت عشرات السنين في مدينة بنزرت واستفاد من مطالعة كتبها ومجلاتها الكثير من الطلبة والموظفين بهذه المدينة.

وقد سبق للسيّد عبد الرحمان اللزّام أن أسّس أيضا مكتبا قرآنيّا وانتخب له معلمين اثنين كان ينفق عليه من ماله الخاصّ وأقول اقتداء بالفقيد لا مزاحمة له.

وعلى ذكر مشاريع المكتبات الجهويّة أستطيع القول بأننا إذا استثنينا مدينة تونس لا نكاد نجد مكتبة في المدن الأخرى إلا مكتبة نابل المؤسّسة منذ عهد بعيد أيضا، والمكتبات ينظر إليها الاستعمار بحذر لأنها تساعد على نشر الثقافة العربيّة وهذا ينافي سياسته، ولذلك يمكن لنا القول بأنّ ما اهتدى إليه الفقيد في هذا الميدان هو نوع من الكفاح الثقافي الذي سيجازى عليه يوم القيامة.

ومن أنواع كفاحه الثقافي، قيامه بمساعدة الصحافة العربيّة التونسيّة على مهمّتها الثقافيّة والوطنيّة، فقد أدرك بعد أن استقال من التعليم الحكومي في سنة 1902 أنّه لا بدّ أن يتهيّأ لعمل شعبي بسيط في ظاهره ولكنه عميق الأثر في باطنه، ذلك العمل هو مكاتبة الصحف والتعهّد بتوزيعها والنيابة عنها، ولكي يدرك هذه الغاية بسهولة وليكون عمله مفيدا ومبنيّا على قواعد ثابتة، أسّس مكتبا حرّا لتحرير القضايا والمراسلات، لا فرق بين ما كان منها إداريّا أو عدليّا باللغتين العربيّة والفرنسيّة، وبمجرّد

فتحه لهذا المكتب أخذ المواطنون يلتجئون إليه في قضاياهم، فيحرّر بنزاهة وتدقيق التقارير التي لقيت قبولا حسنا من الذين اتصلوا بها.

وما هي إلا سنة تمرّ على مشروعه هذا حتى رُفع الضمان المالي الذي كان مفروضا على الصحافة التونسيّة الذي بمقتضاه تعطلت كلّ الصحف العربيّة إلا جريدة الحاضرة التي أمّنت المال المطلوب، كما كان هذا التشريع سببا في الحرمان من الامتيازات الجديدة لأنّ مبلغه الذي هو خمس دينارات في أواخر القرن التاسع عشر كان عسيرا دفعه على كل من يشتغل بالصحافة من التونسيّين.

عادت الصحف المعطلة وفي مقدّمتها جريدة الزهرة وصدرت جرائد جديدة، منها ما كان يوميّا كالرشديّة والحقيقة والتقدّم ومنها ما كان أسبوعيّا كجرائد الصواب والتونسي للمرحوم علي باش حامبه وغيرهما.

اهتزّ الفقيد لهذا الحدث الهامّ الذي كان يترقبه بفارغ الصبر، فبدأ مكاتباته الصحفيّة أوّلا بجريدة الزهرة ثم كاتب بقيّة الجرائد الأخرى، وطلب منها أن تعتمده في التعهّد بالبيع والاشتراكات وغيرها.

وجريدة التونسي كان يراسلها أوّلا بالفرنسيّة ثم لمّا أصبحت لها نشرة عربيّة أخذ يراسلها بالعربيّة، وبناء على ما تحققه فيه زملاؤه مؤسّسو التونسي من الحزم والنزاهة والإخلاص مكنوه من بطاقة صحفي مراسل ليستطيع بواسطتها التحصيل على المعلومات الصحيحة من أرباب السلط الإدارية والقضائيّة ومن القيام بالتحقيق الصحفي والحضور بالمواكب الرسميّة.

بينما كان الفقيد يقوم بعمله جاءت حوادث الزلاج خلال عام 1911 وأعلنت إثرها حالة الحصار وصدر قرار في 7 نوفمبر بتعطيل جميع الصحف العربيّة إلا جريدة الزهرة، قصر الفقيد عمله على الزهرة حيث أبعد أصحاب التونسي عن البلاد

التونسيّة واختار منهم مؤسّس الجريدة مدينة إسطنبول عاصمة دار الخلافة الإسلاميّة مقرّا له.

التحق بعض الصحفيّين بزميلهم المبعد وهم المرحومون محمّد الجعايبي صاحب الصواب والبشير الفورتي صاحب التقدّم والهاشمي المكي صاحب بوقشة وهؤلاء استقرّ رأيهم على إصدار جريدة تنطق بلسان المسلمين في المغرب العربي الكبير (وذلك لاحتلال إيطاليا القطر الليبي وفرنسا القطر المغربي ولِما جرى في تونس من أحداث جسيمة) سمّوها الهلال العثماني واختاروا لرئاسة تحريرها رجلا من تونس ولد بمصر هو المرحوم عبد العزيز جاويش وكانت تصدر باللغتين العربيّة والتركيّة ويتولى الإشراف على قسمها العربي المرحوم البشير الفورتي وهو الذي طلب من الفقيد في عام 1912 أن يكون نائبها بالبلاد التونسيّة يقوم بمكاتبتها وتوزيعها ونشرها في مختلف الجهات.

وهكذا بدأ الراحل العزيز يراسل هذه الجريدة بوصفها أسّست للدفاع عن قضايا العالم الإسلامي لِما كان يجري فيه من الأحداث ضدّ الممتلكات العثمانيّة في أوروبا وإفريقيا. فأنتم ترون أيّها السّادة أن المرحوم علي الخمّاسي قد تمكن بفضل نزاهته وإخلاصه ومرونته وشجاعته من العمل في النطاق الإسلامي المتسع وهو فخر تعتزّ به تونس حيث ساهمت في الكفاح بواسطة نخبة من أبنائها البررة الموفقين في الدفاع عن حوزة الإسلام.

هذه كلمة مختصرة عن نشاط المرحوم علي الخمّاسي الذي نتمنى له جميعا الرّحمة والغفران وسكنى فراديس الجنان.

تونس في 19 فيفري 1967

---

* نص الكلمة التأبينية التي ألقاها المهيدي في موكب دفن المرحوم الخمّاسي وهي موجودة في أرشيفه في المكتبة الوطنية.



مصطفى خريف*

(1909 ـ 1967)

طفولته

ولد مصطفي خريّف سنة 1909 بمدينة نفطة في حومة المواعدة قرب منابع عيون الواحة، وعائلته تنتسب إلى زاوية الشيخ التابعي صاحبة الطريقة الرحمانيّة وتقوم تقاليدها على تلاوة القرآن بعد حفظه من طرف جميع من ينتمون إلى الزاوية، ثمّ إنّ فريقا هامّا منهم يتوجّه يوميّا إلى ضريح الشيخ أبي علي السني داخل واحة فطناسة لتلاوة كامل القرآن الكريم جوار القبر.

حومة (خط الطين) التي توجد بها الزاوية والدار التي ولد فيها مصطفى يحسن كلّ سكانها القراءة والكتابة اللهمّ إلا النساء فإنهنّ يحفظن القرآن عن طريق الإملاء أو يحفظن ما تيسّر منه بالتلقين أيضا. فمصطفى ولد في جوّ روحيّ صوفيّ لا يسمع فيه إلا ذكر الله أو تلاوة آياته البيّنات، والزاوية يقصدها جانب من الطلبة للسكنى بها وحفظ القرآن وقراءة العلوم الدينيّة واللغويّة كلّ ذلك مجانا وموارِدها من موقوفات قديمة العهد. فالطفل مصطفى كان يلتقي أيضا يوميّا بهؤلاء الطلبة المجاورين في الزاوية يداعبونه ويلاطفونه لأنّ والده كان المقدّم على الوقف.

وفي الزاوية بدأ حفظ القرآن وتخلق بالأخلاق الفاضلة كالاحتشام والكفّ عن الثرثرة واحترام الكبار وعدم مفارقة الحومة إلا لضريح الشيخ أبي علي السني مع الطلبة يحضر مجلسهم عند تلاوة القرآن.

ثمّ إن والده وعائلته بصفة عامّة كانت لهم أملاك في الواحة تعرف بالعيون وهي قطع صغيرة من الواحة حول منابع النهر الكبير بنفطة وهي مجاورة لمحلّ سكناهم وكانوا يقضون فيها الأماسي يجمعون الياسمين في الصيف والخريف والورد في الربيع، يشربون فيها الماء العذب ويستنشقون النسيم العليل ومعلوم أنّ الجريد شديد الحرارة في الصيف، ففي العيون يجد السكان ما يجده الآخرون في أمكنة (الخلاعة) في الشواطئ والجبال زمن الصيف.

ومن هنا جاءت محبّة الفقيد للواحة وخضرتها ورياحينها وزهورها وعذوبة مائها ولطف هوائها فكان تعلقه بها متينا بداية من زمن الطفولة إلى أن شبّ على حبّها.

في تونـــس

انتقلت عائلة أبيه الذي هو عالم وأديب له عدّة مؤلفات وقصائد منها ما نشر ومنها ما لم ينشر إلى مدينة تونس واستوطنتها، وانتقل مصطفى مع إخوته الصغار صحبة والدهم إلى تونس وبقي إخوته الكبار يعيشون في نفطة ويتابعون تعليمهم هناك، اللهم إلا لمن سبق منهم إتمامه بالزيتونة واستقرّ هناك ليباشر الإشهاد العام في مدينة تونس.

كان التعليم الابتدائي في المدارس الحكوميّة العربيّة الفرنسيّة تغلب عليه الفرنسيّة إذ القصد منه التحصيل على الشهادة للتفصّي من الخدمة العسكريّة، أمّا أبناء المدينة فإنهم معفون منها ولذلك يتابعون تعليمهم الثانوي في المدارس الفرنسيّة أمّا أبناء الذوات فمأواهم الصادقيّة.

وكان إلى جانب ذلك مدرسة قرآنيّة أهليّة بنهج سيدي بن عروس وكان التعليم بها يسير سيرا بطيئا لكن هناك مدرسة أخرى أسّست حديثا برؤوس أموال إخواننا الميزابيّين الذين لهم إرساليّة من الشباب جاءت للتعلم بتونس، فالميزابيّون كان لهم استقلالهم الداخلي

بموجب قوانين فرنسيّة ولا يعاملون كبقيّة المواطنين الجزائريّين لذلك تمكنوا من القيام بمشاريعهم الثقافيّة والاقتصاديّة في حدود تلك القوانين، وعلى هذا الأساس اتفقوا مع المرحوم الشيخ الشاذلي المورالي على تنظيم مدرسته تنظيما يطابق البرنامج العصري في الدراسة حسب طرق بيداغوجيّة مفيدة.

واغتنم والد الفقيد تلك الفرصة بعد اطلاعه على البرنامج ورسّم ابنه بتلك المدرسة التي كانت تدعى مدرسة السلام القرآنيّة ومقرّها بنهج بوخريص زنقة بوخريص عدد1 بتونس وكان محلّ سكنى الشيخ إبراهيم خريّف ببطحاء معقل الزعيم رحبة الغنم سابقا.

في هذه المدرسة فتح عينيه على نوع من التعليم العصري حبّب إليه النظام وحفظ المختار من الشعر والنثر والتدريب على الإنشاء حتى أفضى به الأمر إلى إصدار جريدة خطيّة نشر منها بعض أعداد بخطه دعاها "النبراس" ونشر فيها باكورة أدبه وفي المكتبة المهيديّة عدد منها.

وفي الاحتفال السنوي لختم الموسم الدراسي كانت تقام داخل المدرسة حفلة شيّقة يدعى إليها أعيان المدينة ويحضرها أولياء التلاميذ لتوزيع الجوائز على الناجحين منهم، ويعهد إلى بعضهم بإلقاء بعض المقطوعات الأدبيّة، وكان مصطفى من بين هؤلاء الشبّان المختارين الفائزين بالجوائز كزميله مفدي زكريّا.

بالزيتونة

تابع التعليم القرآني ومنه انتقل إلى التعليم بالزيتونة وفيها وجد زملاء اتحدت ميولهم وتشابهت اتجاهاتهم نحو غاية واحدة وهي دراسة الأدب بما فيه من إنشاء وخطابة وشعر ومن بين هؤلاء الشاعران المرحوم محمود بورقيبة وصديقنا الشيخ جلال الدين النقاش، وهذا الثالوث الأدبي قد وجد من صاحب جريدة الوزير الذي كان زميلا وصديقا للشيخ الشاذلي المورالي كل استعداد

لنشر إنتاجهم بل إنّ أحدهم وهو محمود بورقيبة قد أصبح المحرّر الأوّل لتلك الجريدة، وكان مصيرها الأدبي ومقاليد شؤونها الفنيّة بيده ينشر فيها كلّ ما يريد من إنتاجه وما يرضى عنه من شعر زميليه في الدراسة وغيرهم ممن جاء بعدهم ولحقهم في الإنتاج الفني، فإذا حلت العطلة الصيفيّة وعاد مصطفى إلى مسقط الرأس أرسل بإنتاجه الفكري إلى صديقه محمود لينشره في الوزير، هكذا بدأ مصطفى ينشر شعره وأدبه لأوّل مرّة منذ سنة 1926 بالوزير. وهو الشاعر التونسي الوحيد ـ فيما أعلم ـ الذي رثى الزعيم النقابي المرحوم محمّد علي عند وفاته سنة 1928 ونشرت مرثيّته بجريدة الوزير[1].

النشر في الصحافـة

ومن الوزير انتقل إلى النديم الممتاز ينشر فيه حوليّة كل عام عند صدوره مع الشعراء الآخرين في ذلك العهد، ثمّ بدأ في الوقت نفسه ينشر بعض السوانح في الجرائد الأخرى كلسان الشعب، وقد وجدتُ فيه الشاب المخلص المتفاني في خدمة القضيّة الزيتونيّة عندما اضطلعت بأعبائها سنة 1928 ونشرت عنها اللائحة المشهورة المطبوعة سنة 1929 فقد كان يحرّر ما أطالبه به من الفصول ويسعى في نشرها والوقوف على مراجعتها في الصحافة العربيّة بتونس، وهاته التحريرات كان يمضيها بـ(أبي النهضة) أو بـ(م.خ)، يفعل ذلك حبّا في إصلاح التعليم الزيتوني الذي لم يجد فيه الغذاء الكافي والذي لم يُلزمه والده على متابعته حتى النهاية لشعور والده أيضا بضعف التعليم الزيتوني وعدم مماشاته لروح العصر، فقد كان يقوم على تسييره جماعة من الشيوخ المتزمتين أصحاب الغايات يكرهون كل من جاء من أبناء المدن الأخرى إلى تونس لمتابعة التعليم بالزيتونة خوفا على أنفسهم وعلى خبزهم وذلك من ضعف إيمانهم لأنهم احتكروا وظائفه والتعليم به وبالمحكمة الشرعيّة وإذا نال أحد الآفاقيّين

خطة التدريس فإنّ ذلك لا يكون إلا بعد مشاركته في المناظرات عشرات السنين، والشيخ عثمان بن المكّي التوزري أقوى حجّة على ذلك حيث نال خطة التدريس بعد أربعين سنة وهو يشارك في كلّ المناظرات، وما هجرة الشيخ محمّد الخضر حسين النفطي من تونس واستقراره بالقاهرة إلا نتيجة خطة تحالف أبناء المدينة ضدّه وهكذا ارتقى في مصر إلى مشيخة الأزهر ورفع رأس تونس عاليا في بلاد الفراعنة بعد إعلان ثورتها.

هكذا نفر مصطفى خريّف من التعليم بالزيتونة واكتفى بشيخ وحيد كان متطوّعا بها ومحروما من التدريس فيها وهو المنعّم شيخ الأدباء محمّد العربي الكبادي فقد لازمه في مجالسه بباب المنارة وكان لا ينقطع عن ملاقاته يوميّا فيوجّهه ويلقنه أصول الأدب ويدله على عيون المصادر ويعيره الكتب التي لم تصل إليها يده في المكتبات إلى جانب ذلك كانت مطالعاته في المكتبتين العبدليّة والخلدونيّة منتظمة، وفي هذه الأخيرة يطالع بالإضافة إلى الكتب المجلات والصحف التي كانت اشتركت فيها الخلدونيّة في عهد رئيسها المنعّم عبد الرحمان الكعّاك.

باليوسفيّة

في المدرسة اليوسفيّة بنهج الصبّاغين من مدينة تونس كنت أسكن بيتا أيّام دراستي بالزيتونة وكان بالمدرسة زملاء منهم المرحوم أبو القاسم الشابّي ومن الأحياء الأصدقاء إبراهيم بورقعة المحامي والأديب المعروف بصفاقس ومثله الأخ محمود خروف الصحفي الذي واكب الصحافة التونسيّة وجريدتي الزهرة والعمل على الأخصّ مدّة طويلة، والنابغة الشاعر الناثر الأخ محمود الباجي الأديب المعروف، وكان يتردّد علينا في المدرسة الأدباء محمّد الحليوي الطالب بمدرسة ترشيح المعلمين في ذلك العهد بموجب قرابته للباجي والمرحوم محمّد البشروش الطالب بالترشيح أيضا للصداقة التي ربطتني به مع أبناء الترشيح في مختلف

السنوات وكان من الذين يكادون يلازمون المدرسة اليوسفيّة المرحوم خريّف لعدّة ارتباطات بيني وبينه وبين الشابّي.

وكنا أحيانا ننتقل جميعا اللهم إلا الأخ محمود الباجي والحليوي إلى المكان الخاصّ الذي يجلس به شيخ الأدباء قرب مقهى باب منارة أمام إدارة الشؤون العسكريّة مقرّ وزارة الدفاع الآن وكنا سمّينا ذلك المكان بالبانكة العريانة، وكان من الملازمين لهذا المجلس أيضا الأستاذ محمّد عبد الوهاب المحامي والدكتور الحبيب زويتن رحمه الله والأخ يوسف ياسين والشيخ الصّادق بسيّس والمرحوم أحمد حجوج.

في "البانكة العريانة" كان يتصدّر المجلس شيخ الأدب الذي أعطى تعليمات صارمة إلى صاحب المقهى بأن لا يتناول ثمن المشروب مهما كان من أحد منا على أن يسدّد جميع ذلك من ماله الخاص، رغم ما عليه ميزانيّته من الضعف والهزال، وأحاديث البانكة كانت غير رتيبة ولكنها لا تخرج عن الفكاهة البريئة والنكتة الحلوة والأدب المنتقى من نظم ونثر وقد نشرت بعض هاته المجالس في مجلة المباحث وحلاها الدكتور زويتن ببعض الرسوم الهزليّة الكاريكاتوريّة.

تحت السّور

وهناك جوّ آخر عاشه مصطفى خريّف اجتمع فيه بلون آخر من الأدباء عرفوا بأدباء تحت السّور وكانت اجتماعاتهم بمقهى بطحاء البيقه من حومة باب سويقة وأكثر الاجتماعات بقهوة خالي علي بن سلامة الواقعة في الركن الذي يفصل بين نهجي علي البلهوان وحمّام الرميمي وأولئك الأدباء هم الأخ الهادي العبيدي وعبد الرزّاق كرباكة وعلي الدوعاجي ومحمّد العريبي ومحمّد بن فضيلة وعلي الجندوبي، وكانت اجتماعاتهم هناك في المساء والليل أحيانا أمّا في الصباح فإنهم يجتمعون بدار العرب عند المرحوم زين العابدين السنوسي بنهج السيّدة عجولة عدد 12 من

مدينة تونس وفي دار العرب يطالعون الصحافة العربيّة شرقيّة ومغربيّة وتونسيّة ويباشر بعضهم العمل الصحافي مع الزّين في العالم الأدبي وفي جريدته تونس، وهناك يتناول أكثرهم ما تيسّر من الأكل، اللبلابي والصاندويش والكسكروت لأنهم لا قدرة لهم على تناول الطعام لدى أصحاب المطاعم وفي الليل يأكلون الحلالم عند الطبّاخ الشعبي الطيّب من قصور السّاف بلد صاحب المقهى خالي علي، وقد لا يجد بعضهم مالا يدفعه إلى هذا الطبّاخ فيأكل عنده (بالطلوق).

وتحت السّور بدأ الجماعة اتصالاتهم ببنات وأبناء الفنّ وبالعمل الصحفي فهم يكتبون لكلّ من يطلب منهم الكتابة، وكان مجلسهم يشبه مستودع البضائع فكلّ من يحصل على امتياز لإصدار جريدة يتوجّه حالا إلى ـ تحت السّور. ليقاول الجماعة على تحرير جريدته ولا يدخل في المقاولة المرحوم مصطفى خريّف لأنّ له من مداخيل والده ما يكفيه للانفاق على نفسه لكنه لا يتنازل عن حقه في المشروبات... والمدخّنات.

وفي تحت السّور ولدت جرائد صبرة والوطن والسّرور وانضمّ إلى أسرتها محمود بيرم المحرّر آنذاك بالزمان وكانت اجتماعات أصحابها بدكان ضيّق بنهج المرّ من مدينة تونس هو إدارة السّرور.

انفصل بيرم عن هؤلاء وأسّس الشباب واحتجبت السّرور وأسّس مصطفى جريدة "الدكتور" وأصدر منها أربعة أعداد فقط ثم احتجبت أيضا واستمرّ مصطفى يعمل في السردوك بعد الشباب.

وجاءت حوادث 9 أفريل 1938 فتعطلت أكثر الصحف ثم جاءت الحرب وهنا انكمش مصطفى مع الصديقين الدوعاجي والخميسي في دكان هذا الأخير الذي كان بنهج سيدي بن نعيم يباشر فيه صناعة النجارة وإعداد النايات لأنّه تعلم العزف على الشيخ علي الدرويش، فالدوعاجي ينظم الأغاني والخميسي يلحّنها ويغنيها بالإذاعة والمحصول ينفقه الجميع كل ليلة في شراء ما يلزم السهرة داخل الحانوت وقد ينتقل الجميع إلى

حانوت العربي القصادري[2] صاحب جريدة زهو البال ويقضون السهرة بنهج مارس إلى أن يتمكن البعض منهم من العودة إلى محلّ سكناه قبل بداية زمن حالة الحصار التي كانت مضروبة مدّة اشتداد الحوادث، وينام البعض الآخر هناك إلى الضحى.

بداية المرض

في هذه الفترة بالذات بدأ المرض يتسرّب إلى مصطفى، كان التموين مقسّطا فلا يجد الإنسان ما يكفيه من الطعام وكانت عدم عنايته بصحّته واضحة حيث كان يطيل السهر ويبيت على الطوى اختيارا، فبدأت عوارض المرض تتوالى عليه حتى اضطرّ إلى الابتعاد عن جوّ العاصمة والسفر إلى الجريد، إلى نفطة فقط أمّا بلدة الحامّة فيزورها في "أوسّو" فقط للتداوي بمياهها المعدنيّة.

توالت على مصطفى أمراض متعدّدة ومتنوّعة فكان ذلك يتطلب الاستشفاء بمياه حمّام الأنف المعدنيّة أيضا عند تعذر سفره إلى حامّة الجريد. وطبع ديوانه "الشعاع" بصعوبة ولمّا حاول طبع ديوانه "شوق وذوق" عجز عن طبعه بعد الشروع فيه ولولا عناية من الدولة التي رأت فيه الأديب الحقّ وتكفلها بإتمام الطبع لضاع شعر مصطفى كما ضاع أدب الحدّاد وكرباكة والدوعاجي وصالح السويسي وأبو الحسن ابن شعبان والعريبي.

وتشاء الأقدار أن يموت نفس الموتة التي ماتها من قبله بالمستشفى زملاؤه كرباكة والحدّاد والشابّي والفورتي والعريبي ومن قبلهم الأديب الظريف معاوية التميمي، رحم الله جميعهم.

---

* من أرشيف المهيدي في المكتبة الوطنية. عنه في جريدة "الصباح" بتاريخ 16 مارس و27 أفريل 1967 و7 مارس 1968، وجريدة "العمل" بتاريخ 12 و17 مارس و22 و28 أفريل 1967.

1) العدد 250 بتاريخ 7 جوان 1928.

2) هو العربي التركي شهر القصادري صاحب زهو البال القريبة من الحزب الحرّ الدستوري صدرت فيما بين 28 سبتمبر و19 أكتوبر 1936.



محمد علي العجيمي*

(1898 ـ 1967)

في اليوم السابع من شهر ماي سنة 1967 لاقى وجه ربّه المناضل المكافح المرحوم محمّد علي العجيمي أوّل رئيس للشعبة الدستوريّة التي أسّسها الديوان السياسي ببلدة توزر مسقط رأسه سنة 1934.

مولده ونشأته

عائلة العجيمي من العائلات المشهورة بالمجد والعمل الجدّي لا في توزر وحدها بل في كافة مدن الجريد، وجدّها عمر كانت له اتصالات بالحاضرة التونسيّة حيث يتعاطى التجارة في أواسط القرن التاسع عشر فيستورد ما تحتاجه منطقة الجريد من ملابس ومواد كالحرير ومنسوجاته وقد انجرّت له من وراء عمله الناجح أرباح شرعيّة توارثها من بعده أبناؤه وأحفاده.

ولد صاحب الترجمة بتوزر خلال سنة 1898 وبها حفظ القرآن على عادة أهل البلدة ثم زاول الدراسة الابتدائيّة بتوزر على ما كان بها من علماء وشيوخ، وانتقل بعد ذلك إلى جامع الزيتونة المعمور حيث تابع تعلمه الثانوي، ولم ينقطع عنه إلا عندما انتابه المرض فعاد إلى توزر ليشتغل بشؤون عائلته حيث كان هو الولد الأكبر في إخوته ولكنه مع ذلك لم ينقطع عن مطالعة كتب التاريخ والسيرة والمعارف العامّة في الأدب واللغة، كما لم ينقطع عن الاتصال من جديد بشيوخه الأوّلين في

توزر حيث جدّد العهد معهم وكانت مجالسه مع زملائه وخلانه مجالس أنس ونكتة ومفاكهة.

عند المناداة بتأسيس الحزب الدستوري التونسي في عام 1919 كان الفقيد من المنخرطين فيه ومن المتصلين بزعمائه حيث كان من سكان المرسى البلد الذي نكاد نسمّيه بمسقط رأس الحزب لأنّ أكثر قادته من سكانه.

وهكذا بدأ تردّده بين تونس والجريد يفعل مفعوله في بثّ الفكرة الدستوريّة في تلك المنطقة مع بعض من انتمى إليها كالمنعّم الشيخ محمّد الشافعي الشريفي الفيلسوف الديني والمجاهد المعروف[1].

نمت الفكرة الدستوريّة بالجريد وانخرط في سلكها الطلبة الذين كانوا يزاولون تعلمهم بالزيتونة أمثال السّادة: الحفناوي الصدّيق شفاه الله[2] والنوري بن محمّد النوري وأخيه محمّد وغيرهم من توزر والأستاذ يوسف الرويسي والمرحوم عبد الله شيلة وسعادة الأستاذ موسى الرويسي سفيرنا الآن بالسعوديّة وابن عمّهم يونس وغيرهم من أحرار دقاش ونفطة والوديان[3].

تأسيس الشعبة

عندما زار الحبيب بورقيبة الجريد مصحوبا بالمنعّم الطاهر صفر والأستاذ شالاي (أحد الأحرار الفرنسيّين) التقاهم أحرار المنطقة وهناك انبعثت شعبة توزر وعلى رأسها الفقيد وشعبة دقاش وعلى رأسها الأستاذ يوسف الرويسي وشعبة نفطة وعلى رأسها المرحوم الشيخ محمّد الشافعي وكان ذلك في سنة 1934.

وبدأ نشاط هذه الشعبة يبرز جليّا في الاجتماعات وتنفيذ قرارات الديوان السياسي والمقالات التي تنشر بالصحافة الوطنيّة للديوان مثل الصواب ولسان الشعب والوزير وفي جريدته العمل لسانه الرسمي، فقد نشر الفقيد سلسلة فصول في هذه الجريدة ابتداء من عددها الرابع الصادر في 12 جوان 1934 تحت عنوان"بلوغ الأمل في العمل" وقد كان هذا الفصل

قدوة لكثير من شعب الحزب بجهات عديدة جاءت تقدّم التحيّة إلى العمل، ففي العدد الخامس منها نشرت تحت العناوين التالية "تحيّتنا للعمل" لشباب منزل بوزلفة و"تحيّة قصر هلال إلى العمل" و"أهلا وسهلا بالعمل" لابن الساحل.

ولم يقتصر تحريره على مكاتبة العمل فقد راسل الجرائد اليوميّة بتونس كجريدة الزهرة والنهضة خصوصا عند تعطيل جريدة العمل بعد صدور عددها الخامس والعشرين في 30 أوت 1934 كما راسل بقيّة الصحف العربيّة الأخرى وكانت أكثر فصوله لا تهتمّ بالشؤون السياسيّة فقط بل كانت تتناول أيضا القضايا الاقتصاديّة كقضيّة التمور والأخذ بيد الفلاحين وقضيّة المنسوجات الصوفيّة والحريريّة بالجريد مما يدعى اليوم الصناعات التقليديّة.

استمرّ في عمله ذاك إلى أن عادت العمل إلى الصدور من جديد فعاد يراسلها وكان ذلك بداية من العدد 28 الصادر في 8 أوت 1937 حيث حرّر فصلا عنوانه "نحن وحكومة الواجهة الشعبيّة" حلل فيه موقف تونس من فرنسا وهو موقف التفاهم في النطاق الحرّ المؤدّي إلى الاستقلال، وموقفنا من غلاة الاستعمار الذين لا يريدون إلا استغلال تونس واستنزاف دماء أبنائها خصوصا بعد الحوادث الدامية التي جرت بالمتلوي وسقط فيها مئات من القتلى والجرحى.

ويعود إلى تحليل الموضوع من جديد في مقال آخر عنوانه "ماذا استفدنا من الحركة الدستوريّة الجديثة" وتنشره جريدة العمل بعددها 31 الصادر في 29 أوت 1937 في هذا الفصل يقول:"الحزب الحرّ الدستوري عندما فكر في تأسيسه الأستاذ عبد العزيز الثعالبي بعد أن تهيّأت له أسبابه ومسبّباته كانت الفكرة لم تنتشر الانتشار اللازم حيث لم تتجاوز البعض من الطبقة المفكرة أو القريبة منها ولم تتغلغل في أدمغة السواد الأعظم بل بقيت مقصورة طيلة أربعة عشر عاما على بعض

المدن والبلدان بالمملكة وفي طبقة معيّنة، فرحلات الأستاذ الحبيب بورقيبة وبقيّة رجال الديوان السياسي كان المقصود منها إفهام كافة الطبقات القضيّة التونسيّة على حقيقتها فكان عملهم هذا أعظم عمل وأوّل واجب يسير عليه كل من يريد أن يقود الشعب نحو هدفه الأسمى".

ولم يقتصر الفقيد على تسجيل الأحداث والمطالبة بتغيير الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في تونس بل إنه دخل في مناقشات مع بعض الأحزاب الأخرى، تبيّن ذلك واضحا جليّا من المقال الذي نشره بالعدد 35 من جريدة العمل الصادر في 26 سبتمبر 1937 تحت عنوان "لماذا تفرّون من تحكيم الشعب إذا؟".

في المجلس الملي

في أواخر شهر أكتوبر وأوائل شهر نوفمبر سنة 1937 عقد الديوان السياسي مؤتمره بمدينة تونس العاصمة وقرّر عدة لوائح من بينها لائحة أعضاء المجلس الملي المنتخبين بجلسة يوم 31 أكتوبر 1937 ومن بين أعضائها الفقيد العزيز وقد نشرت هذه اللائحة بالعدد 40 من جريدة العمل الصادر في اليوم العاشر من نوفمبر 1937.

وزاد هذا الانتخاب مضاء في عزيمته ونشاطا في حركته رغم العلل التي كانت تنتابه من حين لآخر فتناول في الفصول التي كتبها بجريدة العمل سياسة الدول المستعمرة مع الشعوب العربيّة ولعلّ الاطلاع على الفصل الذي عنوانه "تأسيس مركز للإذاعة لا يجتلب القلوب" الذي نشره بالعدد 60 من جريدة العمل الصادر في 24 مارس 1938 ينير السبيل أمام القارئ لمعرفة الشعور البعيد الغور الذي كان يشعر به الفقيد إزاء العالم العربي المعذب من طرف الدول الاستعماريّة وأشهرها في ذلك العهد فرنسا وإيطاليا وأنقلترا، وهذا الفصل هو آخر ما

نشرت له جريدة العمل حيث أنها عطلت يوم 8 أفريل 1938 وهو التاريخ الذي دخل فيه الفقيد في لون آخر من الكفاح.

السجـن والتعـذيب

إنّ مسؤوليّة الشعبة الدستوريّة بتوزر ومسؤوليّة المجلس الملي بتونس كان لهما في نظر السلط الاستعماريّة بالجريد الوازع القويّ لتسليط أشدّ العقوبات على الفقيد، إذ ما كادت تندلع معركة الثورة التحريريّة في أفريل 1938 حتى بادرت تلك السلط بإلقاء القبض عليه بتوزر وشرعت الجندرمة في تعذيبه ثمّ نقل إلى التكنة العسكريّة بقفصة وهناك وقع التفنن في تعذيبه مع مساجين الجريد من طرف الجند تارة والجندرمة تارة أخرى.

ومن هناك نقل مع المساجين السياسيّين إلى سوسة لمحاكمتهم بتهم مختلفة ممّا يطول شرحه، ولمّا أفرج عنه وعاد إلى الجريد عام 1940 اغتنم فرصة زيارة نائب فرنسا ومقيمها العام الأميرال استيفا للجريد لتطبيق أوامر حكومة فيشي وأداء يمين الإخلاص لها واضطهاد اليهود، اجتمع السياسيّون بتوزرالتي جاؤوا إليها من نفطة ودقاش وبقيّة الجهات وعقدوا اجتماعا حرّروا فيه عريضة طالبوا فيها الزائر المذكور بالإفراج عن المساجين السياسيّين وإطلاق سراح الزعماء وحاولوا تقديمها إليه يوم 3 سبتمر 1940 وقابلوا خليفة المكان وسلموا له العريضة وهذا قدّمها إلى عامل الجريد، ولكنّ هذا الأخير غضب غضبا شديدا على الخليفة وأبلغ ذلك إلى سيّده المراقب المدني الذي أبرق إلى السفارة العامّة بتونس طالبا عزل الخليفة، وإزاء هذا الموقف من الأحرار قرّروا سدّ الطريق الوحيد أمام السفير بنهج باب الهواء إزاء جامع الفركوس، وهناك نصبوا الحصار وصعد الشيخ الحفناوي الصدّيق فوق سطح الجامع وأخذ يحرّض الناس على الثبات وتسليم العريضة مهما كانت الظروف وجاء الموكب وارتمى أحد المواطنين أمام سيّارة السفير فتوقفت عن السير وتسلم العريضة ووعد بإبلاغها إلى حكومة فرنسا. كانت الجماهير في تلك اللحظة

تنادي بحياة الحزب وبحياة القادة الأحرار الأمر الذي تسبّب في إعلان حالة الحصار بالجريد وألقي القبض على المتظاهرين ومن بينهم الفقيد وأحيلوا إلى قفصة ومنها إلى سوسة حيث حكم عليهم بالسجن والخطيّة بتهمة إعادة حزب منحلّ.

قضّى الفقيد مدّة السجن المحكوم بها عليه وعاد إلى الجريد ليقوم بنشاطه المعتاد رغم الأمراض التي كانت تتوالى عليه من جرّاء سجنه وتعذيبه إلى أن احتلت جيوش المحور البعض من تراب البلاد التونسيّة في أواخر سنة 1942، وألقي عليه القبض من طرف أعوان الجندرمة بتوزر في أوائل سنة 1943 بدعوى التعاون مع دول المحور، وكانت النيّة مبيّتة على إبعاده إلى إفريقيا الغربيّة لكن الظروف المتقلبة آنذاك حالت دون تنفيذ هذه الرغبة إذ بمجرّد طرد دول المحور من تونس انتقل الفقيد إلى تونس واختفى بها إلى أن عاد الحبيب بورقيبة إلى الوطن قادما إليه من إيطاليا فاتصل به وزوّده بما يجب من المعلومات عن الموقف الخطير السياسي الذي تقفه تونس في مختلف الاتجاهات السياسيّة.

وعلى ضوء تلك التعليمات حرّر تقريرا هامّا عن الحالة بالجريد بعث به إلى الجنرال جوان مقيم فرنسا بتونس في ذلك العهد وقفل راجعا إلى الجريد، وبمجرّد حلوله به ألقي عليه القبض وزجّ به في السجن بدعوى افتكاك السلطة إبّان الاحتلال المحوري مع أنه كان يعامل المتساكنين بوصفه المسؤول الدستوري الأوّل بتوزر بقطع النظر عن جنسيّتهم ودينهم المعاملة الحسنة على عكس أوامر فيشي التي أوصت باضطهاد اليهود، وبعد قضاء مدّة في السجن تشفيا وانتقاما أطلق سراحه فعاد إلى نشاطه بعد استرجاع صحّته نسبيّا.

جريـــدة الجـــهاد

رأى الفقيد أنّ أحد أبناء الجريد قد أسّس جريدة كان يأمل أن تكون صادقة في لهجتها مخلصة في سعيها داعية إلى تحرير

الوطن على المنهج السياسي الواضح، ولكنها بكلّ الأسف كانت تسير في طريق لم ترق له خصوصا عندما أيّدت وزارة التجربة الكعّاكية[4] فقرّر أن يخوض ميدان الصحافة بنفسه وأن يبذل ما له من مال وبقيّة صحّة في خدمة صاحبة الجلالة، فحصل على امتياز جريدة سمّاها "الجهاد" وأصدر عددها الأوّل يوم السبت 27 نوفبر 1948 وقد أراد أن تكون جريدة المغرب العربي الكبير ففسح فيها المجال لقضايا الجزائر والمغرب وليبيا ونشرت الفصول والأنباء والصّور عن القادة والزعماء في كامل المغرب العربي مع اتجاه موحّد في السياسة في ذلك العهد.

كانت إدارة الجريدة بسوق اللفة عدد 116 بتونس وكانت تطبع بمطبعة التليلي بنهج المفتي عدد 18 بتونس أيضا ولها حساب جار تحت عدد 13337 بتونس، وكان يساعده في شؤونها ابنه الأكبر شفيق العجيمي الموظف بالعدليّة التونسيّة بباجة وكتب فيها بعض الفصول، ومن أبرز من حرّر في هذه الجريدة السيّد بدرالدين المؤدّب التوزري الذي كانت فصوله لا تخلو من الشدّة والصلابة أحيانا في نقد السلوك الاستعماري. عالجت الجريدة في فصولها قضايا الجريد بصفة خاصّة والقضيّة الوطنيّة في نطاق المغرب العربي الكبير بوجه عام، وكان الفقيد ينفق عليها من ماله الخاصّ منتظرا من باعتها ومتعهّدها أن يوافوه بما تجمّع لديهم من أموالها ولكنهم رغم خطابهم في هذ الشأن بعددها الثامن لم يفعلوا شيئا.

احتجابها

أعلنت بعددها الثامن أنها فتحت بابها لخدمة الأدب ونشر الثقافة وبدأت بذلك في نفس العدد حيث نشرت قصيد الأديب الناصر بن سلطانة، وفي عددها الموالي وهو التاسع والأخير الصادر في 14 ماي 1949 خصّصت من صفحاته الأربع صحيفة للانتاج الفكري احتوت على شعر ونثر لبعض الأدباء

وفي الحقيقة فإنّ هذه الجريدة كانت جديرة بالتشجيع ولكن الظروف لم تساعدها على البقاء فاحتجبت واقتصر مؤسّسها على نشاطه السابق.

تقدير

وقد أكبر الحزب عمل هذا الرجل المكافح فمنحه وسام الاستقلال اعترافا بجميله وبما أسداه من الخدمات لفائدة الوطن. وهكذا أقعده المرض عن موالاة نشاطه إلى أن التحق بالدار الآخرة يوم السابع من شهر ماي سنة 1967 رحمه الله تعالى حيث دفن بتوزر غفر الله له.

ومن المعلوم أنّ الفقيد المناضل محمّد علي العجيمي ترك أرملة شاطرته المحن والأهوال وترك ابنين هما شفيق الموظف بالعدليّة التونسيّة ومحمد المنصف الطالب بالمدرسة العليا للحقوق.

---

* "الصباح" بتاريخ 7 ماي 1968، عنه في "صدى الذكريات" لعلي الشابّي ص 51.

1) هو محمّد الشافعي بن محمّد الشريفي النفطي المعروف بالفيلسوف الديني ولد بنفطة خلال سنة 1883 وتوفي في 24 ماي 1938، عضو ناشط في الحزب الحرّ الدستوري وهو أوّل رئيس شعبة للديوان السياسي بنفطة سجن المرّات المتعدّدة في تونس وسوسة وبنزرت والكاف والجزائر كما وضع تحت الرقابة الإداريّة، نشر في الزهرة والنهضة والوزير والعصر الجديد العديد من النصوص نثرا وشعرا، له مولفات مطبوعة هي التالية:

- نور اليقين في الردّ على الملحدين، وقد طبع منه خمس كرّاسات في المطبعة التونسيّة.
- تاريخ الاسلام وقد نشر تباعًا في النهضة خلال سنة 1924.
- القصيدة العلويّة، طبعت في النهضة.
- القصيدة التجانيّة، طبعت في النهضة.

عنه وله انظر جريدة الوزير في 21 فيفري 1921 و30 أكتوبر 1922 و15 جانفي 1927 وجريدة الزهرة في 24 أوت 1916 و16 سبتمبر 1926 و22 أكتوبر 1936 و22 جوان 1938.

2) الشيخ محمّد الحفناوي الصدّيق ولد خلال سنة 1897 وتوفي في 24 أوت 1980 شارك في الحركة الوطنيّة، نشر عددا كبيرا من النصوص النثريّة والشعريّة في جرائد لسان الشعب والوزير والصباح ومجلة الإذاعة وغيرها، عنه انظر دراستين لنا في مجلة الهداية العدد 3، السنة 26، أوت/سبتمبر 2001 والعدد 5، السنة 26، ديسمبر 2001 / جانفي 2002.

3) عن دقاش وآل الرويسي انظر أطروحة دكتوراه مخطوطة للأستاذ منصر الرويسي تحت عنوان:

Une oasis du Sud Tunisien Le "Jerid". أعدّت تحت إشراف جاك بارك.

4) والمقصود جريدة "لسان العرب" التي أصدرها عبد العزيز الشابّي (1910 . 1986) فيما بين 21 جانفي 1947 و18 أوت 1948 عنه في "صدى الذكريات" لعلي الشابّي ص 30 وما بعدها.

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



عبد الرحمان اليعلاوي*

(1898 ـ 1976)

ولد بمدينة سوق الأربعاء في أوائل القرن العشرين وتعلم ابتدائيّا هناك ثمّ انتقل إلى تونس حيث التحق بجامع الزيتونة لمتابعة التعليم الثانوي به إلى أن أحرز في عام 1923 على شهادة التطويع وكان يسكن بمدرسة الجامع الجديد.

وصادف أنّ الحركة الدستوريّة قد اشتدّ ساعدها إثر حوادث 5 أفريل 1922 التي تنازل فيها الملك الناصر عن العرش التونسي وكان المترجم له ممن نظموا المظاهرة الزيتونيّة التي خرجت من المدرسة السليمانيّة قاصدة نهج إنقلترا حيث مركز الحزب الدستوري التونسي ومن هناك انتقل المتظاهرون مع عموم الشعب الذي انضمّ إليهم إلى المرسى لمقابلة الملك المتنازل وتشجيعه على موقفه.

وكانت للدستور عدّة صحف ناطقة باسمه وكانت الحكومة كلما رأت عملا لا يوافق هواها من تلك الصحف تعطلها إداريّا بقرار وزاري وكان الذي يتولى إدارة الصحف الدستورية هو السيّد الحاج علي بن مصطفى، ومن أشهر الصحف التي أصدرها أو تولى إدارتها والانفاق عليها جرائد الأمّة والمبشر والممثل والقيروان والاتحاد، وكانت تلك الصحف يحرّرها نخبة من نجباء جامع الزيتونة أو المدارس القرآنيّة أمثال المرحوم الشيخ الطاهر الحدّاد والسّادة محيي الدين القليبي وأحمد توفيق المدني والمترجم له ونشرت له أيضا صحف أخرى مقالات في القضايا

التونسيّة مثل الصواب ولسان الشعب[1] ومجلة الجامعة الزيتونيّة ومجلة البدر وهو من الذين أسّسوا "الجامعة الزيتونيّة" (كذا في الأصل).

بدأ المترجم له يحترف السياسة مع الحزب الحرّ الدستوري وكان أثناء ذلك يتمّم معلوماته الابتدائيّة باللغة الفرنسيّة التي بدأ تعلمها في صغره بسوق الأربعاء مدّة خمسة عشر شهرا وكان يتابع الدروس الليليّة ويقرأ كلّ يوم جريدة الدبّيش وجريدة الزهرة فما صعب عليه فهمه من الأخبار بالأولى عاد إليه في الثانية وكان الشيخ صالح بن محمود هو مترجم الزهرة الأوّل الذي له براعة فائقة في الترجمة.

ولمّا حصلت حوادث 1925 التي نصبت فيها الحكومة تمثالا للكردينال لافيجري بساحة البورصة في مدخل مدينة تونس من الجهة الشرقيّة نظم الحزب مظاهرة ضدّ هذا الحادث وكان اليعلاوي في مقدّمة من حمل الزيتونيّين على الإضراب والتظاهر ضدّ هذا الاعتداء فقرّرت الحكومة إبعاده إلى القطر الجزائري الشقيق واختارت له مستقرّا مدينة عنابة بدعوى أنّ عائلته انتقلت منها إلى سوق الأربعاء مسقط رأسه.

لم يبق مكتوف الأيدي في منفاه بل أخذ يعمل هناك فكان يلقي دروسا في اللغة العربيّة والدين الإسلامي ويباشر عملا تجاريّا يرتزق منه، ولقي من سكان تلك المدينة كلّ إجلال وإكبار فكانوا يستشيرونه في المهمّات ويعتمدونه فيما يعرض لهم من الحوادث.

عندما أبعد إلى القطر الجزائري لم يُمَكَّن من مفارقته إلى أيّة جهة أخرى حيث وضع تحت الرقابة الإداريّة وبقي على تلك الحالة لا يسمح له بالعودة إلى تونس إلا خلال عام... [2] حيث رفع عنه القيد المشار إليه.

في شهر نوفمبر 1932 انتقل اليعلاوي إلى باريس لتعاطي عمل في إحدى شركات الضمان الفرنسيّة ولمّا حلّ بها لقي

حفاوة كبرى من الطلبة الإفريقيّين ودعي إلى نادي جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين لتكريمه وخطب في الاحتفاء به عدد ذو بال من التلاميذ الإفريقيّين ومن السوريّين واللبنانيّين.

لمّا أراد اللحاق بشركة الضمان لاقى صعوبة قانونيّة وهو أنه لا يمكن ترسيمه في عمله إلا إذا كان محرزا على شهادة رسميّة دوليّة في الضمان فشمّر عن ساعد الجدّ وأخذ يعمل بالنهار ثماني ساعات ويزاول التعليم ساعتين ليلا في كلّ يوم وبعد مضيّ ثلاثة أعوام من الدراسة حصل على الشهادة المطلوبة وبذلك أصبح موظفا رسميّا في الشركة يمكن له عند انقضاء عشرين عاما في العمل الإداري أن يحصل على جراية عمريّة مناسبة وهو ينوي بعد ذلك القيام بجولة في الشرقين الأدنى والأوسط للتعرّف على أحواله.

وأثناء إقامته الطويلة بباريس كانت جمعيّة العلماء بالجزائر تعتمد عليه في القيام بإعطاء بعض الدروس الوعظيّة في نواديها التي أسسها الفضيل الورتلاني[3] منذ عام 1937 وعلى الأخصّ في مدّة شهر رمضان فكان يقوم بها أحسن قيام.

ملاحظة

استفدت ببعض هذه المعلومات منه يوم 1370/12/9هـ الموافق يوم 1951/9/10 ونحن ببنزرت في ضيافة السيّد الحبيب جاء وحده[4] ومعنا الأستاذ عبد القادر التعبوري.

---

*من أرشيف المهيدي في المكتبة الوطنية. توفي الشيخ عبد الرحمان اليعلاوي إثر حادث سير في الجزائر جدّ يوم 16 مارس 1976 ودفن في جندوبة في 18 منه. عنه انظر دراسة لعبد الحميد الهلالي عنوانها "انخراط المثقفين الزيتونيّين في النضال الوطني خلال العشرينات: عبد الرحمان اليعلاوي نموذجا" منشورة ضمن أعمال الندوة الدولية الحادية عشر، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية، منشورات المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس 2003.

1) في العدد 207 من جريدة لسان الشعب بتاريخ 27 جانفي 1926 إعلان عن نيّة المترجم له طبع كتاب عنوانه "الأدب والاجتماع" جمع اشتراكاته إلا أنه لم يتمكن من ذلك لأن الحكومة أبعدته إلى مسقط رأسه.

2) بياض في الأصل.

3) جزائري ولد سنة 1900 وتوفي سنة 1959 في تركيا، انخرط في جمعية العلماء المسلمين وقام بأدوار مهمة في مصر واليمن وفرنسا، ترك المهيدي ترجمة له في أرشيفه في المكتبة الوطنية ما زالت مخطوطة استند فيها إلى ما رواه عنه الشيخ عبد الرحمان اليعلاوي سنة 1951، عنه انظر "أعلام الصحافة في الوطن العربي" نشر مؤسسة الألكسو، تونس 1997، المجلد الأوّل من الجزء السادس، ص 110 وما بعدها.

4) ولد الحبيب جاء وحده في بدايات القرن العشرين في مدينة القيروان حيث تشرب حب اللغة العربية ومنها انتقل للدراسة في تونس ثم في فرنسا إلى أن تحصل على شهادة في الصيدلة، وقد نشر قصائد أبانت عن تظلع في اللغة وحسن سبك ودراية بالنظم وأوزانه توفي يوم 7 فيفري 1967، عنه في الزهرة في 7 جويلية 1919 والقيروان في 2 جويلية 1921 والوزير في 23 ماي 1921 والصواب في 27 ماي 1921 والأسبوع في 11 فيفري 1946 والصريح في 22 فيفري 1951 والصباح في 7 أكتوبر 1965 والعمل في 17 فيفري و24 مارس و7 أفريل 1967 والصباح في 29 فيفري و7 مارس و29 أوت 1968 و20 فيفري و6 مارس 1969 ومجلة الهداية السنة 23 العدد الثالث في أوت وأكتوبر 1998. سبق للحبيب جاء وحده أن أجرى حديثا مع عبد الرحمان اليعلاوي نشره في جريدة الإرادة بتاريخ 1 و2 جويلية 1934 كما نشر علي الجندوبي حديثا لليعلاوي في جريدة الأسبوع بتاريخ 24 سبتمبر 1951.



محمد الصالح الخماسي *

(1910 ـ 1992)

هو ابن السيّد علي الخمّاسي مؤسّس ومدير المدرسة القرآنيّة ببنزرت وأحد أعيان تلك المدينة. ولد ببنزرت سنة 1910[1] وتعلم في مدرسة والده هناك ثمّ أرسله إلى تونس حيث انخرط في سلك تلامذة جامع الزيتونة سنة 1926 وتابع دروسه فيها وفي المدرسة الخلدونيّة. تلقى أصول الخط على أخيه السيّد عبد العزيز عندما كان يتعلم بالقرآنيّة ببنزرت.

أحرز على التطويع في العلوم بجامع الزيتونة سنة 1932 وشرع يدرّب التلامذة على الخط بالخلدونيّة وألف رسالة في هذا الشأن دعاها "المنهج الحديث لتعليم الخط العربي" وهي تحتوي على أربع أو خمس كرّاسات. وفي سنة 1936 انتدب لتدريس الخط بالزيتونة لتلامذة المرتبة الأخيرة.

ولمّا كانت الصحافة غير مسموح بإصدارها في تونس لم يجد مجالا لإبراز ما له من المواهب الكاملة في التصوير والخط الذي كان يدرّسه عن طريق تقليد ما يرد على تونس من مصر من مجلات دار الهلال وغيرها خصوصا مجلة الفكاهة. قام بتجربة صحفيّة أولى فأصدر نشريّة عنوانها "الصحائف الضاحكة" نالت رواجا في مختلف الأوساط الدراسيّة ثمّ أصدر نشرة ثانية تحت عنوان "الصحائف المصوّرة".

تأسيس مكتب

ثمّ أسّس في سنة 1932 مكتبه المعروف بنهج القصبة حيث أصدر مفكرة الجيب سنويّا وهي تصدر بانتظام. ولمّا وقع السماح للصحافة التونسيّة بالبروز سنة 1936 فكر في إصدار صحيفة مصوّرة وبقي ينتظر الفرصة السانحة له لإبراز الفكرة إلى عالم الوجود.

تونس البريديّة

وحدث أن لاح للحكومة الفرنسيّة شبح الحرب فأسّست في تونس محطة للإذاعة دعتها محطة تونس البريديّة، وتبرّعت لها بجهاز فني وجاء وزير البريد الفرنسي إلى تونس ليدشن هذه المحطة سنة 1938 فاغتنم الخمّاسي هاته الفرصة واتفق مع المسؤولين على إصدار مجلة عنوانها "الراديو والسينما".

الراديو والسينما

وفي يوم 20 جوان 1938 صدر العدد الأوّل من هذه المجلة التي كان صاحب امتيازها السيّد محيي الدين بنعيسى.

المطبوعات الرسميّة

كان للدعاية التي بثها حول المجلة التي أصدرها أثر بعيد في حصوله على شهرة في عالم الخط والتصوير فكلفته الحكومة بعدّة مأموريّات منها كتابة النقود الفضيّة والذهبيّة التي طبعت في عهد أحمد باي الثاني ومنها كتابة الطوابع الذهبيّة لكلّ أمير تونسي يتولى أمر الملك ومنها طوابع أختام القضاة والمفتين الشرعيّين.

النياشين

أنعم عليه أحمد باي بالصنف الثالث من نيشان الافتخار، كما أنعم عليه محمّد الأمين باي في 20 سبتمبر 1945 بالصنف الأوّل من النيشان المذكور.

توسيع دائرة العمل

بعد أن تمّ زواجه في سبتمبر 1940 من ابنة السيّد عبد العزيز بنعيسي أصبح يُعَاضِدُهُ في عمله الإداري صهره محيي الدين أخ زوجته ويتولى التوسّط بينه وبين الأفراد والشركات في شأن تصوير وتخطيط ما يطلب منه.

المطبعة

وكان من الضروري أن يمتلك مطبعة فنيّة تقوم بطبع ما يحتاجه من المطبوعات وما يصدره مكتبه من دوريّات سنويّة كمفكرة الجيب واليوميّة الفنيّة فأسّس مطبعة سنة 1945 دعاها بدار الفنون وسمّى اليوميّة بيوميّة دار الفنون وامتلك لها محلا بضاحية بن عروس حيث تجري أعمالها المطبعيّة.

إحالته على المعاش

في شهر أكتوبر 1960 أحيل على المعاش من التدريس بالزيتونة.
25 أكتوبر 1960

---

* من أرشيف المهيدي في المكتبة الوطنية، كتب هذا المقال بعد إحالة الخمّاسي على التقاعد ولم ينشر.

1) ترك محمّد الصّالح المهيدي سنة ولادة المترجم له بياضا وقد استندنا إلى عبد الواحد إبراهم في تحديد العام. توفي محمّد الصّالح الخمّاسي يوم الجمعة 15 ماي 1992. عنه انظر جريدة الصباح أيّام 17 و26 ماي و23 جوان 1992.

صالح بن رشيد*

التونسيّون الذين توجّهوا إلى المغرب الأقصى وكان مستواهم الثقافي حسنا أو فوق المتوسّط قاموا بعدّة أعمال منها ما يدخل في نطاق العمل الحرّ كالتجارة والصحافة والسمسرة، ومنها ما يدخل في نطاق خدمة الحكومة كالوظيف العمومي والطبّ في المستشفيات والترجمة بإدارة المخزن والعسكريّة وغيرها، من الصنف الأوّل السادة صالح بن رشيد والهادي السبعي وأحمد السبعي وعبد الرزّاق الغطاس وغيرهم، ومن الصنف الثاني البشير الدنقزلي (حكيم) ومحمّد السّعيد الخلصي وعثمان بن عمر ومحمود السّايب وغيرهم.

من هو صالح بن رشيد ؟

هو ابن القائد رشيد الذي تولى عدّة خطط إداريّة وعسكريّة في عهد الباي محمّد الصادق، تعلم مبادئ اللغتين العربيّة والفرنسيّة في القرن التاسع عشر[1]، وفي أوائل هذا القرن بدأ عمله في السمسرة، وأكبر قضيّة باشرها في عامي 1904 و1905 جرّت له من الربح مليونا ومائتي ألف فرنك جعلته يهاجر من البلاد التونسيّة إلى فرنسا، وفي أحواز باريس اشترى قصرا فخما وأثثه بأفخر الرياش وهناك تزوّج بفرنسيّة من الطبقة الأرستقراطيّة. وأمّه هي أخت لأمّ عصمت إنونو حيث إنّ والده رشيد تزوّجها في مدينة إسطنبول. ومن جملة ما اشترى (كرّوسة) من نوع الجرمانة الفاخرة واشترى لها من الخيول ما يغري بمتابعة النظر إليها عند المسير.

هذه الحياة الجديدة التي كان يحياها أكسبته كثيرا من الأصدقاء الفرنسيّين الذين كانوا يجاورونه في الحيّ الذي كان يسكنه.

ولمّا قارب نفاد ما بيده من المال رغم عمليّات السمسرة التي باشرها هناك وهي شراء الأراضي بالجملة وبيعها بالتفصيل قرّر الانتقال إلى المغرب الأقصى بعد أن تمّ احتلال أكثره من طرف الجيوش الفرنسيّة وتمّ إبرام معاهدة الحماية سنة 1912 بين فرنسا والسلطان مولاي عبد العزيز.

في هذا المهجر الجديد بدأ يعمل ما كان يتعاطاه من الأعمال بتونس وفرنسا ووجدت فيه الحكومتان الحامية والمحميّة الرجل القدير على إقامة الولائم والمآدب واقتبال الوافدين من فرنسا على المغرب في قصره الذي اشتراه هناك، ووجد فيه رجال القصر نفسه نِعْمَ المساعد على قضاء ما يريدون قضاءه من حكومة الحماية من شؤونهم الشخصيّة، وتعرّف عليه الوافدون على المغرب من الجزائر وتونس وأصبح محلّ الثقة والمحبّة من طرف الجميع، وتكوّنت بينه وبين السلطان مولاي يوسف علاقة متينة، الأمر الذي حمل ابنه مولاي محمّد على توطيد علاقته به من تاريخ ولايته في شهر نوفمبر 1927 وكان صغير السنّ آنذاك، فبدأ التزاور بين أفراد العائلة المالكة وعائلته إلى أن ارتبطت أواصر الودّ بين ابنته شاذليّة وبين ابنه ووليّ عهده الحسن ولمّا نفي السلطان انتقل صالح بن رشيد إلى تونس مع أنصار المبعد عن عرشه كمحمّد الخطاب الجزائري خوفا على أنفسهم من أن تغتالهم اليد الحمراء الفرنسيّة وبقوا هنا عدّة أشهر إلى أن هدأت الحالة فانتقلوا إلى فرنسا وانتصبوا للدفاع عن السلطان والمطالبة بعودته إلى عرشه.

عمل سابق

لم ينقطع صالح بن رشيد عن فرنسا بعد هجرته إلى المغرب، بل استمرّ في التردّد عليها إلى ما بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى، كما أنّ اتصاله بكبار الشخصيّات الفرنسيّة ازداد متانة

بمناسبة نصب الحماية، فكان محلّ إكبار من طرفهم كلما حلّ هناك يؤدّون له الخدمات التي يرغب في قضائها في الميدان الحكومي والميدان الحرّ.

وقد امتاز هذا الرجل بصفات قلما توفرت في غيره منها الكرم والشهامة والغيرة الإسلاميّة ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها في هذا الشأن حادثتين هامّتين:

أولاهما أنّ الوفد التركي الذي جاء إلى مدينة لوزان سنة 1922 للمطالبة بإعادة النظر في معاهدة (سيفر) وتعويضها بأخرى يقع الاعتراف فيها بما لتركيا من الحقوق التي سلبتها منها هذه المعاهدة وجد منه مساعدة تذكر، إذ من المعلوم أنّ ألمع شخصيّة صحبت الوفد التركي هي عصمت باشا الذي اشتهر فيما بعد بعصمت إنونو العاهل التركي الشهير هو ابن خالته، فبمجرّد حلول الوفد بباريس في طريقه إلى لوزان بسويسرة اتصل عصمت إنونو بصالح بن رشيد وطلب منه تسخير معارفه من الفرنسيّين وغيرهم ليجعلوا من معاهدة (سيفر) خرقة بالية، فكان من رأيه تأسيس جريدة فرنسيّة بلوزان لهاته الغاية واستئجار كبار المحرّرين ليقوموا بالدفاع عن القضيّة التركيّة، وتأسّست الجريدة وكان صالح بن رشيد أحد مموّليها، يؤدّي قسطه الشخصي من المال لفائدة المشروع ويجمع من معارفه بفرنسا وغيرها من الأحرار أموالا أخرى لفائدة هذه الجريدة، والنتيجة كما هو معروف كانت الوصول إلى الغاية المنشودة وهي إلغاء معاهدة (سيفر) وتعويضها بمعاهدة (لوزان).

وثانيتهما التي ضرب فيها صالح بن رشيد بسهم صائب هي قضيّة إبعاد السلطان مولاي محمّد عن عرشه، ذلك أنه زيادة عن العلاقات الوديّة التي كانت بينهما كانت هناك علاقات بين ابنته شاذليّة وبين الحسن ابن السلطان وكان من المتوقع أن تسفر عن زواج شرعي إذا صادق والده محمّد الخامس على إلغاء القانون المتبع بالنسبة لأفراد العائلة المالكة، هذا الارتباط بين الأبوين

وابنيهما جعل من صالح بن رشيد المدافع عنه رقم واحد ويسانده محمّد الخطاب بأمواله الوفيرة، فقد اتفق الرجلان على شراء ضمائر كثير من أصحاب النفوذ بفرنسا من صحفيّين وبرلمانيّين بما لهما من وجاهة ومال ليتصدّوا للدفاع عن المبعد السياسي وإرجاعه إلى عرشه بعد خلع خلفه غير الشرعي ابن عرفة، ورغم تصلب الجنرال جوان فقد تمكنت شاذليّة من مقابلة رئيس حكومة فرنسا إدغارفور والحصول منه على وعد بإرجاع الملك الشرعي إلى وطنه، وهكذا لم يمض أمد طويل حتى كان المغرب كله في فرحة شاملة بعودة ملكه بعد أن نقل من منفاه إلى باريس وتمّ إمضاء معاهدة الصداقة ووثيقة الاستقلال مع حكومة إدغارفور.

أمـل يتحطـم

لم يستمع محمّد الخامس إلى نداء ابنه لإدخال تغيير على قانون الزواج الملكي بالمغرب، وقبل أن تتعيّن زوجة وليّ العهد استطاعت شاذليّة أن تكون في قصر الوزير الطيّب بن هيمة وأن تنال منه ما اعتادت نواله من وليّ العهد من العناية والمكانة باعتبار أنها من المقاومات للاستعمار وكان منه أيضا وعد بالزواج ثمّ عدل عن ذلك وحاول التخلص منها، ولكنّ أمرا ملكيّا صدر إليه ليؤدّي إليها في كلّ شهر مائتي ألف فرنك مغربيّة حتى تتمتع بحفظ كرامتها وتجد من ذلك خير جزاء لما قدّمته من الأعمال لوطنها الثاني المغرب الأقصى.

شركـة جديـدة

في مدينة باريس رجل وهو(...)[2] اشتهر بالنجاح في صفقاته الماليّة ومغامراته الاقتصاديّة وساعده على ذلك وجود جريدتين هناك تنطقان باسمه وتدافعان عنه وتهيّئان الجوّ له كلما دخل في مناقصة حكوميّة.

ومن حصافة رأي صالح بن رشيد عزمه على عقد شركة مع هذا الرجل والدخول معه في بعض الصفقات الماليّة الكبرى

وخاطبه في هذا الشأن فوافق وكانت أوّل مناقصة اشتركا فيها جرّت إليهما من الربح 27 مليونا من الفرنكات أخذ منها صالح بن رشيد 12 مليونا والباقي تسلمه المليارديرالفرنسي.

وبهذا الربح الوفير تمكن صالح بن رشيد من قضاء بقيّة عمره موفور الكرامة محبوبا من مختلف سكان المغرب سواء في ذلك الوطنيّين وغيرهم مع الملاحظة بأنه كلما انجرّ له من ربح وفير في صفقة ذات أهميّة أنفق جانبا منه على من حوله من أصدقاء وأقارب وجدّد بالباقي عمله الاعتيادي وهو شراء الأراضي الصالحة للبناء وتسجيلها ثمّ تقسيمها وبيعها بالتفصيل بعد تعبيد طرقاتها وإدخال الماء والتنوير.[3]

ومات عليه رحمة الله.

ملاحظة

المعلومات أعلاه استفدتها من الكابيتان محمود السّايب في 16 أوت 1966.

---

* من أرشيف محمّد الصّالح المهيدي في المكتبة الوطنية.

1) ورد اسمه ضمن قائمة التلامذة المسجّلين في المدرسة الصادقية سنة 1880، عن كتاب الصادقيّة والصادقيّون لأحمد عبد السلام بالفرنسيّة، كما جاء ترتيبه العاشر من بين الأعضاء المؤسّسين للنادي التونسي، عنه في "حركة الشباب التونسي" لنور الدين الدقي، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، سلسلة وثائق ونصوص من تاريخ تونس المعاصر، عدد 5، تونس 1999.

2) بياض في الأصل.

3) ترجم الطيّب بن عيسى لصالح بن رشيد في كتابه "من مشاهير المهاجرين والرحّالين" وهو مخطوط مؤرّخ في 25 جويلية 1957 سبق لمؤلفه أن نشر بعض فصوله في الصحافة وقد مكننا من نسخة منه مشكورا الأستاذ أبو القاسم محمّد كرّو نقتطف من الصفحتين 73 و74 وما يلي:

- درس صالح بن رشيد في الصادقيّة ومن أقرانه أبناء باش حامبه علي ومحمّد وصالح.
- بعيد الانقلاب العثماني الواقع عام 1908 قصد المشرق وحلّ بإسطنبول عاصمة الخلافة الإسلاميّة في ذلك العهد وأسّس على ساحل البوسفور روضة سمّاها كازينو وكانت على ملكه الخاصّ بناية وتأثيثا فكوّنت له ثروة واسعة لا يستهان بها.
- عرفته وأنا صغير بتونس ورأيته بمكتبه جوار محطة السكة الحديديّة الرابطة لتونس بحلق الوادي والمرسى وفروعها ثم لاقيته برحلتي الأولى للمغرب عام 1923 ثمّ في رحلتي الثانية عام 1948 فعرفت فيه كمالات لا تحصى ولا تعدّ وعلى ما أتذكر أني اجتمعت به في محله وكان وقتئذ الزعيم الباهي الأدغم حاضرا بالمائدة التي أقامها بمنزله بالرباط تكريما لضيوفه.
- عندما أمّ قصر الملك المغفور له محمّد الخامس وفد تونس في عيد العرش صباحا يوم 13 نوفمبر 1948 كان يرأس الوفد المرحوم السيّد صالح بن رشيد رئيس الجالية التونسيّة بالمغرب، وقد حدّثنا عن يوم حلوله بالمغرب قبل انتصاب الحماية الفرنسيّة وأنه نزل بدار قسوس (الجدّ للوزير أحمد بلافريج من جهة الأمّ).



الشيخ إبراهيم اطفيش*

(1888 ـ 1965)

عائلته وشبابه

عائلة اطفيّش عريقة في بلدة بني يزقن بميزاب من القطر الجزائري الشقيق، فالشيخ إبراهيم الكبير قطب من أقطاب المذهب الأباضي له مؤلفات كثيرة منها شرحه لمتن النيل لمؤلفه الشيخ عبد العزيز التميمي وهذا الشرح يقع في 10 مجلدات ومنها كتاب الذهب الخالص وكتاب شامل الأصل والفرع.

ومن هذه العائلة الشيخ إبراهيم اطفيّش الحفيد الذي ولد سنة 1885 تقريبا[1] وبها قرأ على عمّه المذكور وعنه أخذ أصول المذهب ومبادئ العلوم العربيّة ومن هناك سافر إلى ساقية سيدي يوسف لتعاطي التجارة مع أخيه، ولم تطب نفسه للتجارة حيث عاد إلى عاصمة الجزائر للدراسة فتتلمذ على العالم السلفي الشيخ عبد القادر المجاري، وفي الوقت نفسه كان يقوم بالتعليم في مدرسة ابتدائيّة هناك، ثم عاد إلى مسقط رأسه سنة 1913 لمتابعة تعلمه عند عمّه الشيخ إبراهيم اطفيّش إلى أن توفي هذا الأخير سنة 1914.

وفي عام 1917 جاء مع الإرساليّة الثقافيّة الميزابيّة إلى تونس لمتابعة تعلمه بالزيتونة فقرأ بها على الشيخ محمّد بن يوسف ومحمّد النجّار ومحمّد ابن القاضي ومحمّد النخلي ولم ينقطع عن التعليم إلا في عام 1923 حيث أبعد عن تونس لأسباب سياسيّة أهمّها نشاطه في تدعيم الحركة الدستوريّة هنا.

في القاهـرة

وفي شهر فيفري 1923 حلّ بالقاهرة كلاجئ سياسي وسجّل اسمه بين تلامذة الأزهر لمتابعة تعليمه العالي به، وكان يقضي جانبا من وقته في نشر الكتب التي ألفها عمّه حيث أتمّ طبع الأجزاء الثلاثة الأخيرة من شرح النيل وطبع الكتب الأخرى التي ذكرناها ثم طبع الكتب التي ألفها هو ومن بينها كتاب الدعاية إلى سبيل المؤمنين ومنها كتاب النقد الجليل على العتب الجميل واشتغل بنشر بعض الكتب بالقاهرة في تلك الأثناء أيضا ومن بينها كتاب الملاحن تأليف الإمام أبي بكر محمّد بن الحسن ابن دريد الذي جمع فيه ما ورد عن العرب من الكلام الذي يخرج على وجهين، وساعده في هذا النشاط السيد محبّ الدين الخطيب الذي تولى طبع هذه الكتب بالمطبعة السلفيّة.

مجلـة المنهـاج

بعد مضيّ عامين على هذا النشاط العلمي أضاف إليه نشاطا مشكورا وهو إصداره لمجلة "المنهاج" وذلك بداية من شهر المحرم سنة 1344هـ الموافق 1925م وكانت تطبع بنفس المطبعة وتحتوي على بحوث اجتماعيّة ودينيّة وأدبيّة، تسير سير المجلات السلفيّة مع خلاصة سياسيّة عمّا يجري من الأحداث في العالم الإسلامي.

وبموجب تناولها لأحداث القطر الجزائري الشقيق أصدر الوالي العام بالجزائر قرارا بمنع دخولها إلى التراب الجزائري، ولكنّ هذا القرار لم يمنع اتصال إخواننا هناك بها عن طريق تونس أو فرنسا أو طنجة واستمرّت المنهاج متوالية الصدور عدّة أعوام يتلقاها أنصار فكرة الجامعة الإسلاميّة بقبول حسن لأنّ الفقيد كان من دعاة الجامعة الإسلاميّة خصوصا بعد أن ألغى الأتراك الخلافة الإسلاميّة وأعلنوا جامعتهم الطورانيّة وألغيت الحروف العربيّة وغربلت اللغة التركيّة وذلك بإزالة الكلمات العربيّة الدخيلة تفصّيا من العرب، وقد جمعت القاهرة في ذلك

العهد أقطاب الجامعة الإسلاميّة المبعدين عن أقطارهم وفي المقدّمة الشيخ عبد العزيز الثعالبي ومحمد علي الطاهر[2] ولكي لا يحرموا غير العرب من نشاطهم الدعائي تألفت جمعيّة الرابطة الشرقيّة وكان الفقيد من عناصرها المرموقة.

زواج

فكر الفقيد بعد مضي عام على حلوله بالقاهرة في الزواج فتمّ له مرغوبه حيث تزوّج من حفيدة القائم بأعمال السفارة التونسيّة بالقاهرة قديما الشيخ سعيد الشمّاخي ومنها رزق بعدّة أبناء موزعين الآن بين الجزائر وليبيا والقاهرة.

التحقيق العلمي

اتضح من نشاط الفقيد العلمي للحكومة المصريّة أنه لا غنى عنه في تحقيق التراث الإسلامي فانتبدته دار الكتب المصريّة لمراجعة وتحقيق ما هو معروض من الكتب للطبع في نطاق القطاع الحكومي فاضطلع بهذه المأموريّة أكثر من أربعين عاما كان فيها الكوكب اللامع في تلك الدار لما اشتهر عنه من التحرّي والجدّ والنزاهة.

نظارة وقف الأباضيّة

من بين الأوقاف الخاصّة التي صدرت عن أحد السلفيّين الليبيّين وقف يعرف بوقف الأباضيّين ومن مشمولاته عمارة تعرف بمدرسة ابن طولون وهي بناية تشتمل على محلات في الطابق الأرضي معدّة للكراء، وأخرى في الطابق الأوّل لسكنى الطلبة الواردين من جزيرة جربة ومن جبل نفوسة بليبيا قصد التعلم بالقاهرة، ويصرف ريع الوقف على الفقراء من الطلبة أمّا حقّ السكنى فلا يتوقف على الاحتياج وقد رأت الحكومة المصريّة في الفقيد أهليّة التصرّف فأسندت إليه نظارة الوقف وباشره إلى أن وقع حله على يد وزير الأوقاف الشيخ الباقوري.

المكتبــة الأباضيّــة

وكانت في العمارة مكتبة تحتوي على عدّة مؤلفات في مختلف الفنون والعلوم ينتفع الطلبة بمراجعها، ومن بين محتويات هذه المكتبة خزانة بها كتب وأوراق راجعة إلى الشيخ سليمان الباروني أحد أقطاب الجامعة الإسلاميّة[3] فلمّا وقع حلّ الوقف أعيد ما هو راجع إلى الشيخ سليمان الباروني إلى ابنته الزعيمة النسائيّة بليبيا وأمّا بقيّة الكتب والأوراق فقد أحيلت إلى وزارة الأوقاف لإصلاح ما هو في حاجة إلى الإصلاح ليستمرّ النفع بها، وقد اجتهد الفقيد لتقع المحافظة على الاستمرار بما ينفع الطلبة فتحصّل من الحكومة المصريّة على اعتراف بتبنيهم وبما عسى أن يقدّم منهم فيما بعد محافظة على احترام قصد الواقف.

المؤتـمر الإسلامـي

سنة 1931 سافر من القاهرة رفقة الشيخ محمّد رشيد رضا لحضور أشغال المؤتمر الإسلامي بالقدس، ذلك المؤتمر الذي عقده المسلمون الوافدون من مختلف الأنحاء للنظر في شؤون المسلمين عامّة وقضيّة فلسطين بصفة خاصّة وكان يمثل المغرب العربي في المؤتمر وقد جاء في رسالة منه مؤرّخة في 26 رجب 1350هـ الموافق 7 ديسمبر 1931م كتبها من الفندق العصري بمدينة القدس ما يأتي:"... بلغت القدس الشريف أمس على خير ما يرام ولقد اجتمعت بالوفود ولا تزال تترى وأنباؤها تفيد أنّ آخرهم يصل غدا بعد افتتاح المؤتمر والجهود تبذل لإحباطه ولكنه لا يحبط بل يعقد بحول الله ويسير في طريقه واليهود لم يناموا عنه قط ولا الحكومات الاستعماريّة، وقد سخّرت لإحباطه طائفة من العرب المسلمين والمسيحيّين المعارضين لمفتي القدس. وقد رأيت ابتهاج الوفود ببعضهم واجتمعت بمجتهد الشيعة النجفي بالمسجد الأقصى ويظهر عليه أنه من كبار العلماء وسيفتح المؤتمر هذه الليلة ويبتدئ البرنامج اليوم الساعة الثانية، أمّا المنهاج فأنا

على نيّة استمراره مهما كانت الجهود لأنه من العار الفاضح أن نسكت على المجرمين، أمّا تكاليفها فالعدد الأوّل صرفت عليه حوالي ستة جنيهات والقادم عليه سبعة جنيهات".

نجدة الأصدقاء

كان دعاة الإصلاح الديني في مصر يلاقون أحيانا من الحكومة بعض المضايقات بموجب التدخّلات التي يقوم بها سفراء الدول الأجنبيّة لدى وزير الداخلية المصريّة لتعطيل بعض صحفهم وهذا ما حدث لصاحب الشورى (محمد علي الطاهر) المرار العديدة فكان يلتجئ إلى بعض الصحفيّين الآخرين ليضعوا تحت تصرّفه صحفهم مؤقتا ليتخذ منها ميدانا لنشاطه السياسي، ومن بين من أعاره جريدته الشيخ إبراهيم اطفيش حيث أعاره المنهاج فأصدرها بدل الشورى وفعل مثل ذلك مع صديقه محبّ الدين الخطيب عند تعطيل جريدته الفتح حيث أصدر تحت إشرافه المنهاج على شكل الفتح وتطبع في نفس مطبعتها.

وحدة المغرب العربي

رغم تمسّك الفقيد بفكرة الجامعة الإسلاميّة حيث كانَ من أبرز عناصرها فإنه ساند فكرة وحدة المغرب العربي الكبير عند تأسيس جبهة الدفاع المغربيّة بالقاهرة، وكانت مجلته المنهاج متنفسا لنشر قضايا هذا المغرب ممّا جعلها منظورا إليها بعين الارتياب من طرف الحكومات الاستعماريّة بالمغرب الكبير.

آخـــر الزيـــارات

أدّى الفقيد آخر زيارة إلى البلاد التونسيّة في صائفة سنة 1964 في طريقه إلى الجزائر لحضور حفل زفاف أحد أبنائه هناك حيث اتصل بأصدقائه الكثيرين هنا وتناولت أحاديثه معهم ذكريات الكفاح القومي في عهد الاستعمار البغيض، وزار ليبيا في السنة التي قبلها لحضور حفل زفاف أحد أبنائه هناك أيضا.

كان رحمه الله مخلصا في أعماله محبّا للخير لجميع المسلمين بقطع النظر عن مواطنهم وبموته خسر العالم الإسلامي أحد دعاته السلفيّين، رحمه الله رحمة واسعة ورزق أنجاله جميل الصبر والسلوان.

---

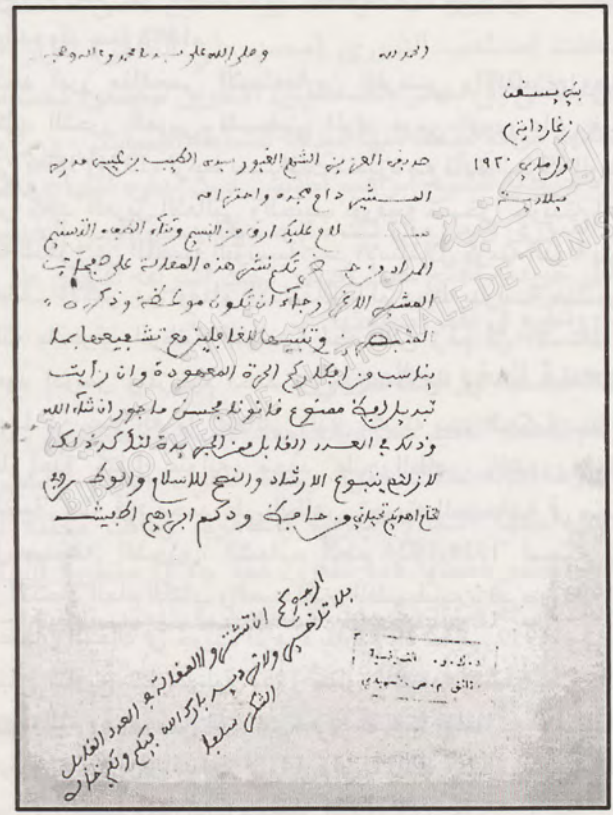
* "الصباح" بتاريخ 6 جانفي 1966.

1) ذكر الزركلي في الأعلام 73/1، استنادا إلى رسالة من ابن المترجم له أنّ والده وُلد سنة 1888م.

2) أحد أبرز مناهضي الاستعمارين الفرنسي والانقليزي ومساندي حركات التحرّر العربي، فلسطيني المولد عربي الهوى عاش فيما بين سنتي 1896 و1974، ارتبط بصداقات متميّزة مع قادة الحركة الوطنيّة في تونس كعبد العزيز الثعالبي والحبيب بورقيبة مسخرا جريدته الشورى وقلمه للدفاع عن القضية التونسيّة، بعد الاستقلال كرّمته الدولة بتوسيمه بالصنف الأكبر من وسام الاستقلال، لم يحظ بدراسة منشورة عن علاقته بالحركة الوطنيّة التونسيّة لحد الآن رغم أن الأستاذ محمد مسعود إدريس والمرحوم أحمد بن ميلاد ذكرا في الصفحة 267 من كتابهما عن عبد العزيز الثعالبي الذي نشرته بيت الحكمة سنة 1991 أنهما أعدّا كتابا عنوانه "محمّد علي الطاهر، الشورى والمسألة التونسية". عنه في "محمّد علي الطاهر، تجربته الصحافية في مصر من خلال صحفه: الشورى، الشباب، العلم 1924/1939" لسميح شبيب، نشر الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين، قبرص 1990، كتب عنه عثمان الكعاك في جريدة الزهرة بتاريخ 19 جانفي 1959، وفي جريدة الصباح بتاريخ 20 جويلية 1967 مقال "المجاهد محمّد علي الطاهر" للبدوي الملثم وهو حسن ابن المترجم له حسبما أفادنا به الأستاذ حسن حمادة صبيحة يوم السبت في 14 ماي 2011، ومقال للشيخ الصادق بسيّس في الصباح بتاريخ 6 سبتمبر 1974.

3) ولد سنة 1873 وتوفي في بومباي في الهند في غرّة ماي 1940، درس في الزيتونة وفي وادي ميزاب قاوم الاستعمار الإيطالي ولقب بزعيم المجاهدين الطرابلسيّين، أصدر جريدة "الأسد الإسلامي" في القاهرة

كما نشر ديوانا ومؤلفات أخرى، للتوسع "حياة سليمان باشا الباروني زعيم المجاهدين الطرابلسيّين" لأبي القاسم الباروني، الطبعة الثانية سنة 1948 مزيدة ومنقحة على نفقة المؤلف، و"سليمان الباروني باشا في أطوار حياته" لأبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، المطبعة العربية الجزائر 1956، و"سليمان الباروني آثاره" لمحمد مسعود جبران، الدار العربية للكتاب 1991.



رسالة الشيخ إبراهيم أطفيش إلى الصحفي الطيّب بن عيسى

لمزيد الإطّلاع والإستفادة

صدر من تأليف محمد الصّالح المهيدي



"تاريخ الصحافة العربية التونسية" (1860 – 1896)

تحقيق وإكمال

أنس الشابي

نشر : نقوش عربيّة

تونس 2010



"من أعلام الصحافة العربية في تونس"

تراجم وأسماء مستعارة

تحرير وإكمال

أنس الشابي

نشر : سحر للنّشر

تونس 2012

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



أنس الشابّي

- متحصّل على الإجازة في أصول الدين سنة 1978 بتقدير جيّد جدًا مع جائزة فخامة رئيس الجمهورية الحبيب بورقيبة.
- نشر في عديد الجرائد والمجلات التونسية.

- صدر له :

* سنة 1991 : "التطرّف الديني في تونس - نقد الفكر والممارسة -".
* سنة 1997 : "الحركة الإسلاموية في تونس - دراسة في المصطلح".
* سنة 2010 : "أهل التخليط" عن دار نقوش عربية.

- وله أيضا :

* "تاريخ الصحافة العربية التونسية (1860 – 1896) / تأليف محمد الصالح المهيدي / تحقيق وإكمال أنس الشابّي - نشر دار دار نقوش عربية - تونس 2010.
* "إنْصَافًا للزيتونة والزيتونيّين" / نشر دار نقوش عربية. تونس 2011.
* "من أعلام الصحافة العربية في تونس - تراجم وأسماء مستعارة" / تحرير وإكمال أنس الشابّي / نشر دار سحر للنشر - تونس 2012.

- كما ساهم بالكتابة عن بعض شعراء الجريد وغيرهم من شعراء الجنوب التونسي في "معجم الشعراء الرّاحلين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر" الصادر عن مؤسسة البابطين للشعر العربي.

BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

محتوى الجزء الثاني

التراجم المهيدية

محسن زكريا 5
محمّد المقداد الورتتاني 9
الصادق التلاتلي 13
محمّد الأخضر البرقاوي 15
علي صوّة 20
حمودة بوسن 28
محمود بورقيبة 36
محمّد بن فضيلة 38
بنعيسى بن الشيخ أحمد 53
الخضر حسين 58
أحمد الشريف 62
الشّاذلي جعفورة 65
محمود بيرم التونسي 70
محمّد العربي الكبادي 74
حمودة القصّار 86
سالم بن حميدة 91
محمّد القلعي 98
محمّد علي العنابي 105
محمّد نعمان 125
محمّد الشّاذلي المورالي 127
أبو الحسن ابن شعبان 144
محمّد فهمي عثمان 161
عثمان بن منصور 166
زين العابدين السّنوسي 1 169

المكتبة الوطنية التونسية BIBLIOTHEQUE NATIONALE TUNISIENNE

زين العابدين السّنوسي 2 186
فرج بسباس 203
محمّد بورقعة 208
علي الخمّاسي 215
مصطفى خريّف 220
محمّد علي العجيمي 228
عبد الرّحمان اليعلاوي 237
محمّد الصّالح الخمّاسي 241
صالح بن رشيد 244
إبراهيم اطفيّش 250

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

الجمهورية التونسية

وزارة الثقافة

المركز الوطني للاتصال الثقافي

من كتب سلسلة "الذاكرة وإبداع"



الكتاب رقم 2

"دموع القمر"

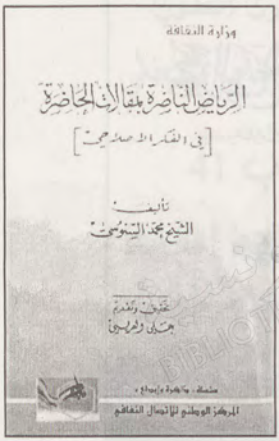
وقصص أخرى

تأليف : مصطفى خريّف

تحقيق وتقديم

محيي الدّين خريّف

صدر في ربيع 1998



الكتاب رقم 10

"الرياض الناظرة بمقالات الحاضرة"

[في الفكر الإصلاحي]

تأليف الشيخ محمد السّنوسي

تحقيق وتقديم

علي العريبي

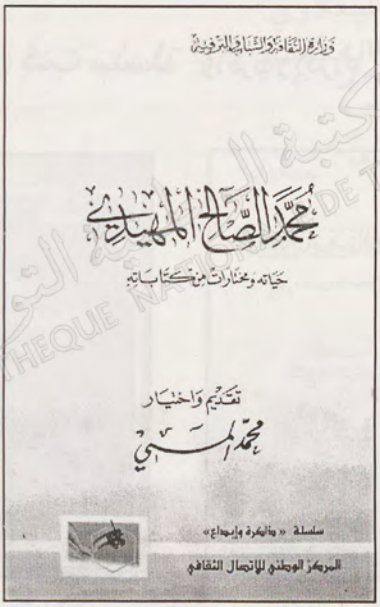
صدر في خريف 2001

BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE
المكتبة الوطنية التونسية

الجمهورية التونسية

وزارة الثقافة

المركز الوطني للاتصال الثقافي



الكتاب رقم 16

"**محمد الصالح المهيدي**"

- حياته ومختارات من كتاباته -

تقديم واختيار

محمد المي

صدر في خريف 2003

المكتبة الوطنية التونسية BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE

وزارة الثقافة والمحافظة على التراث
تونس
المكتبة الوطنية

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

سلسلة "ذاكرة وإبداع"

إدارة نور الهدى الصّرّي
إشراف عبد الوهاب الرخلي

الكتاب 41

"تونس في تراجم أعلامها"

تأليف محمد الصالح المهيري
دراسة وتقديم وتوثيق أنس الشابي
ترتيب المونتاج الطّباعي
آمال السريري
بيربالكوم
لطفي الصير

الإخراج والمتابعة فتحي لواتي

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHÈQUE NATIONALE DE TUNISIE

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب
الهاتف : 70 837 683 – الفاكس : 70 838 975
البريد الالكتروني : mip@gnet.tn

المكتبة الوطنية التونسية
BIBLIOTHEQUE NATIONALE DE TUNISIE



هذا الكتاب

يغلب على تراجم المهيدي طابع الحميميّة التي لا تهمل الحديث عن علاقات المترجم لهم بعائلاتهم وأصدقائهم وشيوخهم وعن أسلوب حياتهم في السوق والجامع ومحلّ العمل والمقهى وعن الطقوس التي يمارسونها في احتفالاتهم الدينيّة والأسريّة والرسميّة، أي أن ما بين أيدينا شهادة على عصر كامل.

إنّ التراجم المهيديّة في جانب أساسي منها تأريخ للحياة الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة في تونس فيما بين أواخر القرن التاسع عشر والثلثين الأوّلين من القرن العشرين، لهذا السبب بالذات اخترنا أن يكون العنوان كالتالي "تونس في تراجم أعلامها" وقصدنا من ذلك توجيه نظر القارئ إلى أن الكتاب كتاب تراجم ولكنه في ذات الوقت سفر لا غنى عنه نكتشف من خلاله وطنا صانه ربّ البريّة وأسلافٌ رحمهم الله وأسكنهم فراديس جنانه بقدر ما أحبّوا هذه الأرض وقدّموا من عمل صالح.

أنس الشّابي

8.500 د.ت